الباب الثالث

أدب الأطفال
فى عيون الفن الأدبى ورواده
فى العصر الحديث

الفصل الأول

مع أدب الطفل والعصر الحديث

أولا – أدب الطفل فى عيون الفن الأدبى :

عرف « أدب الطفل » بشكل أو بآخر معظم الألوان الأدبية ، وأنواع الفنون المختلفة .. فقد عرف الشعر بأشكاله الغنائية والمسرحية الدرامية والحكاية الشعبية بأشكال الحدوته والقصة ، والأسطورة ، ثم السير التاريخية ، وتراجم العظماء ، وكذلك عرف الأغنية الخفيفة والأناشيد الحماسية ... وقد اتفق فى هذا كله مع « أدب الكبار » لكن تبقى لأدب الأطفال خصوصياته ، ولغة الخطاب والرسالة التى يحملها قاصدا فى توجهه أن يتعامل مع الطفولة فى مراحل معينة . كما أن هذه الخصوصيات بين « أدب الطفل » فى مراحل نموه ، والتبادل والتعارف بين الأدب ومتلقيه ليست عوامل مهيئة أو مساعدة ...

وإنما أساسيات فى خلق أدب للطفل ... وهى لا يمكن أن توجد هذا الأدب دفعة واحدة .. ذلك أنه لابد من اجتياز مرحلة اجتماعية وفنية وثقافية ، تتسم بالنضج والتأصيل ، حتى يمكن تعدد التجارب والاهتمامات الخاصة بأدب الأطفال .. وهذا النضج والتأصيل على مستوى المجتمع ، والفن والأدب ، جعل وجود أدب للطفل ، ضرورة من ضرورات التربية والتقدم والمعاصرة .. ويصبح هذا واجبا على عاتق الجميع بما فى ذلك المؤسسات التربوية التى تعتبر المدرسة واحدة من أبرز منشآتها وبيئاتها ومعاملها ، ومراكزها . ومن واقع هذه المسئوليات ، ظهر فى ميدان إبداع « أدب الطفولة » فنانون وهواة ومؤسسات وعلماء نفس ، واجتماع وأديان ورواد أبدعوا ، ضمن ما قدموا من نماذج ، شعرا وقصة وقد قصدوا من وراء ذلك مخاطبة الطفولة ، بشروطها وكان اهتمامهم بأدب الكبار ، يحتل المساحة الأعظم من إبداعهم كله .. الشىء الذى يجعلهم غير متخصصين فى أدب الطفل .. بل مشاركين ، ومتعاطفين ومجربين ، وهؤلاء فى أدبنا الحديث ينتشرون فى المساحة الزمنية الممتدة من « رفاعة رافع الطهطاوى » وتاريخ عودته من فرنسا .. ثم « محمد عثمان جلال » فشوقى « والهراوى » و « سليمان

العيسى » و « عبد التواب يوسف » و « أحمد سويلم » و « فؤاد بدوى » ، وغيرهم حاولوا التجريب والتحديث فى « أدب الطفل » لكنهم لم يتخصصوا فى هذا اللون تخصصا يجعلهم فى حالة إبداع مستمر تلبية لقدراتهم الفنية التى حددتها رسالتهم نحو الأطفال .. وإنما إبداعهم كما قلت فى إطار رسالتهم الإنسانية التى يحققونها فى مجتمعهم بالأدب والفن ، أما المبدع الأصيل فى ميدان أدب الطفل ، فإنه مازال جنين احلم المصرى والعربى وحين نتحدث عنه .. فالحديث ينصب على الإنسان الذى منحته العناية الإلهية ، قدرات الإبداع وهواية الكتابة للأطفال والذى وثق فيه المجتمع ، وأعده ودرب ملكته وهوايته ، كى يبدع لأطفاله ويطل عليهم من نوافذ الإعلام والنشر ، وللملتقيات ، والرحلات والنوادى والمدارس فهو بديل للأم والجدة والآباء والأجداد ... . بل إن أثره قد يمتد مع الأطفال إلى داخل نفوسهم وتلافيف عقولهم وطيات قلوبهم ليشكل من هذه المواقع أفضل قدراتها ويؤثر كما لا يستطيع غيره أن يؤثر ويعطى بسخاء أعظم وأفضل وأقوى هذا المبدع معلما وتربويا يقوم بالتعليم ورش بذور التذوق بماء المعرفة والحقائق العلمية ويمزج بين معطيات التربية والحقيقة العلمية .

من ثم تكتمل شخصية المعلم التربوى فى مراحل التعليم الأولى ... ولهذا كله نستطيع القول بأن « أدب الطفل » أصبح مشروعا حضاريا وقوميا وثقافيا ، وبالدرجة الأولى مشروعا تربويا ، مما يدفع وزارات التعليم على مستوى العالم العربى إلى الدخول فى ميدانه لاستثماره فيما يعود على الشخصية الاجتماعية بالنماء والازدهار ، ويحقق لمناهج التعليم رؤية أكثر نضوجا واستثمارا للمعرفة والحقائق المراد تعلمها . ومع أدب الطفل نحن أمام مبدع يبحث عن الوجود المصرى والعربى الحقيقى ، أى ابن الشعب فى سماته وطبقاته المختلفة ، ويبحث عن الشخصيات الفاعلة والمؤثرة دون جلبة وضوضاء وعن تلك التى تؤدى دورها بإخلاص ثم تضيع وسط الحياة حتى يمكن أن نزرع العدل والحق والانتماء ، والأمان .. ويشكل لنا حياة خرافية وسط آفاق من الأخيلة الممتدة عبر اللامكان واللازمان لنحاول تقريب صورة الكون الحقيقية إلى أذهان أطفالنا ، وذلك عندما نحملهم على الخيال المتوثب والأفكار المتقاذفة حتى يصبح الخيال القوى الحامل عى التفكير هو العنصر الأكثر حضورا فى كل أفكار « أدب الطفل » ورؤاه وانفعالاته وتداعياته الوجدانية والعقلية ... وفى إطار فنى من الأدب الشعبى والحس الاجتماعى ، والوجود التراثى والحضور التاريخى والمكان وهو يموج بالأنوار والزينات ويسبح فى محيط من اللآلئ والألوان والزخارف حينما تسطع الأشياء أو حينما يتدفق المطرب يشدو بالغناء ويحدو الكل بموسيقاه وحلاوة الإيقاع « فأدب

الطفل » لحظة ميلاده يدخل فى ثوب فضفاض من العفوية والتلقائية ... ولكن إعادة النظر فى القصيدة أو القصة أو الحكاية والحدوتة تشكل عند كاتب الأطفال أهمية كبرى ... حيث تخرج من ثوب العفوية هذا ، وبشكله الطفولى إلى درجة كبيرة من الوعى والتجريب ليتم تشكيل ملامح « أدب الأطفال » بأنواعه المختلفة ... ومن ثم يستطيع مبدع هذا الأدب أن يعيد إلى الأطفال قوة الانتماء إلى الحياة وأن يؤكد فيهم الإحساس قويا وجميلا للوطن ولأفراد المجتمع ... ويتم هذا برؤى رومانسية تحلم حلما جماعيا ويتم السمع بأذن جماعية ، ويبصر برؤية صادرة عن الذات الجماعية ... . وصلب هذا الأدب هو الكلمة ... والكلمة فى « أدب الأطفال » ليست جروفا تكون جملة أو انطلاقة فى أساليب وعبارات ، أو كلمات ينتظمها وزن لتغدو مجرد بيات من الشعر أو النشيد أو الأغنية أو فصول فى مسرحيات ... إنما الكلمة فى « أدب الطفل » كائن حى نام وكأنه يخاطب الطفل ويتحدث إليه بالأنغام أو بالأفكار والمغامرات أو بالأخيلة والعواطف والصور والإرشادات والرؤى والتعابير ... ويمتزج فى هذا الأدب تلاحم كامل بين القصة والحدوتة والمسرحية والشعر والأغنية والكوميديا والدراما ، كما يتعايش فى هذا الأدب النموذج التراثى بتوجهاته وإيجابياته والدين والقيم والعادات والتقاليد والمثل والمعاصرة بتجددها وعطائها الحضارى الإيجابى وإنجازها المؤثر ، وثقافاتها التى تفيض بالحضور العصرى ، وقيمه المتمثلة فى الحرية والعدالة والإيمان والتسامح والفعل الإنسانى بنبضه المبدع ، إن « أدب الطفل » بكل هذه الشروط والمقاييس والخصوصيات يندفع من داخله تيار حار متدفق يقدم ذاته وحقيقته وموقعه من الأدب الإنسانى العام كما يطرح باستمرار تساؤلات هى فى شكلها أصغر بكثير من إدراكنا لكنها أكبر من مواقفنا وآمالنا وأحلامنا ... .. وهى متلاحقة لاهثة تبحث عن إجابات حول أطفالنا وأطفال العالم الثالث وأطفال الفقراء فى العالم كله ...

إن الأدب بهذه الخصوصية يفرض علينا أن نكون ضمن معسكر العدل الاجتماعى وحرية الشعوب والأفراد ومجتمعات الإيمان والحق والخير والصحة والسعادة لجميع الأطفال ولآبائهم وأمهاتهم ... إنه أدب يزرع من جديد ضمير الأمة والجماعة والشعوب بعد أن محته الحروب والإحن واستنزاف موارد الأمم وتحويل الشعوب إلى بقرة حلوب لحكامها ، ولقوى الطغيان فى العالم ، كما أن هذا الأدب مطالب بأن يعمل على تنمية الإحساس بالكتابة الأدبية عند الأطفال حتى يستطيع كل طفل البوح بمشاعره ويكتب بعواطفه وما يصادفه من مواقف عاطفية وروحية وإنسانية ... فهذا أمر شائق أن نرى أطفالنا يبوحون عن طريق كتاباتهم الإبداعية بما يخبئونه ويخافون البوح به .. وهذا أول طريق نحو بناء

الشخصية السوية وأول لبنة فى بناء مجتمع سليم وبنية فى جسم المجتمع الواعد ، وهكذا تنشأ علاقة حميمة بين الإبداع ومتلقيه من الأطفال ، ومن خلال هذه العلاقة يمكن للأطفال أن يتعرفوا على أفكارهم الاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية وأن يتحسسوا مشاعرهم التى تدعو إلى الشاعرية والخيال وأن يكتشفوا قدراتهم الهائلة فى الخلق والإضافات ، وأن يكتشفوا فيها قوى الإبداع والابتكار ، وملكاته التى بها يستطيع أن يعبر باسيقا ليقول شعرا مثلما يقول الشاعر بالألفاظ والتراكيب ، وأن يكتب قصيدة مثلما يكتب القصاص قصته المكثفة باللغة والعواطف ... وهكذا يستطيع الطفل بالأدب أن يكون دميا أو شاعرا أو موسيقيا أو فنانا تشكيليا وفى الوقت نفسه يرهص واقعه عن مفكر يميل إلى الحرية والتسامح والإيمان والاستقرار والاطمئنان ، وعالم أصيل فى معارفه دقيق فى تناوله لها وموسوعى شمولى فى إدراكه لما حوله ،وبرغم ما فى هذا الأدب من كثافة الخصوصية والتفرد واختلافه فى كثير من الخصائص عن أدب الكبار فإنهما معا يقودان إلى عالم متخيل ،وإلى حياة حافلة بالقيم ، والجمال والخير نبنيها وننتجها أثناء قراءة الأدب أو مشاهدته أو تلقيه ... كما ينفرد هذا الأدب بأنه بحاجة إلى موسيقا تهز فى الطفل أعماقه السخية بالرضا والأمان وحب الحياة ، وإلى مسرح ينطق بقيم ومبادئ جيل الكبار لكن فى إطار الحس الإنسانى النبيل ، وإلى سينما تعرض فيها أفلام الأسوياء ، وتصور الحياة السوية ، وإلى إذاعة مرئية تحمل الفن الرفيع والكلمة المتوهجة بالعاطفة النبيلة ، وإلى إذاعة مسموعة ينساب منها الفن القولى والسمعى جميلا مؤثرا جاذبا هادئا ... . وعموما فإن هذا الأدب وقوة فى بناء الإنسان وترسيخ كل الانتماءات الوطنية والقومية والدينية ... ومن هذا المنطق نجد أدب الطفل من خلال جيلين : جيل الريادة ، وهو جيل شارك بقلمه وإبداعه أطفال اليوم ، وقادة الغد مشاركة يؤكدها الإخلاص والصدق ، ويضعف من تأثيرها وامتداد هذا التأثير ما فيها من افتعال وتغريب أو من تكلف وسفسطة وتقريرية وتسطيح أحيانا ، وبعد عن الثقافة الشاملة عن الأطفال والطفولة وهواية الكتابة لهم ، وجيل مبدعى أدب الطفل ، وهو الجيل الذى نرقب تفتحه ونموه وازدهاره ، ونترتب ظهوره ليأخذ مكانه بين الأدباء .

ثانيا – الطفل مترع بالخيال :

مراحل الطفولة ، حلم متواصل ممدود .. فالطفل يحلم ثم يعيش من أجل أن يحقق أحلام طفولته ، أو حلمه الممدود ، والموصول بطبيعة الإنسان ، ولذلك فكثير من الناس

بعامة ، والمفكرين والأدباء والعلماء والعباقرة بخاصة يفضلون – دائما – أن تقف ذكرياتهم عند حلم الطفولة الممدود والموصول ، وعلى كتّاب أدب الطفل ، أن يخترقوا هذا العالم ، ويتعمقوا إحساسات الأطفال ومشاعرهم وعواطفهم وحاجاتهم وميولهم ، وما يمكن أن تكون عليه شخصياتهم من توجهات ، وذلك للملاءمة بين ما يقدم ومن يتلقى ... ثم ما يحدث بعد ذلك من مؤثرات . والكاتب – حينئذ – محكوم بتلك الخصوصية التى يتحول بها الطفل إلى كنز من الرؤى والخيالات والأحلام وأن يكون لذلك محكوما بأصالته الأدبية وبمخزونه الثقافى الصادق الدلالة على علاقته بعالم الطفولة وعليه لذلك أن يكون هو أولا متمثلا عالم الأحلام الموصول بعالم الطفولة ... وأن يكون صادقا فى كل ما يصدر عنه من أفكار وإبداع . وساذجا .. حتى تتحقق العفوية والتلقائية التى تعرف لهذه العوالم التى لا تتحرك فى إطار بقدر ما تنطلق فى حرية انفعال برىء ، وعلى الكاتب ، وهو يبدع عالما من الأدب أن يعيش طفولته ،ويجرب فى كنوز تلك الطفولة العامرة بالأحلام ، وأن يتصور أن تلك النماذج أو الشخصيات أو الأفكار أو المواقف التى يتخيلها هى حقيقة ، لأنها تعيش بشكل أو بآخر داخل عوالم الطفولة ، والإمساك بها والتعبير عنها هو فى الحقيقة توضيح وتأكيد لكل ما يرغب فيه عالم الطفل ، وهو بمثابة تشييد لحياة يحلم بمعايشتها أطفالنا ، هو ذلك العمل الذى يحمل رسالة حلم الأطفال خلال مراحلهم ، ومن ثم يستطيع أن يتمكن من توصيل رسالته ولهذا كانت الكتابة للأطفال ،تحتاج إلى دقة ومعرفة وثقافة وبصيرة ، لأن المبدعين لا يبدعون فقط وإنما ينشئون بناء فخما ضخما ، ويشيدون قصورا ويبنون حياة محفورة بالنشاط والحركة والأحلام . والمشكلة الحقيقية التى تواجه – أحيانا – كتاب الأطفال ومبدعى أدبهم ، أن هؤلاء قلما يعيشون الحلم وهم يكتبون أو يبدعون ... . من ثم ينفصلون عن إبداعهم ولو للحظة...

والحقيقة هى أن الإبداع للأطفال معناه تجسيد حلمهم ، وجعل الأدب معادلا حقيقيا وفنيا وإنسانيا لهذا الحلم ، ولعالم الطفولة المترع بالأحلام الممدودة والموصولة فى كل اتجاه ، يكون الحلم ، وتجسيده ، والوصول بالطفل المترع بالأحلام الممدودة والموصولة فى كل اتجاه ، والوصول بالطفل إلى معايشته رغبة فى تحويل قيم الحلم وجمالياته ، ورحابة انطلاقاته إلى سلوك ، وفكر ناضج ، ووعى سليم وتخيل رشيد ، وتلك هى أهم عناصر ومقومات الشخصية السوية ، والطفل فى كل مراحل الإبداع ، أو التعلم قد تغيرت النظرة إليه... . حيث هو آنئذ ، المنطلق ، والقيمة العليا التى نقوم بإبداعها

وإنتاجها ، وأصبح الإبداع والتعليم والتربية مظهرا من مظاهر عالم الطفولة . . وأكدت الدراسات أننا نبدأ بالطفل عند التعلم ، وأننا بالتعليم نجسد حلم الطفولة . ونجعل من هذه الأحلام رؤانا ونحول تلك الأحلام إلى حقائق توظف فى خدمة التعليم ، أو التذوق ، أو إلى إبداع أدبى يتعادل مع هذا العالم ، الذى هو حلم الطفولة ... وعن طريق الأدب بأنواعه وأشكاله المختلفة ينبغى أن نجسد الحلم الطفولى وأن نجعل الأطفال يعيشون حلمهم وذلك بالكشف عن قدراتهم ، ومهاراتهم وميولهم والتى تتعاون جميع الأنشطة الأدبية فى الكشف عنها ... . ولكن ليبدأ كل أديب يبدع للأطفال بمعايشة الحلم الكبير الذى يعيشه الأطفال ، ويملأ مراحل نموهم الجسمانى والعقلى والوجدانى بالرغبات وتوهج العواطف ، ويغمرهم فى سديم من المشاعر والأحاسيس المبهمة بأطيافها الوردية ، وبنقائها وصفائها وعذوبتها ، ويأتى الأديب ليضع حدودا ويكشف عن حقائق ، ويمنح هذا الحلم الجسد الذى يتحرك بقوة الأمل والرغبة فى الحياة ، ومواصلة الأحلام ... وفى ظل هذا البوح عن الحلم الذى يعيشه الطفل أجدنى مضطرا ، لاختيار « أحمد شوقى » أمير الشعر ورائد الكتابة إلى الأطفال فى العصر الحديث ، وأفرد له هذه الصفحات لشعره ، لأنه الشاعر الذى عاش طفولته فى حلم كبير يستطيع أن يشخص هذا الحلم وأن يمنحنا الأفكار والقيم التى استنبتها هذا الحلم ... بل إنه كان يفخر بأن طفولته وذكرياته عن تلك الطفولة ، مازال يعيشها فى شعره إلى الأطفال ، ومن هنا كان اختيارى لشوقى أميرا لأدب الطفل فى العصر الحديث .

ونحن لهذا مطالبون بأن نقدم لأطفالنا خبرات وتجارب جديدة ، وذلك خلال ما نقدمه لهم من أعمال أدبية ، تصور طفولتنا ، وتحكى أيامنا ، وحياتنا وتصف موقفنا من كل ما يدور حولنا ونكتب لهم – أحيانًا – أدبًا يحكى قصتنا مع الحياة .. من ثم تتكون لدى الطفل حالات من النقد ، والحس والرفض ، والتمرد ، والرضا ، والقبول لتتأكد شخصيته ، ويجد نفسه فى صورة من صور الأدب التى يقدمها له الأدباء .

ثالثا – أدب الطفل فى عيون رواد الأدب الحديث :

إن أفضل ما نقدم لك من النصوص ، والمحتويات التى تخدم موضوع أدب الأطفال من ذلك العصر ، هى تلك التى نقدمها لك الآن مقتبسة من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى . وسوف تجد من بين ذلك الحكمة التى يناسب أن يرددها الطفل فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم ، والتى تمثل له فى ذلك الوقت أفضل ما يردد من صياغة لغوية

تأخذ بيده رويدا رويدا إلى ما يجمل به أن يقرأ ، كما تمثل تلك الحكمة مرتكزا لسلوكيات فى حياته ، وحينما يأخذ فى التعامل مع غيره ، ويدرك قيمة الأفعال والمواقف ، ويشرع فى الانفتاح بصورة أشمل على المجتمع من حوله . ولاشك فى أنه عندما يجد ، لديه ما يسعفه فى كل الأحوال ، وفى مرحلة مبكرة من حياته – يطمئن إلى ما يفعل ، ويأنس إلى أن العقل يقضى بصحة صنيعه ، وهكذا نكون قد نمينا الجانب المعرفى لدى طفلنا ، وسمونا بمداركه ، كما نسمو بلغته ، ومحصوله من الثروة اللفظية . ولاشك أننا فى كل ذلك نراعى ما يناسب عمر الطفل ، وما يمكنه تقبله ومن بين ما سنقدم أيضا من شعر شوقى ، بعضا من الحكايات التى قصها على ألسنة الحيوانات ، محببا إلى الأطفال تعرف بعض أسرار الحياة بعامة ،ويكون ذلك فى صورة ما يساق فى نهاية كل قصة من الحكم التى تأتى خلاصة لتجارب سابقة ، وإدراكا للأسباب التى أوقعت الحيوان المعين فى شراك غريمه ، وخصمه . والطفل كما سبق أن عرفنا – مولع بمعرفة الأسرار ، أو ما يشبه الأسرار ، التى تحكم حياة الحيوان ! وتفرز حقائق مبهرة . وتؤكد على حقائق مهمة ، وتستدعى نماذج أسطورية وتؤثر فى علاقات أنواعه المختلفة بعضها ببعض وقد سبق أن رأينا كيف يمكن للطفل على اختلاف درجات إدراكه المعرفى أن يفيد من بعض قصص « كليلة ودمنة » وغيرها مما يتناسب مع خياله ، ورغبته فى تمثيل عوالم غير هذا العالم الواقعى الذى يضمه مع غيره من بنى الإنسان كما سنجد أن هذا القصص يفيد الطفل فى إعطائه العلل سواء ما كان منها حقيقيا أو مصطنعا ، لما يرى من علاقات مختلفة بين الكائنات والأشياء ، فيغذى خياله بهذه التعلات المصطنعة ، ويدفعه فيما بعد لالتماس حقائق الأشياء ، ويجعله يدرك أن لكل شىء سببا يبحث عنه إذا خفى ، ويقتنصه إذا ظهر .

كما سنجد أيضا بين يدينا مجموعة من الأناشيد التى يحسن بالأطفال أن يرددوها ، لتغذى وجدانهم وعواطفهم ، وتغرس فى نفوسهم الفضائل والقيم التى لا غنى لهم عن التنشئة عليها ، كالإيمان بالله ، وحب الوطن والبر بالوالدين ، وحب الخير ، والبعد عن الشر ، والرفق بالحيوان ، إلى غير ذلك .

وكنا قد قررنا من قبل أن أمير الشعراء إنما قرض شعرا للأطفال والطفولة ، لما رآه من ضرورة طرق هذا الميدان ، كما طرقه وبرز فيه شعراء الغرب وأدباؤه من قبل ، ولما كان يراه من توقف نهضة بلاده التى كان يعمل من أجلها على النهضة بالطفولة ، والاهتمام بها ، وأيضا لما كان يحس به من حنان أبوى نحو أبنائه ، حينما كانوا صغارا .

وقد واكب هذا الحنان مواتاة قريحته وتدفق بيانه ؛ ففاض عطاؤه بالجيد من القول فى شتى مجالات الإبداع ، وخاصة فى أدب الكبار ، وفى هذا الميدان وقد قدمنا بعضا مما يشهد لذلك ليكون ذلك تمهيدا لاستعراض مركز قدر الإمكان لإسهماته البارعة فى هذا الميدان ، آملين أن نستعرض إسهامات غيره ممن تلوه مستقبلا ، إن شاء الله .

[أ] فى حب الأطفال والطفولة

١ – يقول الشاعر فى قصيدة ، عَنْوَنَ لها موثق ديوانه : « صاحب عهدى »[1]

رُزقتُ صاحبَ عهدى ... وتمّ لى النسلُ بَعدِى
هم يحسُدونى عليه ... ويغبِطونى بسعدى
ولا أرانى ونجلى ... سنلتقى عند مجدى
وسوف يعلم بيتى ... أنى أنا النسل وحدى
فيا علىّ لا تلمنى ... فما احتقارك قصدى
وأنت منّى كروحى ... وأنت مَنْ أنت عندى
فإن أساءك قولى ... كذّبْ أباك بوعد

وهو يخاطب هنا ابنه عليا ، ويبين لنا مكانته لديه تلك التى جعلته كروحه وجعلته ينفعل بهذا الشعر ، الذى يصور فيه محبته .

ويعبر عنها بمخاطبته وكأنه يعقل فى هذه السن المتقدمة فيقول له : « أنت من أنت عندى » . ثم يلتمس لنفسه العذر لديه فيما قد يبدر منه ، مما لا يقبله الصغار ، ويعدونه إساءة لهم ، فيدعوه لأن يصرف اعتناءه عن القول الذى يسوءه إلى هذه الوعود التى ستجد كل الإعزاز والوفاء .

٢ – كما جاءت إحدى قصائده مبينة لمنزلة البنت لدى أبيها ، يقول :[1]

يا شِبهَ سيّدة البتولْ ... وصورةَ الملَكِ الطّهُور
نسّى جمالُك فى الإناث ... جمالَ يوسفَ فى الذكور
زين المهود اليومَ أنتِ ... وفى غدٍ زين الخدور
إن الأهلةْ إن سرَتْ ... سارت على نهج البدور
يأبى جبينُ كالصباحْ ... إذا تهيّأ للسفور

(١) ديوان شوقى ، توثيق وتبويب وشرح الدكتور أحمد الحوفى ج 2 ص ٢٣٠ .

بقيت عليـــه من الدجى تلك الخيــوطُ من الشعور
وكــرائمٌ من لـــؤلـــؤٍ زينُ لَمرْجــانِ النّحـور
سبحــــان مـؤتيهــا تَمٌّ فى المرَاشِفِ والثّغـور
تسقى وتسقى مـــن لعـ ـاب النحل أُوطلّ الزهـور
وكأن نفح الطيب حــول نضيدهـا أنفــس حــور
وغريبة فــوق الخــدود بديعــةٍ من ورد جــور[1]
صفـــراء عند رواحهــا حمـراء فـى وقت البكـور
قبّلتهـــا وشممتُهـــا وسقيتهــا دمــعَ السرُورْ

ولا أظن أن تعقيبا ما سيضيف إلى ما أوضحته الأبيات من عاطفة الشاعر الحانية على ابنته الرفيق بها ، مع مباهاة وفرحة تغمر قلبه بما حباها الله به من خلقة بهية مشرقة ، تجعله يتأنق فى وصفها كما يزداد لأجل ما عليه ابنته من الجمال والحسن فرحا وسرورا ، راجيا أن تصير فى غدٍ من فضليات السيدات ، لتكون مصدر إعجاب دائم .

٣ – ولنستمع إلى هذين البيتين ، المصورين لمدى تعلق الأطفال بآبائهم ووقع ذلك على نفوس الآباء ، لنرى كيف عبر الشاعر بصدق ، عن هذا الموقف المؤثر الذى يتشبث فيه الطفل بأبيه راجيًا ألاّ يفارقه . يقول :[2]

بكيَا لأجـــلِ خروجــهِ فى زورْةٍ يا ليت شعرى كيف يومَ فراقه ؟
لــو كان يسمع يـــوم ذاك بكاهما ردت إليـــه الـروح من إشفـاقه

ولك أن تقف أمام هذا البيت الثانى لترى كيف أن الأب شديد الشفقه والمحبة ، وأنه ضعيف أمام المواقف التى تثير عاطفة الأبوة ، والحنو على أطفاله ، حتى إنه لو كان يدرك حزنهم وبكاءهم لمماته لارتد حيا من فرط تأثره بحالهم الذى صاروا فيه .

[ب] حكم وخلاصات تجارب

١ – يقول شوقى :[3]

إن الوفــاء سِيَاج أخلاق الفتى من حــازه حاز المحامد أجمعا

---

(١) جور مدينة فارسية مشهورة بالورد .
(٢) الديون ٢/ ٢٣٦ ، وهو يتحدث فى البيتين عن تعلق الأطفال بأبائهم .
(٣) الديوان ٢/ ٢١٤ .

كم مـن لبيب كان يرُجى نفعه لكن أبَىَ عدمُ الوفا أن يَنْفعا

٢ – ويقول :(١)

إن كنت ذا فضـل فكنه على ذكـــيّ أو كـريمْ
فالفضـــل ينســاه الغبىّ وليس يحفظـــه اللّئيمْ

٣ – يقول :(٢)

إن تكن ظافرا فكنه برفـق فشجـاعُ بغير رفق جبــان
إن عندى لكل شيء تمامًا وتمــامُ الشجاعة الإحسان

وكما يتضح ، فإن هذه الأبيات قد لا يقرؤها إلا الطفل فى المرحلة الابتدائية كى يستطيع الانتفاع بها ، وإن كان يحسُن بالمعلم أو المعسمة فيما قبل ذلك من مراحل التعليم أن يصوغ مثل هذه الأفكار نثرًا وأن يلم بها ليحيط الطفل معرفة بما يؤدى إلى التمسك بـه من خلق قويم يتمثل فى ضرورة أن يكون الطفل وفيا ليستفيد منه أهله والمحيطون به ، ويكون أهلا لنيل كل ما يجعله محبوبا حميد السيرة ، وكذلك ينبغى أن يكون نافعا وأن يكون نفعه عن وفاء للصديق وغيره، ولا متفضلا عليه، وأن يختار من ينال منفعته، ويكون أهلا لها ولئن كانت الحكمة الثانية صعبة التمثل لدى الأطفال دون الثامنة أو التاسعة من العمر، فإن الأولى والثالثة على العكس من ذلك ، إذ يجمل بالطفل متى كان له أصدقاء وأقران يذهبون معا إلى الحضانة، أو المدرسة أو يلعبون سويا أن يكون وفيا لهم، ورفيقا بهم.

ولئن لاحظنا أن تلك الأبيات غير مخصصة من أول وضعها للأطفال ، وبما يشهد بذلك تبويب الديوان ، لكنها كما رأيت يسهل على طفل المرحلة الأولى أن يتلقاها ويرددها ، فتسمو بواسطتها سلوكياته ، كما يَمْرُن بترداداها لسانه ، ويتثقف بفهم معانيها عقله ، وغنى عن القول أن قصص الشاعر على ألسنة الحيوانات تختم ببعض الحكم التى تستخلص من وقائعها ، وهو ما سوف نقف على بعض منه .

٤ – وهذان بيتان لشاعرنا ، ليحث بهما كل أب طفله على أن يجدّ ليجعل لـنفسه مكانة لدى الناس من حوله يقول شوقى :(٣)

يـاعلىْ إن أنت أوْفَيْتَ علـى سِنّ الفتّـــوهْ
دافعِ الناسَ وزاحـــمْ وخـــذ العيشَ بقّـوهْ

(١) السابق ص ٢٢١ .
(٢) السابق ص ٢٢٣ .
(٣) الديوان ٢/ ٢٤٣ . وهو هنا يخاطب ابنه .

[جـ] القصص على ألسنة الحيوانات عند شوقي

صاغ شوقي إحدى وخمسين حكاية تدور أحداثها حول الحيوان وتجرى فيه حوارات بين أفراده ، وكانت ثمة حكاية تتمم الاثنتين والخمسين حكاية . وبها يبتدىء حكاياته عن الحيوانات . وهى بعنوان « ضيافة قطة » أو « الرحمة بالحيوان » ،وهى مطولة نقف من خلالها على رقة قلب الشاعر ورأفته بالحيوان . فبعد أن اكتشف انزواءها بصغارها فى أحد جوانب حجرته ، وكان قد أوى إليها بعد تناوله السحور فى رمضان ، وجعلت القطة تبدى اغتياظها :[1]

فمـد يـدا لى والتقت نظرتهـا ونَظْـرتِى
عـد ومـاد لحظها مثلَ بصيص الجَمْرةِ
ورَدّدَتْ فحيحهـا كحَنَشٍ بقفـرة[2]
ولبست لى مـن وراء الستر جلـد النمرةِ

فما كان من الشاعر إلا أن أحسن إلى القطة وأدفأها بسترته ، وقرب لها جمرته وذلك بعد أن قدم لها الماء والطعام ، يقول :

لـم أجـزها بشـرّة مِن غضب وشِـرّةِ
ولا غبنت[3] ضعفها ولا نسيت قـدرتى
ولا رأيـتُ غـيرَ أمّ بـالبنـينَ بـرّةِ

وظل يرقب الموقف فى شفقة ، ورغبة فى تقديم ما هو أكثر من ذلك للقطة ، ثم إن أبناءها أخذوا يرضعون لبنها ، فكان ذلك أكثر مدعاة للشاعر أن يشفق على الجميع ، يقول الشاعر :

وقلت لا بـأس على الـ ـفلك يا جُـوَيرْتِى
تمخّضى عـن خمسةِ إن شئتِ أو عن عشْرةِ
أنـت وأولادك حتـىّ يكبروا فى خَفْـرتى[4]

(١) ديوان شوقى ٢/ ٢٦٠ – ٢٦٢ .
(٢) الفحيح : صوت الحية من فمها – الحنش حية كبيرة سوداء ليست من ذوات السموم .
(٣) أى جهلت .
(٤) أى رعايتى .

ونلمس من اسعراضنا لقصص الحيوان فى شعر شوقى :

١ – اصطباغ هذه القصص بروح الفكاهة ، لما تبديه من خلال تجليتها لطبائع الحيوان ، على وفق ما شاع من ربط كل جنس من أجناسه بسمات وأوصاف معينة ،فالحمار قد ربط بينه وبين الغباء على حين أن الثعلب عرف عنه المرواغة والدهاء والبومة قد أصبحت رمزا للشؤم ، والنملة قد عرف عنها الدأب فى العمل ، وعدم التكاسل .

نجد فى [ولى عهد الأسد وخطبة الحمار] – وفيها يتحدث عن الحيوان مهنئا الأسد بولى عهده – أن الحمار يقف خطيبا بعد القيل والثعلب ، لكنه لم يحسن القول ، كما أزعج الحاضرين بقبح صوته بل إن ولى العهد مات لسماعه ، فلا يكون إلا أن يسخر منه الثعلب ، ويدعو عليه ، يقول شوقى رامزا إلى نوع من العلاقات بين الحاكم ورعاياه :

وأومأ الحمارُ بالعقيرةِ ... يريد أن يشرف العشيرةِ
فقال : باسم خالق الشعيرِ ... وباعث العصا إلى الحمير
فأزعج الصوت ولىّ العهدِ ... فمات من رعدته فى المهدِ
فحمل القوم على الحمارِ ... بجملة الأنياب والأظفارِ
وانتدب الثعلب للتأبينِ ... فقال فى التعريض بالمسكينِ
لاجعل الله له قرارا ... عاش حمارا ، ومضى حمارا!

كما نجد فى [الأسد ووزيره الحمار] سخرية بالغة من أن يسند للحمار مهمة الوزارة والمسئولية أمام ملك الحيوانات ، لأن مثله لن يستطيع القيام بوظيفته ، ولنعرض عليك أبيات القصة كلها ، لتلمس بنفسك ما فيها من تشويق ، وفكاهة ، ومن وراء ذلك فكرة رائعة ترشد إلى تجنب سوء الاختيار لمن تسند إليهم عظائم الأمور ، وهذا هو المعنى العميق المراد من الحكاية ، يقول شاعرنا شوقى :

الليث ملك القفار ... وما تضم الصحارى
سعَتْ إليه الرعايا ... يوماً بكل انكسارِ
قالت : تعيش وتبقى ... يا دامى الأظفار
مات الوزيرُ فمن ذا ... يسوسُ زمرَ الضَّوَارِى ؟
قال : الحمارُ وزيرى ... قضى بهذا اختيارى !

فاستضحكت ، ثم قالت : ماذا رأى فى الحمار ؟ !

وخلّفته ، وطارت ... بمضْحك الأخبارِ

حتى إذا الشهرَ ولـــىَ كليلـــه أو نهـــارِ
لـــم يشعر الليثَ إلا ومَلكـــه فى دمـــارِ
القـــرد عند اليمـــين والكلبَ عنـد اليســار
والقـــطْ بين يـديـــه يلهـو بعظمـة فـــأر
فقال : مَنْ فى جدودى مثلى عديـم الـوقـــار؟
أين اقتـداري وبطشي وهيَبتي واعتبـــاري؟
فجـــاءه القـــرد سـرًا وقـال بعد اعتـذار :
يا عالى الجـــاه فينا كن عـالىَ الأنظـــار
رأى لرعيـــة فيكم من رأيكم فى الحمار!

وإذا كان ذلك يمثل حوارا بين الحيوانات ، يكون ما يغلب عليه هو التعريض بغباء الحمار ، فإن ثمة أبياتا ثلاثة ، تحت عنوات « الحمار فى السفينة » تتحدث عن الاشمئزاز من الحمار ، ويكون ذلك الاشمئزاز من ماء البحر ، إذ لا يستسيغ أن يغرق فيه ، أو أن يبتلعه .

يقول الشاعر[1] :

سقط الحمار من السفينة في الدجى فبكى الرفـــاق لفقـده وترحمـــوا
حتى إذا طلع النهـــار أتت بـه نحـــو السفينـة موجـــة تتقـدم !
قالت : خـذوه ، كمـا أتـــانى سالما لـــم أبتلعـه لأنـــه لا يهضـــم !

إنها صورة فكاهية صاحكة تستثير خيال الطفل ، إذ تجعله يتصور الصامت متكلمًا . وشبيه بغباء الحمار ، الذى يجعله غير مقبول ، ذلك الغباء الذى أودى بالعجل فى حكاية [بالأسد و لثعلبَ والعجل] . يقول شوقى :

نظر الليثُ إلىَ عجـــل سمـين كان بالقـــرب على غيطٍ أمـــين
فاشتهت من لحمـــه نفسُ الرئيس وكـذا الأنفس يصيبهـا النفيس
قـال للثعلـب : يـا ذا الاحتيـــال رأسك المحبوب أو ذاك الغزال ؟
فدعـا بالسعـد والعمـر الطـويل ومَضَى فى الحـال للأمر الجليل
وأتـى الغيط ، وقد جَـنَ الظـلام فرأىَ العِجَل ، فأهـــده السلام

(١) الديوان جـ ٢ ص ٣١٠ .

قـائلا يأيهـا المـولى الـوزير ... أنت أهـل العفـو والرى الغرير
حمـل الذئب على قتلـى الحَسدَ ... فوَشَى بى عند مـولانـا الأسدَ
فترامیت على الجـاه الرفيـع ... وهـو فينا لـم يزل نعِمَ الشفيعْ
فبكى المغـرور من حـال لخبيث ... ودنَا يسـأل عـن شرح الحديث
قـال هـل تجهـل ياحلـو الصفـات ... أن مـولانا أبا الأفيـال مـات
فرأى السلطـان فى الرأس الكبيرة ... موطن الحكمة والحذق الكثيرة
ورآكـم خـير مَـنْ يستـوْزَرْ ... ولأمـر الملك ركنْـا يدّخَـرَ

هكذا نرى الثعلب يلعب هذا الدور لا يقوم به إلا الخبثاء ، ومن أجل هذا جعله الأسد يحتال له ليوقع بالعجل الذى اشتهى لحمه الأسد رئيس حيوانات الغابة . ولقد أبدى الثعلب لدهائة طواعيته وتأهبه للقيام بالمهمة المنوطة به ، بل إنه قدم بين يدى ذلك الدعاء للأسد تزلفا وتملقا . ثم يذهب إلى الغيط تحت جنح الظلام ليطلى حيلته على العجل المسكين الذى يجد نفسه قد صار أهلا لأن يستشفع به لدى الأسد ، بعد أن سعى الذئب بينه وبين الثعلب ، بل إن المفاجأة لتكتمل ليسمع العجل إنه قد اختير ليكون وزيرًا للأسد يخلف أبا الأفيال » الذى مات ! وهكذا فى القصة تتصاعد خيوط تكوينها ، وتتعقد ، وإن كانت غير ذات أحداث كثيرة . فالذى يلفت النظر هو إحكام الثعلب الخبيث حيلته ، بل خيوط شباكه لاصطياد الثور وتقديمه وجبة شهية للأسد ، ليستنقذ بذلك رأسه من أن تكون طعام الأسد . إن الثعلب يظل يستدرج العجل ، ويزين له الذهاب إلى الأسد ليستوزره بما يوهم به المسكين أن الأمر جد حقيقة ، لاهزل فيه . انظر إلى هذه الصورة الفكاهية التى رسمها الشاعر لهذا الموقف . يقول شوقى على لسان الثعلب :

ولقد مثلوا لكـم بين الحـدود ... مثـل آبيس ومعبـود اليهـود
فأقـامـوا لمعاليكـم سريـرا ... عن يمين الملك السامى الخطيرة !
واستعد الطير والوحش لـذاك ... فى انتظـار السيد العالى هناك !
فـإذا قمتم بأعبـاء الأمـور ... وانتهى الأنس إليكـم والسرور
برئونـى عند سلطـان الزمـان ... واطلبوا لى العفـو منه والأمـان
وكفاكم أننى العـبد المطيع ... آخـدم المنعـم جهد المستطيع

وكان أن صدق العجل كلام الثعلب ، بعد أن خلبه بحسن كلامه ، وملّيّنه له من المثول لدى الأسد ليكون عونا له على إدارة شئون مملكة الحيوانات .

يقول شوقى :

فأخذ العجل قرنيه وقال ... أنت منذ اليوم جازى لا تنال !
فامض واكشف لى إلى الليث الطريق ... أنا لا يشقى لديه وفى رفيق !
فمضى الخلان توا للفلاة ... ذا إلى الموت وهذا للحياة
وهناك ابتلع الليث الوزير ... وحبا الثعلب منه باليسير
فأنثنى يضحك من طيش العجول ... وجرى فى حلبة الفخر يقول :
سلم الثعلب بالرأس الصغير ... فقده كل ذى رأس كبير

٢ – **بساطه العرض وسهولة إيصال المعنى** ، وذلك لوضوحه ، وعدم غموضه فى الغالب . ويلاحظ أن ما نخرج به من قراءة تلك الحكايات ذو قيمة كبيرة ، لاتفيد الصغار فقط .

بل إنها تنفع الكبار أيضًا . وربما كان ذلك مما دفع البعض إلى انتقاد شوقى فى هذا المجال ، أعنى مجال الكتابة للطفل ، وربما افتقدنا تلك البساطة والسهولة ، لما نراه من فلسفة وانتخاب للألفاظ غير الملائمة لسن الطفل ، أن ذلك يأتى رد فعل لعدم تخفف الشاعر مما تفرضه صياغة الشعر وقرضه للكبار[1] . وقد نلمس بعض الغموض ، كما فى قصة [الظبى والعقد والخنزير] [2] . التى تحكى قصة ظبى أعجبه حسن جيده حين نظر فى الماء فتمنى أن لو زان جيده عقدُ لؤلؤ . فما إن سمعه الماء حتى بصرّه بأن حسن جيد الظبى على النحور سر ما خرج من البحور . وكان أن ذهب الظبى يلتمس اللؤلؤ فى كل المياه التى يمر عليها ، وهو هائم فى الفلاة فى سبيل إحراز ذلك ، والتزين به ، والطمع فى الحصول على اللؤلؤ . ولما أن فشل فى تحقيق مراده وضاقت أمامه الدنيا ، وبعد أن أخفق ، سار نحو الماء ذات مرة ليشكو من العناء الذى لحقه . وبينما هو يتكلم مع الماء أقبل راعى دير يتبعه خنزير فى جيده قلادة ، فكان ذلك باعثا لإعلان الظبى فشل مسعاه فى حزن وألم :

ما آفة السعى سوى الضلال ... ما آفة العمر سوى الآمال
لولا قضاء الملك القدير ... لما سعى العقد إلى الخنزير

---

(١) انظر فى أدب الأطفال ، للدكتور على الحديدى ، ص ٢٤٦ / ٢٤٧ وهناك يضرب الدكتور الحديدى أمثلة لقصص شوقى التى غلب عليها الفلسفة والرمز .هامش

(٢) انظر ديوان شوقى جـ ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

فكان أن عقب الماء على مقال الظبى بأنه لم يع الموعظة التى سبق إزجاؤها لـه وأن السنين كفيلة أن توقظه ليعي ما فاته .

فالتفت المـــاء إلى الغـــزال وقال : حـال الشيـخ شر حـال
لا عجب ، إن السـنين موقظـة حفظت عمرا لو حفظت موعظة !

ومبعث الغموض فى قول شوقى :

ولـم ينلـه فَمَـــًا لسقيم فعاش دهرا فى الفلا يهيم
فافتتن الظبى بذا المقـالِ وزاده شـوقا على الـلآلى

هوعدم وضوح ما يعود عليه الضمير فى ي ينله ه لأول مرة . لكن اـصة لاشك فى جودة قيمتها ، وفائدتها . فهى ترشد إلى ضرورة التخلق بالقناعة والرضا ، والبصر بالأمور قبل فوات الأوان . ولقد نلمس فيها صعوبة بعض الألفاظ . لكن مجمل القول أن قصص شوقى على ألسنة الحيوان ذات لغة مأنوسة للطفل على العكس مـ سنراه فى أناشيده التى كتبها للأطفال ، أو بالأحرى التى هى فى الأصل للكبار ، ثم أريد لها أن تكون للصغار .

٣ – **اشتمال القصص على الحكم** التى تمثل خلاصات لها أريد فى الأصل أن ترشد إليها لينتفع بها متلقو تلك القصص . فالعصفور عندما يطلب إلى الغدير أن يتركه ليرشد إليه الإنسان ليعرف مكانه تحت الغاب فى الألفاظ حيث يمد ما حوله بالماء النمير – فإن الغدير لا يقبل ذلك ، بل يفضل أن يستتر ليظل محبوبًا ذا قيمة فى النفوس ، وإن خفى عن الأعين ، إنه يوصى العصفور بأن يكون رسول الحياة .

وأن يقول لمن يسأل عنه[1] .

إنْ خفَــى النـــافعُ ظهـــر يا سعدَ مَنْ صافى وصوفى واستَتر

والعقربة تنهى صراعها مع الأفعى النيلية بمقولة تدل على فخرها بانتصارها ، فتقول :

لولا الذى أبصر أهـل التجربة منى لَما سَمـوا الخبيث عقربة

وهنا يتضح ما لقصص الحيوان من دور فى صياغة أو تكوين « ثقافة الطفل » التى تمثل أرضية ثقافية فى قابل ايامه ، بل إنها تعيده فى تعاملاته مع الناس وتحليله ككلامهم ،

(١) لاحظ أن تصور فكرة هذه القصة يحتاج إلى جهد ذهنى لما يدخلها من الفلسفة .

ومحاولته فهم مجازاته . فلا شك أنه سيسمع أن فلانا حية أو عقربة ، أو هو ثعلب أو ذئب أو أسد إلى آخر ذلك . وهو بمعرفته صفات هذه الحيوانات يقدر على فهم المراد .

ولا شك أنه فى طفولته المتأخرة عندما يردد مثل هذا البيت وبخاصة عند إدراك لبعض ما يتميز به إنسان ما من خلال ذميمة ، لاشك أنا بذلك نكون قد وظفنا محفوظه الأدبى كما ينبغى ، ونكون بذلك قد أحرزنا فائدة كبرى .

والجواد يجيب الكلب « السلوقى »[1] فيما يجيبه ، عندما مت به هذا السلوقى وقد عزت عليه نفسه ، وبأن ضعفه ، وقد ساقه مصيدًا مقيدًا ، مقارنًا بين صبره على متابعة الصيد ، على حين أن الجواد يدركه التعب ، وذلك يأتى وقت الصيد :

السر فى الطير وفى الوحش لا ... فى معظم سيقانك ياذا السداد !
ما الرجل إلاّ حيثَ كان الهوى ... إن البطون قد دارتّ شداد
أمـا ترى الطير على ضعفها ... تطوى إلى الحب مئات البلاد ؟

ولعلنا ندرك صعوبة أن يفهم الطفل دون العاشرة البيتين الأول والثانى وربما كانت لفظتا [عظم] و [السداد] غريبتين إدراكه[2] . وكذلك يأتى الشطر الثانى ليكون بعيدا عن أن يفهم طفل هذه السن معناه ويربطه بمعنى الذى قبله .

ولكن هذا البيت الأخير يمثل أصدق حكمة يمكن أن نجعل الطفل يخرج بها بعد أن يتخيل هذه المحاورة بين هذين الحيوانين . ومن هنا كان العنوان اختاره الدكتور الحوفى ناشر ديوان شوقى لهذه الحكاية ، وهو « الباعث الذى يستحث لعمل النافع » إنه هو ما نعمل جاهدين على أن يكون أطفالنا قد تشربوه فى صغرهم ليستحثهم إلى العمل النافع عندما يشبون عن الطوق . ولا تفوتنا تلك الحكمة التى جاءت على لسان السلوقى ، وهو يفصح عن مقدرته . وهو — أيضا — يتهكم كذلك على الجواد . يقول شوقى :

قال : فما بالك يا صاحبى ... إذا دعا الصيدَ وجَدَ الطرادّ
تشكو فتَشْكيكَ[3] عصا سيدى ... إن العصا ما خلقت للجوادّ

---

(١) السلوقى : المنسوب إلى سلوق ، وهى قرية تنسب إليها الكلاب والدروع .

(٢) ولا شك أن لفظة [السلوقى] ينطبق عليها هذا الحكم ، وإن كان شرح الغريب يقرب المعنى ويزيل الغموض ، لتزول الغرابة رويدًا رويدًا .

(٣) تشكيك : أى تزيل شكواك والمراد أنه يضرب . ولا شك أن اللفظة صعبة الفهم على الطفل أيضًا .

كذلك نجد أم « فأر الغيط » ترثى ابنها فأر البيت » الذى أراد أن ينتقل إلى البيوت ويترك الغيطان ، وذلك ليظفر بما يستطيع مما فى البيوت من طعام مختلف الألوان ، فتقول تلك الأم بعد أن سارت متعجلة تبحث عن ابنها الذى لم يأت فى ميعاده ، فما كان إلا أن وجدته ملقى فى الطريق قد سحقت عظامه : « إن المعالى قتلت فتاها » .

وقد اختار الدكتور الحوفى لهذه الحكاية عنوان : « المجترى » على مالم يحسن » . ولا شك أن عبارة الأم الناتحة على ابنها فَر البيت ، تجسد ذلك العنوان تجسيدًا قويا ، وأحداث الحكاية أيضًا تمثل برهانًا صادقًا على صحته وصحة الحكمة أيضًا ذلك الفأر كان يأتى أمه كل مرة وقد نزل به من أهل البيت الذين يستلب طعامهم ، ويتسد حياتهم ما يترك أثرا بارزًا فى جسمه ، ثم كان ما ناله فى المرة الأخيرة . ونحن عندما نبرز مسألة « الأجتراء على غير ما يحسن الشخص » للطفل فى أواخر الحلقة الأولى من التعليم بهذه الصورة الفكاهية ، وهذه الصياغة الطريفة الجذابة التى صاغها شوقى ، فإنا نرسخ فى ذهنه ضرورة عدم المجازفة بالنفس والجهد فيما لاتؤمن عاقبته . وكذلك نجد الشاعر يختتم حكايته عن « الكلب والقطط والفأر » بهذا القول الحكيم :

فقلت فى المقام قولا شاعا من حفظ الأعداء يومًا ضاعا

وذلك تعقيبا على ماجرى للفأر بعد أن قدم المعروف للقط بقذفه الترجب فى عينى الكلب، وكان هذا الأخير يستجمع قواه ليثب على القط بعد أن ألجأه إلى أحد الجدر. وتأتى جملة :

إن للظالم صدرا يشتكى من غير علة

لتمثل لنا حكمة « سليمان » النبى ؛ وبصره بأسباب الأشياء ، وذلك فى حكاية « سليمان والهدهد » وكان الهدهد قد ذهب إليه ، ووقف ببابه ذليلا ، ثم اشتكى من ضيقه بالحياة وملاله منها بعد أن اشتد به لظمأ حتى إن مياه النيل وأمواه دجلة لا تروى مجتمعه ظمأه ، و تنقع غلة صدره ، فكان أن أجابه سليمان بتلك الجملة التى هى البيت الأخير من الأبيات التى روت لنا القصة ، ويهمنا أيضًا ذلك البيت السابق على بيننا وهو من كلام سليمان إلى الهدهد أيضًا ، وفيه يقول :

ما أرى الحبة إلا سُرِقت من بيت نملة

ولا شك أن إفهامنا الطفل لمؤدى البيتين وترتب معنى ثانيهما على سابقه يجعله يتصور عاقبة الظلم ، وجزاء السابق والمختلس . ويحسن بنا عندما نعرض عليه مثل القصة أن

نفهمه أن الحيوانات سوف يقتص للمظلوم منها من الظالم يوم القيامة ، وذلك قبل أن يحاسب الله لناس ثم يقول لها : كونى ترابا فتكون كذلك . وعندئذ يتمنى الكافر أن يكون ترابا . وذلك قول الله تعالى : ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾ [النبأ ، الآية الأخيرة] وقد جاء خبر القصاص للمظلوم من الحيوانات هذا فى حديث النبى ﷺ

– ومن ذلك أيضًا خاتمة حكاية [الكلب والحمامة] :

هذا هو المعروفُ يا أهل الفطَنْ الناس بالنـاسِ ، ومَنْ يَعِنْ يَعَنْ

وتقول هذه الحكاية أن الكلب قد أنقذ الحمامة من رصاص الصياد ، وذلك بنباحه إليها لينبهها للخطر المحدق بها ، وكان بذلك يرد جميلها الذى قدمته إليه من قبل حينما نقرت راسه لتنبهه إلى خطر الثعبان الذى كان متوجها نحوه ليلدغه بعد أن رآه مستغرقًا فى نومه . ونقدم لك هنا حكايتين من حكايات شوقى الشعرية على ألسنة الحيوانات .

(أ) سليمان والطاووس :

أو : حكمة الله فى توزيع الهبات والخطوط[1] .

سمعت بأن طـاووسـاً أتى يومـاً سليمانا
يُجَرِرُ دُونَ وفـد الطـير أذيـالا وأردانـا[2]
ويظهر ريشـه طـورا ويخفى الريش أحيـانا
فقـال : لـدى مسألة على أعتـاب مولانا :
ألست الروض بالأزهـار والأنـوار من أنا ؟
ألم أستـوف آى الطـرف أشكـالا وألـوانا ؟
ألـم أصبح ببابكـم لجمع الطير سلطانا ؟
فكيف يليـق أن أبقى وقومى الغـر أوثانا ؟
فحسن الصوت قد أمسى نصيبى منـه حرمانا
فما تيمت[3] أفئـدة ولا أسكـرت آذانـا

(١) ديوان شوقى ٢ ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
(٢) أردان : أكمام
(٣) تيمت : جذبت .

وهذى الطـــير أحقرها | يزيد الصَب أشجــانا[1]
وتهتز الملــــوك لــــه | إذا ما هــز عيدانــــا
فقــال لــــه سليمــان | لقد كــان الـذى كانــا
تعالت حكمة البـــارى | وجـــل صنيعه شانًا[2]
لقد صيرت يا مغـــرور | نعمى الله كفرانــــا
وملك الطـــير لم تحفــل | بــه كبرا وطغيـــانا
فلو أصبحت ذا صـوت | لمـا كلمت إنســـانا

هكذا يلفت سليمان الحكيم نظر هذا الطاووس المغرور إلى تجاوزه احد الفاصل بين الطموح والطمع الذى لا يكتفى صاحبه مهما كثرت النعم المسبّغة عيه ، وتختم القصة بهذا القول العظيم على لسان سليمان ، عليه السلام ، فهو بذلك يقرعه على كبره ، وعلى طمعه فيما لن يحصله أبدا « لقد كان ما كان » ومن أجل هذا عليه أن يرضى بما هو عليه من هيئة جميلة وحسن منظر ، افتخر هو بهما .

(ب) الدب فى السفينة ، أو : تَسَرُّع وحمق مُهْلِك

الدّب معـــروف بسـوء الظـنّ | فاسمع حديثـــه العجـيب عنى
لماستطال المكثَ فى السفينــة[3] | مــلّ دوام العيشـــة الضنينـــة
وقال إن المـــوت فى انتظــارى | والمــــاء لا شك بـه قـرارى
ثم رأى موجهــا على بعــــدٍ علا | فظـن أن بالفضـــــاء جبــلا
فقـــــال : لابـد مـن النزول | وصلت أو لـم أحظ بالوصــــل
قد قـــال من أدبّــه اختيـــاره | السعـى للمـــوت ولا انتظـــاره
فأسلـم النفس إلى الأمــــواج | وهى مع الريــــاح فى هيـــج
فتشرب التعيس منهــا فانفتـــخ | ثم رسا على القـــرار ورسخ[4]
وبعـد سـاعتين غيض المــــاء | وأقلعت بأمـــره السمـــاء[5]

(١) الصبا المحب ، الأشجان والأحزان
(٢) أى شأنا .
(٣) يقصد سفينة نوح عليه السلام ، وقد ساق شوقى غير قصة عن بعض أحوال الحيوانات فى هذه السفينة وربما كان متأثرًا فى ذلك ببعض مما يمكن أن يكون قد جاء من أساطير الأمم السابقة .
(٤) رسخ : ثبت .
(٥) غيض الماء : جف . أقلعت : كفت .

وكان فى صاحبنــــا بعض الرمــق   إذ جاءه الموت بطيئا فى الغرق[1]
فلمح المركب فـوق الجـــودِى   والركب فـى خير وفى سعـودِ[2]
قــــال : يا لجـــدّى التعيس   أســـأتُ ظنـى بالنبـى الـــرئيس
مـــ كان ضرّنـى لــــو امتلت   ومثلمـــا قـد فعلــــوا فعلت

وهنا نجد هذا الدب الأحمق يلقي نتيجة تسرعه ، وعدم اكتراثه بعاقبة ذلك وما استتبعه هذا التسرع من تندم وقت ألاّ يفيد الندم .

(جـ) الأناشيد والأغنيات :

نجد أن « شوقى » جعل هذه الأناشيد والأغنيات تدور موضوعاتها حول الأسرة والمدرسة والكشافة والحيوان والوطن ، فحدثنا عن افتخار الطفل بـ « الجدة » وحبه لها لما تسديه إليه من الخير ، ولما تشمله من العطف ، وعن حبه العارم « للأم » التى لولا التقى لقال إنها هى التى خلقت الولد ، وفى نشيد « المدرسة » نجده يجعل منها شخصا يتحدث عن ضرورة الالتحاق بها ، وعدم التخوف منها ، شأن كثير من الأطفال ، وذلك للحاجة الماسة إلى العلم لأنه السبيل إلى المجد ، يقول شوقى[3] :

أنا المدرســـة اجعلنى   كأم لا تَمــــــل عنّى
ولا تفزع كمأخــــوذٍ   من البيت إلى السجــن
كأنى وجـــه صيـــاد   وأنتِ الطير فـى الغصن
ولابـد لك اليـــــوم   وإلا فَغَــــــدا ، منى
أو استغن عـن العقـــل   إذن عنًــــى تستغنـى
أنا المصبـــــاحُ للفكرِ   أنا المفتــــاحُ للذّهْـــنِ
أنا البـــاب إلى المجد   تعال ادخل ، على اليُمْنِ
غدا ترفعُ فى حَـوْشى   ولا تشبعُ مـن صحْنِى
وألقـــاكَ بإخــــوانِ   يُدَانُــونك فـى الســنّ
تُناديهـمْ بيَـا فكـرى   ويـا شـوقِى ويا حُسْنِى
وآبــــاءِ أحـبوكَ   ومـا أنتَ لهـم بابْــنِ

---

(١) الرمق : بقية الروح .
(٢) الجودى : الجبل الذى رست عليه سفينة نوح .
(٣) ديوانه ٢/ ٢٥٤ .

و « نشيد الكشافة » يبين لنا أن هؤلاء الصبية الذين يتمرسون بالارتحال ، والأسفار للكشف وتعرف أرجاء البلاد ، فى تحمل للمشاق وصبر للنفوس عليها ، هم أبناء مصر الذين تعلق عليهم الأمل فى مستقبل عظيم .

أجل ... . فهم ، يهبطون إلى السهول فى سعادة ، ويقطعون الصخور وهم أقوياء ذوو جلد ، وذلك من أجل بناء الأبدان . إنهم يداوون الجرحى ويُطَبِّبون لهم ، ثم يعطفون على من أصابه الزمن بتقلباته ، وإليك هذا النشيد[1] ذا الموسيقى المتوثبة المرحة ، والمعانى والكلمات العذبة المناسبة لأن يرددها طفل فى أخريات الحلقة الأولى من التعليم .

نحن الكشافة فى الوادى ... جبريل[2] الروح لنا حادى
يا رب بعيسى والهادى ... وبموسى خذ بيد الوطن
كشّافة مصرَ وصبيتُها ... وبناة الدار ومنيتها
وجمال الأرض وحَلْيَتُها ... وطلائع أفراح المدن
نبتدرُ الخير ونستبقُ ... ما يرضى الخالق والخلْقُ
بالنفس وخالَقَها نَثِقُ ... ونَزِيدُ وثُوقا فى المحنِ
فى السهل نرف رياحينا ... ونحوبُ الصخرَ شياطينا
نبنىْ الأبدان وتبنينا ... والهمّة فى الجسم المِرِن
ونخلّى الخلق وما اعتقدوا ... ولوجه الخالق نجتهد[3]
نأسو الجرحى أنّى وجدوا ... ونداوى من جرح الزمن
فى الصدق نشأنا والكرم ... والعفة عن مسّ الحرَم
ورعاية طفل أو هرم ... والذّود عن الغيد الحصن[4]
ونُوافى الصارخ فى اللَّجَج ... والنار السّاطِعَةِ الوهَج[5]
لا نسأله ثمن المهج ... وكفى بالواجب من ثمن[6]

---

(١) انظره فى ديوان شوقى ٢/ ٢٤٧ .
(٢) الروح : لقب لجبريل ، وعلى ذلك فسرت اللفظة فى سورة القدر من القرآن الكريم .
(٣) نخلى : نترك .
(٤) والذود أى : ندافع عن النساء الجميلات العفيفات .
(٥) اللجج : جمع اللجة ، الوهج بمعنى النار المتقدة .
(٦) المهج ، جمع المهجة ، وهى الدم ، أو القلب .

يـا رب فكثرنـا عـــــددا وابذل لأبـوتنا المــــددا
هيئ ضم ولنــــا رشـــدا يا رب وخذ بيد الـوطـــن

ويحدثنا على لسان أحد الأطفال عن « الهرة والنظافة » وعن « الرفق بالحيوان » ، و « ولد الغراب » ، وفى هذا الأخير يحدثنا عن إهمال أحد الغربان فى تعهد ولده بالعناية والتدريب قبل حثه على الطيران ، وما أدى إليه ذلك من سقوط هذا الولد لما طار دونما إعداد ودونما ترفق ، فكان أن حزنت عليه أمه وصرخت ناعقة بعد أن اجتمعت إليه الغربان فى تحرك سريع ، هنا يختم الشاعر موجها كلامه إلى هذه الأم المستهترة(١) :

أطلقته ولـو امتحنت خاصـــة لـم تطلقى
وكما ترفق والــــداك عليك لـم تترفقى !

ونجده يقدم لنا أناشيد « النيل » و « الوطن » و « **نشيد مصر** » أما الأول فيمثل تغنيا بالنيل ومآثره ، يصدح به أبناء النيل الصغار فى حب دافق له وانبهار بما يجلب للأوطان من خيرات .

فالنيل يتدفق بالحب والمودة ، والأصالة والخير والوداعة وهو رمز للارتباط التاريخى ، والانتماء الوطنى ، وشريان الحياة الناهض بأعباء التقدم ، كما أنه رمز للعطاء المتجدد وصورة حافلة بالأسرار والأخيلة ، والزخم العاطفى الذى يكون فى خيال الطفل مددا ينمى كل التوجهات الإيجابية ، ويثرى فيه كل المعانى الجميلة ...

وأما الثانى فإنه يحدثنا فيه عن الوطن ومحبته المستقرة فى النفوس ، ونلمح فيها ظهور عنصر « الحيوان » بارزا من أول وهلة لأنه يحدثنا عن عصفورتين كانتا تقفان على غصن بعض أشجار بلاد الحجاز ، وبينما هما كذلك إذ مر بهما ريح سرى من « اليمن » فزين لهما الذهاب إلى صنعاء حيث التاريخ المجيد والأشجار والحب الذى هو كالسكر والماء الذى هو كالشهد والزهر واللبن ، بل إنه عرض عليهما أن يركباه – أى الريح – ليصلوا إليها فى ساعة من الزمن لكن إحداهما تجيبه قائلة(٢) :

يا ريح أنت ابـن السبيل مـا عرفت مـ السكن
هب جنة الخلد اليمـن لا شيء يعدل الوطـن

(١) الديوان ٢/ ٢٥٢ .
(٢) ديوان شوقى ٢/٢٥٣ .

أما « **نشيد مصر** » فهو فى مستوى الطفل – ويصدق فيه أنه مما نظم لمناسبات معينة ثم أريد أن يكون للأطفال[1] .

ونختم ما نقدم لك من شعر شوقى فى هذا المجال بأنشودة « النيل » لعذوبتها وسهولة ألفاظها بعامة ورقة وزنها . يقول شوقى[2] :

النيل العذب هو الكوثر ... والجنة شاطئه الأخضر
ريان الصفحة والمنظر ... ما أبهى الخلد وما أنضر
البحر الفياض القدس ... الساقى الناس وما غرسوا
وهو المنوال[3] لما لبسوا ... والمنعم بالقطن الأنور
جعل الإحسان له شرعة ... لم يخل الوادى من مرعى
فترى زرعا يتلو[4] زرعا ... وهنا يجنى وهنا يبذر
جار ، ويُرى ليس بجارٍ ... لاناةٍ[5] فيه ووقار
ينصب كتل منهار ... يتضح فتحسبه يزأر[6]
حبشىّ اللون كجيرته ... من منبعه وبحيرته
صَبَغَ الشطين بسمرته ... لونا كالمسك وكالعنبر

استطاع ، أدب الطفل فى رؤية أميره الشاعر أحمد شوقى أن يعبر عن أحد أهم الطفولة ، وأن يقدم غذاء صحيا لشخصية الطفل التى تنمو خلال مراحلها بخصوصيتها النفسية والإدراكية والجسمانية وأن يحقق لعالم الطفولة ما نادى به المتخصصون فى ميدان دراستها فقدم « أدبا » يحتوى على لغة قادرة على حمل الرسالة الإنسانية نحو الأطفال ، احتوى على ألوان من القصص المتنوع بين الرمزية والتاريخية والاجتماعية ، وحفل بالمادة الفنية والجمالية والتعبيرية المناسبة ... وقدم المعلومات والخبرات التى تكسب الطفل بعدا إيجابيًا فى إطار تكوين شخصيته وجمع بين الفن الموجه والأدب الموظف والأدب الجميل الذى يخاطب الشاعر والأحاسيس ويكشف عن الميول والاستعدادات ... . فكان نفسا فى إصر الشخصية

---

(١) فى أدب الأطفال للدكتور على الحديدى ص ٢٥٥ .
(٢) ديوانه ٢/ ٢٤٨ .
(٣) المنوال : الكثير العطاء .
(٤) يتلو : يتبع
(٥) الأناة : التمهل والانتظار .
(٦) يزأر : أى يصيح صياح الأسد ، والمراد أن النيل يفيض ويعلو موجه .

المبدعة ... وبين يدى عرضنا لبعض أشعار المحدثين المتحدثة عن الطفل والمتوجه بها إليه والمراد أن ينشدها ويرددها ليمرن بها لسانه ، ويأنس بها إلى لغته القومية ويكتشف عن طريقها محاسن تلك اللغة وبعض فنون التعبير بها – بين يدى تقديمنا لهذه الأشعار لابد من وقفة أمام أهمية الشعر للطفل فى تاريخ الشعر العربى المكتوب للأطفال والنهضة به منذ نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن ، إلى أن بلغ ذروته ، وكان من أبرز من كتبوا هذا الشعر شوقى والهراوى من مصر ثم كانت كتابات لشعراء آخرين من غير مصر ، انتهت بأن كتب لهم شعر فى القوالب التى يكتب بها الشعر الحديث أو الحر .

(د) أهمية الشعر للطفل :

إن الشعر لغة ، أو كلمات مكثفة المعانى تصاغ فى قالب موسيقى ولابد من أن يقدم للطفل ما يناسبه من هذا الفن القولى الرائع الذى هو فن العربية الأول ، وبه صنع العرب ديوانًا يسجل تاريخهم ومآثرهم وانطباعاتهم عن بيئتهم ومجتماعاتهم وتصوير شعرائهم لمختلف الأحاسيس والانفعالات . والطفل منذ أن يفطن إلى ما حوله يحب الموسيقى ويأنس لرتابة الأصوات وتكررها على نسق واحد مميز . ولا عجب فى ذلك فالإنسان قد غرس فى فطرته حب الإيقاعات الموزونة ، وقد كانت له فى بدائيته أناشيده وترانيمه . والشعر يجلب للطفل المتعة ويحلق به فى الخيال ، ويقدم له من الصور السمعية والبصرية ما يتواكب مع اهتماماته ، وما يشغل عليه خاطره ، وشاعر الأطفال الجيد هو من يهتم ببعض ما يهتم به الطفل من مناظر الطبيعة المختلفة بخاصة ، فيكتب له عنها ؛ ذلك لأنه يشغل بها أكثر مما يشغل بها الكبار . وكتابة هذا الشعر الوصفى للطفل لابد أن تأتى فى تدرج للعمل على إقداره على اكتشاف العالم المحيط به . ويسبق ذلك الكتابة له عن الصور والخيالات القائمة على اللمس والسمع والشم والمذاق ، إن الشعر يجعل الطفل قادرا على اكتشاف جمال المنظر وتربية الذوق وبناء الفكر السليم كما أنه يستثير خيال الطفل ، ويُكوّن مشاعره ويجلب السرور إلى نفسه . واختيار الشعر المناسب للطفل يتوقف أكثر ما يتوقف على مقدرة المدرس والمربى على أن يميز بين الاحتياجات المتفاوتة له . فالطفل يهتم بفكرة القصيدة أكثر مما يهتم بشىء آخر فيها . لكن كثرة الأنماط والأشكال الشعرية التى تعرض عليه لابد أنها ستزيد من ثقافته ، ودربته اللغوية وموسقية أذنه .

وللمدرس على ذلك أن يختار ما يناسب كل حالة وأوان من شعر غنائى أو فكاهى أو قصصى . وله أيضا ألا يتوقف كثيرا عند قضية مَنْ مِنَ الشعراء يأخذ عنهم ؟ هل

يأخذ من هؤلاء الذين كتبوا قاصدين بكتابتهم وإبداعهم الطفل من أول الأمر ، أم يأخذ من هؤلاء الذين كتبوا للكبار ، لكن عندهم ما يصلح تقديمه للطفل ؟ الحق أنه يأخذ من هؤلاء وهؤلاء ، ولقد رأيت كيف نوهنا بأن بعض شعر شوقى فى باب [الحكمة] كان صالحا لأن يردده الطفل فى مرحلة من مراحل طفولته ، بعد أن يقدم له معناه فى صورة مبسطة أول الأمر ، إن أطفال العالم فيما قبل القرن التاسع عشر لم تكن لهم كتب أو مؤلفات خاصة بهم لكنهم كانوا يقرءون فى بعض ما كان يكتب للكبار ، فيفهمون منها ما يستطيعون فهمه ، ويتطلعون إلى أن يصبحوا قادرين على فهم ما صعب عليهم فهمه ، بما يأخذون به أنفسهم من دُربة واستفسار ملح عما لا يفهمونه ، وإن الأديب الذى يكتب للكبير يحتاج إلى صبر ومماسة تتكون لديه على مر الزمن ، لينقل إلى الطفل ما يكتبه للكبير فى لغة سهلة وتصوير جذاب قريب من عالم الطفولة . إنه حين يكتب للأطفال « لا يكتب بطريقة مختلفة أو باهتمام أقل لمجرد أنه يكتب للصغار ، أو لمجرد التفكير فى أنهم لن يكونوا على إدراك كامل بالأسلوب أو بأسرار اللغة ، ذلك لأن كاتب » أدب الأطفال « كطبيب الأطفال » . وكما أن طبيب الأطفال لابد له من دراسة أصول الطب العام ، ثم يطبق بعد ذلك معلوماته على المرضى من الأطفال ، فكذلك من يكتب للأطفال »[1] . إذن لا ينفصل أدب الأطفال عن أدب الكبار ، وبالتالى ليس ثمة داع للتفرقة بين شاعر وآخر من حيث صلاحية أى منهما للأخذ عنه للطفل ، اللهم إلا من حيث المناسبة بين ما يكتب وطبيعة ثقافة الطفل ومقدرته على فهم ما يعرض عليه وتفاعله معه .

ولابد أن نلاحظ حينما نختار للطفل فى مرحلة ما شعرا – أن يكون مناسبا من حيث الموضوع والحالة النفسية . إنه لابد أن يكون وثيق الصلة بالبيئة ، والعصر فما كان يصلح للجيل السابق والذى قبله لا يصلح لأن يقدم للأطفال الذين يعيشون فى هذا العصر بما يكتظ به من ظواهر النشاط العلمى والسمات الخاصة للبطولة التى تختلف عما كان يعهده الآباء والأجداد . إن الطفل أول الأمر يكون مهتما بأن يكون محور اهتمام من حوله فلا بأس من أن يقدم له شعر يدور حول ذلك . ثم هو من بعد يشغف بما يتناول الأشخاص خارج بيته وأسرته ، وما يتناول الحياة اليومية . كل ذلك ينبغى أن يقدم إلى الطفل فى صورة مباشرة دون فلسفة أو مجازات لا يفهمها الطفل ، أو مفردات صعبة

(١) أدب الأطفال للدكتور على الحديدى ص ٦٥ . ٦٦ .

غير مألوفة . فهو تهمه الأفكار الواضحة والمتتالية . وليس ضروريا أن يفهم كل شيء فيما يقرأ من أول الأمر ، أو أن تكتمل لديه المتعة بالشعر فى أول قراءة له ، فقد يستمتع بالفكرة جزئيا ثم يستكمل المتعة بالوزن والموسيقى[1] . إن الشعر بالنسبة للطفل العربى ضرورى جدا وبخاصة أن الأمة التى ينتمى إليها قد جاء تراثها الأول فى كثرته الكاثرة شعرا ، لكن الذى يحدث أنه لا يدرس الشعر فى مراحل دراسته الأولى ليتذوقه وليمرن على الانفعال به واستحضاره دائما فى حب له وتلذذ به ، بل إن ما يقدم له يكون محصورا فى شعر سقيم متكلف يغلب عليه أن يكون حول الطفل والطفولة لا صالحا لأن يمثل اهتمامات الطفل والنفوذ داخل عالمه ، يشغل بعد أن يقدم له ذلك الشعر غير المناسب بشرحه وتناول مفرداته وتفكيكه ، وهو ما لا يتناسب مع متطلبات الطفل ، كما علمنا ، كما يقدم له هذا الشعر فى إلقاء خطابى ثم يطالب بحفظه وتسميعه دونما انفعال به أو تأثر .

وقد يكون هذا الشعر غير مناسب للطفل بيئيا وعقليا أو مطولا مما يبعث على الملال والسأم .. ومثل ذلك أن يكون متناولا معانى مجردة مما يصعب على الطفل فهمه فى بعض المراحل إن الذى يتطلبه النهوض بالطفل فى هذا المجال « أن نجعل الشعر جزءا طبيعيا من البرنامج اليومى للحياة والتعليم ، وأن ندفع التلاميذ إلى محبة الشعر وتقديره فيخصص المدرسون له وقتا يقرءونه مع التلاميذ ، لا كجزء من المقرر ، بل كمن يستمتعون به ، لما يحويه من جمال فى المعنى والأسلوب والصور والخيال »[2] .

وذلك لأن المتعة تأتى من كونه بناء متوازنا ، وصورا منسجمة ، وأخيلة متجاورة . كما أن الشعر يعمل على تجميع العواطف ، ويكرس كل المشاعر فى اتجاه الأجمل والأفضل كما يصطنع تلك اللمسات الدافئة التى تشيع بين الأطفال وهم يستمعون إليه ، وهو بذلك قادر على تشكيل الوجدان العاطفى للأطفال ، ويستطيع الشعر مع الأطفال أن يحولهم ويتحول معهم وبهم إلى طاقة . وهم إلى طاقات تتفجر بالحماس ، من أجل العمل والإنتاج ومحبة الوطن ، ويوجد التواصل الاجتماعى فى أوقات المحن والشدائد . وهو حينئذ قادر على أن يعبر عن مبدعه ومتلقيه .

والشعر فوق هذا ، مادة خصبة لتكوين لغة خطاب طفولى عن طريق الأناشيد ودور الشعر فى إطار الأناشيد ، اختيار للتربية ودورها الفعال .. والقيمة الحقيقية فى

---

(١) وانظر : فى أدب الأطفال للدكتور على الحديدى ص ٢٠٧ .

(٢) السابق ص ٢١٠ .

الأناشيد تنبعث من الطموح الذى ينبغى أن يكون الرسالة الحقيقية من شعر الأطفال فالشعر والأناشيد يضربان فى الجذور حيث الأهمية العظيمة لدور كل منهما فى علاقته بالأطفال ... لكن فى إطار من تنمية قوى الإبداع والانتماء ، من ثم كانت أهمية دراسة الشعر والأناشيد .

(هـ) الشعر والأناشيد :

١ – الشعر هو فن العرب الأول ومعمق الخصائص الصوتية فى لغتهم وقيمها وهو وسيلتهم ليقظة ذهنهم ، وتنظيم عقولهم ، وأداتهم لإرهاف وجدانهم ، وتدربهم على التأمل ، ورقة المشاعر ، واغتناء العواطف ...

فإذا كان لكل حضارة فنها المميز من نحت أو مسرح أو فنون تشكيلية فإن الفن القومى الأول للحضارة العربية كان الشعر ، وسيظل هذا الفن ناهضا بأعباء إنسانية ووجدانية ، وتربوية فالشعر يحاول بالكلمة المصفاه المنتقاه المستمدة مع الإيقاع الصوتى ، أن يشيد للكبار بعامة ، وللصغار بخاصة عالما جميلا . ومهمة الشعراء فى أن يكون الجمال والرضا مأوى للناس ولكل الأطفال ... . ولكن الاختيار الذكى للشعر الذى نقدمه لأطفالنا ، هو الوسيلة الوحيدة لتقديم صورة جميلة للشعر أمام الأطفال ... . حيث القطع القصيرة ، والقصائد المقطوعة ، والأوزان الخفيفة ، والإيقاع الواضح بتموجاته هو غاية ما ينبغى أن يكون مادة شعرية غنية مقدمة للطفل . والأناشيد وهى تلك القطع التى تتسم بخصوصيات وسمات شعرية ، وبتحرى فى تأليفها السهولة ، وتوقع توقيعا خاصا ، وتصلح للإلقاء الجمعى وتستهدف غرضا وطنيا أو قوميا أو دينيا . أو تحاول الاقتراب من المثل الأعلى ، أو تتمثل النموذج الأفضل – هذه الأناشيد بتلك الخصوصيات ، وهى ما ينبغى أن يقدم – أيضا – للطفل ... . فى لون أدبى شاهق محبب . وتلحينها يغرى التلاميذ بها ، ويحببها لهم ، ويزيد من ارتباطهم الفنى والإبداعى بها ، ويعمل على تأكيد صلتهم بها ، وإقبالهم عليها ، حتى يمكن استغلالها تربويا إلى أبعد الحدود ، كما أنها تقوى روح الجماعة ، وتنمى الانتماء ، لأن التلميذ يشارك زملاءه فى إلقاء النشيد ويسهم فى ذلك بالصوت الجماعى القوى ... ومما يزيد من شغف التلاميذ بهذه المقطوعات الشعرية ، أنهم يؤدونها فى أجمل أوقاتهم ، وأحفل هذه الأوقات بالعمل الجماعى ، مثل الرحلات ، والمشاركات العامة . وإذا كان للأناشيد هذا التأثير ، فإن للشعر ومقطوعاته وقصائده القصيرة ، وما يتضمن من معنى إنسانى أو اجتماعى ، أو أخلاقى ، تأثيرًا أكبر

على المدى البعيد فضلا عن تأثيراته الوجدانية والإدراكية الآنية ، وللشعر والأناشيد تأثيرات مباشرة على النواحى التالية :

١ – فهما وسيلتان أصليتان فى تقوية الوجدان ، وإخراج التلاميذ من عالمهم الاغترابى الانعزالى ، ومن عداد من يغلب عليهم الخجل والتردد ، ويتهيبون النطق منفردين .

٢ – كما أنهما يبعثان السرور عند التلاميذ ، وهما يجددان النشاط ، ويبددان السأم لما فيهما من إيقاع وتلحين وعذوبة .

٣ – ودورهما عظيم فى إكساب التلاميذ الصفات النبيلة ، ويحققان لهم خيالا تتراءى منه أفضل النماذج ، وأجمل القيم ، وأنبل البطولات ... . وهما بهذا مصدران ثريان بالتأثير وإشباع الحاجات ، والتأكيد على القيم الموروثة ذات التوجهات الإيجابية .

٤ – والشعر والأناشيد ، يدفعان الأطفال ، وتلاميذ المدارس إلى تجويد النطق ، وتكوين عادات صوتية سليمة ، وأداء لغوى صحيح ، وإخراج الحروف من مخارجها السليمة الصحيحة .

٥ – كما أن الشعر والأناشيد من الوسائل الناجعة فى تهذيب اللغة ، وتزويد الأطفال باللغة السليمة ، وبهما يسمو الأسلوب وتنمو القدرات اللسانية نحو تحقيق الصور اللغوية الإيقاعية العربية الجميلة ذات الأداء الاجتماعى المشترك .

٦ – وللشعر والأناشيد دور فى تحقيق التقارب بين العامية والفصحى ، وذلك بصعود العامى إلى مستوى الفصيح فتقوى الصلات القومية ، ويقضى على الثنائية اللغوية ... ولن تتحقق هذه الأهداف ، إلا عندما يعمل المربون ، والمبدعون فى مجال « أدب الطفل » على اختيار النماذج الشعرية اللغوية أو الموسيقة اختيارًا يقوم على أسس تراعى الأطفال وعالمهم وذلك على النحو التالى :

١ – أن تشبع تلك الأعمال الجمالية القائمة على اللغة والموسيقا أساسا حاجات الأطفال ؛ وتتجاوب مع خصوصياتهم ، ومراحل نموهم وأن تتصل تلك النماذج بمناسبات تهم الأطفال ، وتسعدهم المشاركة فيه ، وأن ترضى حاجة الطفل ، حتى تدفعه لأن يرددها بينه وبين نفسه ، أو فى أماكنه الخاصة ، أو أن ينشدها الأطفال فى رحلاتهم ، وحفلاتهم ، وفى المناسبات العامة .

٢ – أن تعمل هذه الفنون وأدواتها : على تنمية الإحساس ، وحسن تلقى القائم على التذوق الذاتى وذلك عن طريق توظيف حواس الإدراك السمعى والبصرى ، وعرض نماذج من الفنون التشكيلية التى تعكس البيئة ومظاهرها ، وأنشطتها المختلفة وفى كل الأحوال فإنه ينبغى ربط الطفل بنماذج فنية مسموعة ومشاهدة ومقروءة ومناقشة إمكانات حسن تذوقه ، لكل ما يتلقاه .

عرض موجز لتاريخ كتابة الشعر العربى للطفل

سبق بيان ابتعاد الأدباء إلى زمن ، يكاد يكون غير بعيد ، عن أن يكتبوا للطفل مباشرة ، لما كان ينظر إلى ذلك على أنه ضعة فى الهمة ، وضعف فى الموهبة والمقدرة الأدبيتين ، حتى كان أول من كتب للأطفال تشارلز بيرو ، الشاعر الفرنسى ، وعضو الأكاديمية الفرنسية عام ١٦٩٧ ، إذ كتب مجموعة من القصص للأطفال بأسلوب سهل ميسر ، وسماها : « حكايات أمى الأوزة » . وكان قد وقعها باسم مستعار ؛ خوفا على مجده الأدبى ، لما أسلفنا من بيان النظرة التى كان ينظر بها إلى الكتابة الخاصة بالطفل ، لكنه حين رأى الإقبال المنقطع النظير على قراءة كتابه من الصغار والكبار ، كتب مجموعة أخرى للصغار ووقعها باسمه الحقيقى[١] .

ولقد نظر إلى « شوقى » هذه النظرة فى مطلع هذا القرن ، حينما كتب للطفل العربى ما استعرضنا لك جانبا كبيرا منه ، فيما مضى ،إذ زعم منتقدوه أنه إنما اكتفى من التجديد فى الشعر بأيسر الأمور وأقربها ، وأقلها شأنا ، ودلالة على الترقى فى مجال القريض وصناعته[٢] .

وهذا هو الدكتور مبارك يحدثنا عن امتداد قصور النظر ، وقلة الاهتمام بأدب الأطفال عامة ، وعدم إعارة من يكتبونه الاهتمام اللائق لتشمل النصف الأول من هذا القرن العشرين ، أو تكاد ، فيقول : « التأليف للأطفال يعد تضحية كبيرة فى أكثر البلاد ، لأنه فى الأغلب لا يصل بالمؤلفين إلى ما يسمونه بالمجد الأدبى ، ويكاد الناس يجمعون مخطئين على أنه لا يهتم بالتأليف للصغار سوى الذين لا يجدون ما يلقونه على الكبار .

---

(١) السابق ص ٢٠ .

(٢) السابق ص ٢٥٠ .

وهذا الوهم فى تقدير المؤلفين للأطفال من الأوهام العالمية . ومن النادر أن نجد مؤلفا وضع فى الموضع الذى يسيق به بين الذين كتبوا للأطفال . ومن أجل هذا قلت الكتب الجيدة التى يلهو بها الصغار ، أو يتعلمون منها كيف يكون السير فى مفاوز الحياة[1] .

إننا إذا عدنا إلى القرن الماضى فسنجد « رفاعة الطهطاوى » الذى كان مبعوثا إلى فرنسا يعود إلى مصر ، وقد وقر فى ذهنه – ضمن ما وقر فيه من مظاهر المدنية والتقدم الغربيين – اهتمام الفرنسيين بأدب الأطفال – وقد رأينا أن أحد كبار أدبائهم كان السابق إلى الكتابة فيه فلما وكل إليه أمر التعليم فى مصر جعل يعمل على النهوض به ، وبخاصة فى مجال تعليم الأطفال وتربيتهم لما كانوا يعانونه من جدب الخيال وفقر التسلية فيما كان يقدم لهم ليدرسوه ، وقد كان رفاعة يستعين بما يؤلف من كتب حديثة . وبناء على رغبته أرسل وكيل الحكومة المصرية المقيم فى لندن عام ١٢٤٣ كتبا مؤلفة للتلاميذ الصغار ، فكان لديهم فى فترة وجيزة كتب متعددة الاهتمام ، منها « حكايات الأطفال » و« عقلة الصباع » . وإذا كان الصهطاوى قد مثل بداية النهوض بأدب الأطفال ، فإن السير على دربه الذى ابتداه هو قد شهد تعثرا ، لكن التاريخ مسجل أن محمد عثمان جلال قد نهض بذلك ،فى مجال الشعر وأن كتابه « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » مثال واضح على ذلك ، وبخاصة إذا علمنا أنه طبع فيما بين عامى ١٨٤٨ – ١٨٥٤ ثم طبع بعد وفاة مؤلفه بعشر سنين عام ١٩٠٨ . وقد كانت نظارة المعارف العمومية قررته بمدارسها الابتدائية عام ١٨٩٤[2] .

وقد جاء هذا الكتاب على هيئة ديوان به شعر مزدوج القافية ، يحتوى على مائتى قصة مترجمة عن كتاب لـ«لافونتين» الفرنسى . وكانت هذه القصص منظومة على لسان الحيوان . ونستطيع أن نلاحظ على هذا المؤلف لذلك الشاعر الرائد أنه قد تأثر بمصادر خمسة :

١ – أعمال « لافونتين » الفرنسية وهذه قد تأثرت بكليلة ودمنة و« إيسوب »[3] .

٢ – حكايات « إيسوب » اليونانية[4] .

---

(١) السابق ص ٢٦٠ .

(٢) السابق ص ٢٤٣ وكان الكتاب الأول للفرقة الأولى الابتدائية ، وكان الثانى للفرقتين الأولى والثانية .

(٣) انظر : أطفالنا فى عيون الشعراء لأحمد سويلم ص ١٥١ .

(٤) يكاد الباحثون يجمعون على أنه ولد عام ٦٢٠ ق .م وأنه كان عبدا فى فترة من حياته . وقد استطاع بحيلته وذكائه أن يخلص من أغلال الرق . أقام بعد ذلك فى مدينة « ساروس » وحكمته ندبه ملكها ليكون سفيرا له فى سفارات مختلفة ، وكانت أفكاره وحكمه وخرافاته التى سجلها حول رحلاته إلى بعض مدن اليونان معينا للأدب على لسان الحيوان والطير . انظر أطفالنا فى عيون الشعراء من ٦٠ ، ٦١ .

٣ – « كليلة ودمنة » العربية .

٤ – التراث العربى المتناثر فى بطون أمهات الكتب العربية ، والحكيات الشعبية والتراثية .

٥ – رسالة « **الصادح والباغم** »[١] و« **فاكهة الخلفاء** » ، و« **قصائد أبى نواس** » وغيره ممن وصفوا الحيوان . ويقول الباحثون إن الشاعر قد ألبس حكايات لافونتين الروح المصرية ، كما ساقها إلى المتلقين فى اللغة اليومية ، وكذلك لا يخطىء المطلع عليها للمقارنة بينها وبين ما كتب لافونتين أن يقف على إضافات أضافها ، شأنه فى ذلك شأن ابن المقفع من قبل ، حينما نقل « كليلة ودمنة » عن الفارسية ، ولابد أن نقطع بأن من إضافاته ، وتحويراته جعله مسرح الأحداث والحكايات أحيانا كثيرة فى مصر أو أىّ من البلاد العربية الأخرى . ولنقدم لك هنا مثالين من هذا الشعر الذى كتبه محمد عثمان جلال .

[١] صاحب الدجاجة

كان البخيل عنده دجاجة ... تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مرّ تعطيه العجب ... وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزا ... وأنه يزداد منه عزاً
فقبض الدجاجة المسكين ... وكان فى يمينه سكين
وشقها نصفين من عقلته ... إذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزا ولا نفية ... بل رمة فى حجرة مرمية
فقال : لا شك بأن الطمعا ... ضيع للإنسان ما قد جمعا

إن قيمة « محمد عثمان جلال » تأتى من أنه قد استطاع أن يوظف عالم الحيوان ، والطيور فى تكوين عادات صحيحة ، وأخلاق اجتماعية ، وفردية لدى الطفل .. وهذا فى حد ذاته ريادة فى عالم « أدب الطفل » وذلك عندما يكون الطفل هو المقصود من هذا الأدب .. ولننظر إلى النموذج التالى على أنه أحد النماذج الذى يشكل مع غيره ريادة فى مضمار الأدب الموجه نحو « عالم الطفل » .

---

(١) الصادح والباغم للشاعر أبى العلاء المعرى (ت عام ٤٤٩) وانظر فى تحليل مصادر « العين اليواقظ » ، المرجع السابق ص ١٥١ .

[٢] الأرنب والضفادع

رأيت أرنبـــا ذليلا خـائفا أوى إلى بيت هنـــاك واختفى
ونام فـى شغل مـن الأفكـار فى حِنْدِس اللّيل ، وفى النهار
حتى عفـا من همّـه وغمّـه ومن أبيـه يشتكى وأمه
ولى يقـول : ليت لـم تجدنى وليت أمّى قط لـم تلدنى
وكيف لا ، وعيشتـه منغص وكل يـوم تعتريه الغصص
إن هب ريح من فروع الشجر يزحف منـه خائفا ويجرى
ينـام لكن عينـه يقظـانة وروحـه من فـزع ملآنة
فجاءه الحـال فقال خوف والنـاس مثلى واحد وألف

ولا شك أنه تلمس فى الحكاية الأولى حكمة قد استخلصها الشاعر ، أو بالأحرى ، جعلها نتيجة — من سلوك البخيل مع دجاجته التى جليت له الخير الوفير إبان حياتها ، وهو ما سبق أو وقفنا على أكثر من نموذج مماثل له عند شوقى الذى هو بحق من رواد أدب الأطفال ، والشعر منه بخاصة .

ولا شك أيضا أنك تلمس سهولة تقبلها من الطفل فى الثامنة والتاسعة من عمره ، وكونها جذابة له ، ومغرية بتكرارها وتمثل معناها ، وبخاصة أنه يغلب على لغتها السهولة والقرب من الكلام المتداول على الألسنة قربا شديدا . لكن الحكاية الثانية يبدو الطابع الفلسفى غالبا عليها بعض الشىء ، وتبدو نهايتها غامضة ، وإن كانت تبث روح الشجاعة ، وتنتزع من الطفل الخوف ، والميل إلى الانطواء والعزلة . ولقد وجدنا من قبل كيف كان عند شوقى ما يماثل قالبه ، قالب تلك الحكاية غير المذيلة بحكمة وربما لا نكون مغالين عندما نقول إن لغتها تتضمن بعض المفردات الصعبة كـ « حندس » بمعنى شدة الظلمة ، و« يعتريه » بمعنى يصيبه .

ثم بعد ذلك كان لشوقى دوره البارز فى هذا المجال . وقد كان مدفوعا إليه بما رأى من اهتمام الفرنسيين ، والأوربيين ، بعامة به ، وربما صح ما ذهب إليه البعض من أن اهتمامه بهذا المجال كان ناشئا من أن « شوقيا » عاش حياته طفلا كبيرا مدللا ، لم تبارح صور الطفولة قلبه طوال حياته . وتزاحمت عليه ، وهو يطالع « لافونتين » . إنها ببهت « شوقى » إلى التعبير عن عالمه الصغير المسحور المدفون

فى عقله الباطن . فاستطاع لذلك أن يستدعى طفولته ، ويبدع للأطفال ، وهكذا انطلق شوقى ينظم للأطفال ، فنظم لهم تعبيرا عن بعض ذاته ثم تعبيرا عن حدبه عليهم أجمعين ، فكانت شوقياته الصغيرة التى لم يكتبها تقليدا « لأدب الأطفال » بمواصفاته الأدبية والعلمية المعروفة ، وإنما كتبها استجابة لطفولته الشعرية ، وما تمد من ظلالها فوق جميع الأطفال[1] .

وإذا كان ذلك الرأى يحمل فى طياته الغض من قيمة ما كتب شوقى للطفل ، بحجة أنه ما كان يقصد إلى البدء فى سد ثغرة فى اهتمامات الأدباء العرب ، والشعراء بخاصة ، بالإنسان العربى بعامة منذ طفولته حتى شيخوخته ، فإنا ينبغى أن نستدرك على أنه امتدح « شوقيا » من حيث لا يدرى قائله – ذلك أن الأدب الذى يكتب للطفل أو يقاص الذى يقص له ، ويروى لابد أن تتوافر لديه خاصة استشعار أحاسيس الطفولة ، واتعايش معها أو محاولة ذلك . فكاتب الأطفال المبدع لابد أن يكون فيه شىء من مرح الطفولة وبراءتها ، وأن يعرف الأطفال عن كثب وخبرة »[2] .

ولقد تحدثنا فيما مضى عن إبداع « شوقى » فى هذا المجال بإفاضة مما يجعلنا ننتقل إلى غيره ممن توافروا على هذا المجال ، وأبدعوا فيه . من هؤلاء ناظمٌ أصدر عام ١٨٩٣ كتابًا بعنوان « نظم الجمان فى أمثال لقمان » ومؤلفه « عبد الله فريج » ، وهو كتاب فى الأدب الرمزى . وقد جاء كتابه متضمنا خمسين مثلا جعلت فى صورة أراجيز تقدم حكايات عن الحيوان والإنسان والنبات ، وتنتهى بمثل من أمثال لقمان ويبتدأ كتابه بحكايات عن الأسد ومعه حيوانات أخرى كثيرة كالثور والثعلب والبِرْذَوْن والذئب ثم الإنسان ... ثم الوحوش جميعا ... ثم تنقل مع الحشرات والنبات والطيور . ونقدم لك هنا مثالين من أراجيزه هذه[3] .

[١] امرأة ودجاجة

قيل بأن امرأة محتاجة ... كانت لها فى بيتها دجاجة
لها تبيض بيضة فى اليوم ... من فضّةٍ سادت بها فى القوم

(١) انظر فى أدب الأطفال ص ٢٥١ .
(٢) السابق ص ٢٥١ . وانظر عن الكتابة وروايتها : ص ٢٩٦ .
(٣) انظر : أطفالنا فى عيون الشعراء ص ١٦٣ ، ١٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

فافتكـــرت مـن غيّهـا الغبيـــةْ أن تكـثر الطعـــــام للشَقِيّةْ
لعلهــــا تبيــض بيضتـــــين أعنى بـذا فى اليـــوم مرتين
وإذلّهَـــا زوّدت الغــــــذاءَ وأوسعت أحشـاءها امتــلاءَ
انفجـــرت حـوصلـة المسكينةْ وأصبحت مولاتهـا حزينـــةْ
وصحّتِ الأمثـــالُ أنْ بالطمعْ يفرّق الإنسـانُ كلّ ما جمعْ

[٢] الزنجي الأسود

مــرّ حكيــمٌ من ذَوِى الفضـــائلْ يومـــاً على بعض من الســواحلْ
وقـد رأى هنــاك عبـدًا أســـودًا فــوقف الحكيــم حتى يشهـــدَا
وإذ رآه فـرِكَـــــا بالثلـــــجِ جسما ، وما أدراك ما جسمُ الزِنجِى
فى أمــــــل بأنـــــه يبيـــضُ والأســـوداد عنـــــه ينفــضُ
قـــــال لـه الحكيــم فى الكــلامِ أقْصِرُ عَنَـاك يا أخـا الأوهـــامِ
إن اســـوداد الثلـــج يا ابــن الخـــالِ أقــــرب مــن بيـاضك المَحــــالِ
إذْ قِيـــلَ أنّ البْـع يبقى فى البـــدنْ ولـم يغيره سـوى درْجِ الكـــفنْ

وهذه الثانية لا شك أنك تلمس صعوبة أن يتقبلها أو يفهمها طفل دون سن الحادية عشرة ، بل إنه لا شك أن سيغمض ما بها من معنى عدم تغير الأشياء أو الناس عن طبائعها التى جُبلت عليها ، وهو ما تفضى إليه الحكاية المتخيلة ، وإن كان سيحتذيه إليها إدراكه غباء هذا الزنجى ، ومحاولته المستحيل ، مما يجعله يعود إليها مرة ومرة بعد أن يكشف له النقاب عن معنى الكلمات الصعبة التى جاءت بها . ولقد رأيت أن الأشعار التى عرضناها عليك من قبل تلح على عرض مثل هذا الموقف الذى يجعل المتلقى يستحضره دوما ليكون بمنجى من أن يمثل فيه دور المسخور منه ، أو المتهكم من غبائه .

ولابد أن نتوقف عند معاصر آخر لشوقى غير هذا الشاعر السابق . إنه الشاعر محمد الهراوى [١٨٨٥ – ١٩٣٩] ، الذى كان أحد العاملين على صياغة الشخصية المصرية والعربية لتتصدى لما حاوله المستعمر من طمس معالم ثقافتها المميزة ، ولغتها العربية الخالدة . وكان أن اهتم بالطفل فقدم له الكثير من عطائه وإبداعه ، فى صورة دواوين متعددة ، فى أجزاء متعددة أيضا . وقد كان يحاول أن يكتب لكل مرحلة من العمر ما يناسبها من الأشعار ، وهو ما يحاول الكتاب للأطفال أن يستضيئوا به ، ويقدموا إنتاجهم على أساس

منها . وشاعرنا هذا رائد أصيل . وقد كتب الهراوى « سمير الأطفال » « لبنين » فى ثلاثة أجزاء ، و« سمير الأطفال » « للبنات » فى أجزاء ثلاثة أيضا ، كما كتب « أغانى الأطفال » ، « سمير الصغير » ، « ديوان الطفل الجديد » ، وملحقا به رواية الذئب والغنم . كما كان له ديوان بعنوان « أنباء الرسل » عولَ فيه على القرآن وما جاء فى كتب العهد القديم والجديد وكان مما دفع الأطفال إلى الاهتمام بأعمال الهراوى : إلى جانب براعته وتمكنه المشهود له به فى هذا المجال – إصداره أعماله الشعرية مزينة بالصور[1] .

ولابد أن نقرر أنه كتب للطفل الأناشيد التى تجمع بين التعليم والتربيه ، والتى تصحب الطفل فى مراحل حياته المختلفة ، بل تصحبه طيلة يومه وتسجل له انطباعاته ، وانطباعات الناس عنه ، وتأخذ بيده دائما نحو التقدم فى التعرف على العالم وزيادة خبرته عنه .

يقول الهراوى فى أنشودة بعنوان « تحية اللقاء » :

هل تعلمون تحيتى عند الحضور إليكمُ
أنا إن رأيت جماعةً قلت : السلامُ عليكمُ

وإذا كان الشاعر هنا يأخذ بيد الطفل إلى أن يألف الناس ويألفوه ، وأن يحاد أن يردد صيغة « التسليم » التى هى المفتاح للولوح إلى قلوب كل جماعة فإنه يقول فى أنشودة أخرى فيما يشبه التوطئة الثانية ، بعد « التسليم » للتعرف على الناس واكتساب محبتهم وبشاشتهم وحسن لقياهم :

لا تظنُونى صغيرًا ليس قلبى بالصغيرْ
يسعُ الناس ودادًا من صغيرٍ أو كبيرْ

ويقدم أيضا من الأناشيد ذلك النشيد المعروف ، الذى يحبب الطفل فى أن يقرن بين تعلمه وعمل آخر يعمله بعد انتهاء يوم الدراسة وذلك قوله :

أنا فى الصبح تلميذ وبعدَ الظهر نجّارُ
فلى قلم وقرطاس وإزميلٌ ومنشارُ
وعلمى إن يكن شرفًا فما فى صنعتى عارُ
فللعلماء مرتبةٌ وللصنّاع مقدارُ

(١) انظر أطفالنا فى عيون الشعراء ص ١٧٣ ، ١٤ .

فهو ينشّئ الطفل على عدم احتقار العمل الحرفى ، ويحبب إليه أن ينشط إليه مضيفا إلى خبرته ومعرفته الدراسية خبرة ومعرفة أخرى ، ويجعله متقبلا لأن يعمل إن اقتضى الأمر ذلك ، دونما تأفف أو ضجر ، ذلك أن العمل أيًا كان ، شرف وواجب وحق . وهذه قيمة يحسن أن نقرها فى ذهن الطفل . وقد رأينا ، وسنرى فيما بعد ، قصيدة لشاعر يحدثنا فيها عن هو طفلته مع كلبها فى الحديقة ، وقفزها فوق أعشابها وقطفها ورودها وقطع أغصان شجيراتها ، حال كون الكلب مراقبا لها مشفقا عليها . وهنا سنجد الشاعر الهراوى يحدثنا عن الكلب والحيوان الأليف ، وما يفيده الإنسان منه فى نشيد ذى كلمات سهلة سائغة كعادته ، ووزن تنبعث منه موسيقى راقصة ، ذات وقع حسن على نفس الطفل ، مما يجعله يستفيد إلى جانب المعلومات حول هذا الحيوان نظما يطرب لترداده ، والغناء به عند اللعب وفى أوقات اللهو يقول :

كلبى كلبى صـــافى القلبِ
يجـرى خلفى يمشى جنبى
راع للأهـــــل وللصحبِ
صعبُ عند الأمـر الصعبِ
يحمى الأغنـــام من الذئبِ
وله فى الصيـد وفى الحرب
وله فى الإسعـــاف الطبى
وقليــــل العيب أو الذنب
يغنيه القـــول عن الضرب
فلذا ولـــذا أهـــوى كلبى

والشاعر له من الأغنيات والأناشيد ما يربى فى الأطفال عاطفة قوية نحو الوطن ، فمن ذلك قوله[1] :

مصر أمنـــا　　حقها وجـبْ
تُرْبُ أرضهـا　　يُنْبِتُ العَجَبْ
مــاءُ نيلهـا　　سائـلُ ذُهـبْ
بينَ أمنـــا　　والعـلا سبـبْ

(١) انظر ذلك وفيما سبق للهراوى : المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٧ .

وإذا كان كامل الكيلانى [١٨٩٧ - ١٩٥٩] هو الأديب الذى يرجع إليه الفضل فى ريادة كتابة القصة للطفل ، متأثرا بالتراث والتاريخ العربيين ، ومقربا كنوزهما ، وشخصياتهما ، وأحداث ذلك التاريخ للمجيد ، للطفل العربى ، بالإضافة إلى تأثره بالآداب الأجنبية ونقله عنها - فإنه ينبغى علينا ألا نغفل كتاباته الشعرية التى كان يقدم بها قصصه ، أو ينهيها بها . كذلك كتب بعض القصائد التى هدف بها إلى تغذية الطفل بجميل الخلال والطبائع ، وتهذيب سلوكه دونما مباشرة لذلك ، أو الظهور بمظهر وعظى أو خطابى يتضح ذلك فى قصيدته التى بعنوان « لا أحد » . ويقول فيها[1] :

شخص غريب تسمعون دائما ... به ... وإن لم يره منكم أحدْ
ولست أدرى أبـــدا ما شكله ... وكم له من معجـزات لا تعدُ
أما اسمــه ، فهـو غريب عندكم ... تعرفــه كل فتـــــاة وولـدْ
فـإن سألت : مـا اسمــــه ... فهـــو يسمىّ : لا أحـــدْ
إن تُركتْ أبـوابُنـا مفتوحـة ... أو طـــار مِن نافذةٍ زجاجُها
أو خُلعت أزِرَّة مــن ملبـس ... أو ضــاع من آنيةٍ غطـاؤُها
أو بُعثِرتَ من كتبٍ أوراقهــا ... أو ســال من مِحْبرَةٍ مدادها
ثــم سألنا : مـن فعــــل ؟ ... كان الجـــواب لا أحـــد

وعلى الرغم من عدم وضوح العنصر الموسيقى الطفولى فى هذه الأبيات وضوحا جيدا كما سبق أن رأينا فى غيره ، مما قد يحدونا إلى عدم عدها شعرا أو نظما يستحيل الطفل سريعا ، فإن معالجة سلوك الطفل الذى عرضت له جاءت لتمثل نموذجا يطلب دائما من الكاتبين للأطفال أن يحتذوه . فليس ثمة تقريرية أو حكمة جافة ، أو نهى وزجر . وهذا كله مما قد يعرض عنه الطفل عند سماعه . لكن إذا استحضر إجابته الحاضرة دائما . « لا أحد » بعد أن يفعل أيا من الأفعال المعـودة لابد أنه سيخجل ، ثم يعمل تلقائيا على أن يغير من هذا السلوك .

وممن كتبوا الشعر للأطفال الشاعر « إبراهيم العزب » الذى صدر له عام ١٩١١ كتاب « آداب العرب » وقررته نظارة المعارف فى مدارس المعلمات السنية . ومدارس معلمى الكتاتيب ، والمدارس الابتدائية وفيه نظمت تسع وتسعون قصة شعرية كان منها

(١) انظر ذلك وفيما سبق للهراوى : المرجع السابق ص ١٧٤ - ١٧٧ .

ما نظم على لسان الحيوان . ومنهم أيضا جيران النحاس ، وقد أصدر ديوان « تطريب العندليب » عام ١٩٤٠ .

وجاءت فيه سبع وتسعون قصة شعرية أخذت من « لافونتين » . وقد كتب « الرصافى » ، و« محمود أبو الوفا » أيضا فى هذا المجال .

يقول أبو الوفا [١٩٠٢- ١٩٧٩] فى نشيد عن « كرة القدم » :

كرة القدم كرة القدم — هى لعبتنا منذ القدم
يابن النيل يا ابن الهرم — العب العب كرة القدم
للكرة نداء يشجينا — ويطير بنا صوب الهدف
وكأن صداه ينادينا — سيروا سيروا نحو الشرف
فى العالم نحن لنهضتنا — أصحاب الراية والعلم
ومتى كنا فى ساحتها — كنا الحراس على القيم

وكان من الأناشيد الدينية التى كتبها : « دعاء الصباح » يقول فيه[1] :

يا إلهى يا إلهى — يا إله العالمين
يا إلهى لك أدعو — استجب لى يا إلهى
ليكن وجهك وجهى — ليكن جاهك جاهى
ليكون نورك قدا — مى فى أىّ اتجاهِ
فإذا الكونَ أمامي — كله نور إلهى
وإذا أبصرت لم أبْـ — ـصِر سوى الحب الإلهى
يا إلهى يا إلهى — يا إلهى يا إلهى

لقد ضمن الشاعر فى أناشيده ، لتجربته مع الطفولة وخصوصيات لهوها ، وعبثها ، وولعها بالرقص والقفز إحساسه الطفولى .. فقد ساق أناشيده فى جو موسيقى ، ولغوى ، وكلمات متقافزة ، مما أوجد انطباعا بأن الطفولة تعبر عن نفسها بمثل هذا الأداء فجاءت الإيقاعات . واللغة عاكسة بحق لبيئة أدب الطفل وموضوعاته المناسبة .

(١) انظر السابق أيضا ص ١٨٥ – ١٨٨ .

الفصل الثانى

الطفولة وعالمها الشعرى
بين العمودية والحداثة

أولا : فى خصوصيات العمودية والحداثة ، وعلاقتهما بالطفولة

قد لا نجد للطفولة موقعًا ، على خريطة الإبداع الشعرى الكلاسيكى ، ويكاد الشعر القديم يخلو من أدب ، يكتب أساسًا للطفل ، أو يجعل الطفل موضوعًا له ، أو أن تكون هناك اهتمامات أدبية من قبل الأطفال أنفسهم .. والشعر بخاصة يكاد يهتم بالكبار ، ويقصر إبداعاته على هموم الكبار .. حتى حينما يكون الفن تعبيرًا عن الصغار فمن خلال مشاعر الكبار وهذا الذى جعل الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح يذهب إلى أن الأدب العربى فى مجموعه هو أدب كبار « ليس للصغار فيه أى نصيب يذكر ، ومكان للطفل العربى فى أدب آبائه وأجداده ، إلا أن يكون موضوعًا لاستعطاف ، أو موضوعًا للرثاء »[1] .

وهذا الغياب لأدب الطفل بعامة ، وللشعر المهموم بعالم الطفل العربى بخاصة .. جعل الكتاب والنقاد والمهتمين بعالم الطفل ، يبحثون فى الأسباب والعوامل التى أدت إلى هذا الغياب ، فيرجع الدكتور المقالح غياب شعر الطفولة قديمًا إلى السببين التاليين :

أولاً : أن الأدب العربى فى البداية ، قد نشأ سماعيًا ، ويستدعى تقبله ، أو الانفعال به إدراكًا معينًا – وكذلك مستوى معينًا من الثقافة لا تتوافر للطفل .

ثانيًا : وحين أصبح الأدب العربى أدبًا مكتوبًا ، كانت القراءة محدودة الانتشار ، ومتاحة للقادرين والمحظوظين ، من الكبار ، ولم يكن الأطفال من القادرين ولا المحظوظين ، والذى أراه أن الطفل العربى – قديمًا – لم يكن بحاجة إلى إدراك ، أو ثقافة خاصة ليتذوق شعر أمته ، لأنه موصول بالذوق العام ، وقادر على الإدراك باعتباره جزءا من المجتمع الذى لم يعش ثنائية لغوية ، أو اجتماعية ، كما يعيشها الطفل فى الحاضر ... .

---

(١) من بحث ألقاه الدكتور المقالح في المؤتمر العام الثانى عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بالجزائر سنة ١٩٨١ .

كان الشعر بجمالياته ، متاحًا للجميع .. والغلام الذى قال لعبد الملك بن مروان « المرء بأصغريه » يرمز على إدراك وثقافة طفل هذا الماضى ... ومع هذا فهناك تقصير واضح فى تاريخ الفن العربى الشعرى فى علاقته بالأطفال والطفولة . فعالم هذا الطفل ... وهو قريب منا قرب أبنائنا منا ، هو بعيد عنا بعد مناهجنا ،وخططنا ، والتفكير فى المستقبل ، والتمسك بالحضارة ، وطرح عواملها بيننا .. ومع ذلك فإن هذا الطفل على مر التاريخ كان يمثل الغير ، الذى لا يشكل قوة فاعلة أو منفعلة ، تؤثر على الشعراء كما لم يكن ضمن العالم الداخلى للذات الشاعرة ، المهمومة بأمور ، يمثل الطفل أحد محاورها .. كما هو الشأن مع القبيلة ، أو الناقة والخيل والسيف ، والوطن ، والطبيعة ، والحبيبة ... ولا يقلل من عدم الالتفات للطفل كونه موضوعًا لكل ما يتصل بالوطن وهمومه . أو المجتمع وطموحه أو الإنسان ونقائه ، والأيام ومحنها ، وذلك بمستويات الرمز والإسقاط .. والطفل – قديمًا وحديثًا ومستقبلاً – هو الولادة الجديدة التى تمنحنا الثقة فى المستقبل ، وترفع عن كاهلنا عبء الأيام ، وضراوة الصراع .

وعلى عاتقه تقع مهمة التغيير الجذرى للواقع المتخلف الذى تعيشه أمته .. وبخاصة فى المنعطفات التى يتساقط خلالها من شجرة الأمة أبطالها وصانعو أملها فى الحرية والتقدم والحضارة ، وحين تفقد هذه الأمة ثقتها فى كبارها خلال فترات المخاض والأحداث حينئذ ينبغى أن تتنبه إلى أطفالها ، وأن تمنحهم ، وباستمرار ، الرعاية ، والثقافة ... والفن الذى يخلص لقضاياهم ، ويعبر عن عالمهم كى تزدهر طفولتهم وتنتعش جذورهم الإنسانية ، وتتأكد شخصيتهم .. ومن ثم نصلح من حالهم ، ونهيؤهم للنهوض بالأعباء ، ويمكن إضافة عوامل غياب الطفل والطفولة من الشعر العربى القديم ، إلى أنه ما من عربى فى عصورنا القديمة ، إلا وقد عرف الشعر معرفة الراوى أو المتذوق ، أو الناقد ، أو الفاهم أو المخاطب الذى سيجد فى الشعر بعض اهتماماته أو ما يتصل بكونه الخاص ، أو بالكون العام .. والطفل – حينئذ – قد وجد فى الشعر معرضًا من الفنون القولية والمعرفة الكونية ، وحقائق بيئته .. فأحس بعالمه يبتدىء فى الشعر فنًا أو معرفة ، أو بيئة ومجتمعًا . لقد استطاع الشاعر القديم ، أن يتناول كل الجزئيات وأن يحولها إلى طاقة فنية ، وحالة من حالات الإبداع الشعرى . فالشعر لهذا كان هو واقع الحياة ، وكان الشاعر ، يعيش واقعه كله يفرز الشعر ، ويبدعه ويندلح لذلك من بين شفتيه كمعادل فنى ومعرفى للواقع المعيش ، وكثيرًا ما دندن الأطفال بالشعر الذى يتلقونه فى المجالس

أو عن الرواة والمنشدين ، أو عن شعرائه المبدعين حيث كانت للغة وللأحداث سياسية أو اجتماعية أو قبلية أو بيئية أثرها فى نفس الطفل ... فالطفل قد وجد فى الشعر بخاصة ، وفى الأدب بعامة عالمه ، وطفولته ، وحقائق بيئته .. وظروف مجتمعه الصغير والكبير .. ولم يفاجأ بفاصل من اللغة أو المضمون أو الجماليات ، يمنعه من تلقى هذا الشعر والإحساس به فكان لهذا مصدر إثراء وإغناء ، وتهذيب وتربية وتعليم وكانت حياة الطفل موصولة بحياة المجتمع ... مما جعل الأدباء والشعراء لا يفرقون بين الطفل ومطالب طفولته ومعطيات عالمه ، وما يتطلبه الوجود الاجتماعى أو القبلى لأن المجتمع بعامة لم يبدأ يتمزق ، ويتشرذم إلا فى مراحل تاريخية متأخرة جدًا .. فالشعر مع الماضى البعيد كان لسان حال الطفل ... لكن بلغة الشاعر وأسلوبه .. تلك اللغة وهذا الأسلوب التى أو الذى لم يرتفع عن طموح الطفل ، ومطالب حياته الفنية والثقافية والحضارية ، ولم يكن يخطر ببال شاعر من شعرائنا الأقدمين أن يلجأ إلى تركيب لغوى أو تشكيل الصورة بالعمق الذى يتعالى فيه عن الواقع الفنى والاجتماعى لأفراد مجتمعه أطفالاً أو رجالاً أو شيوخًا أو عبيدًا أو أحرارًا ... حيث كان هم أى شاعر أن يجلو شعره ، وينسق كلماته ، لتستقبلها أذن الجميع شلالاً متدفقًا بالجمالية اللغوية التى تعودتها تلك الأذن ... ولتستقبلها أذن المتلقى صافية مبهجة ، ومؤنسة ، حيث كانت طبيعة البيئة والمجتمع أن تشملها وحدة كونية واحدة وتلمها وحدة نفسية ومزاجية واحدة ، أى أن الجميع كان يعيش واقعًا إنسانيًا واحدًا ، لا يحتمل قسوة التعدد والتجزىء الذى ينشأ عنه عوالم الطفولة والمرأة والعمال ، والشيوخ ... إلى آخر هذه النوعيات ، وهذه الطائفية ، والنوعية التى ينشأ عنها أدب « للطفل أو للمرأة ، أو للكبار ، أو للشيوخ » حيث يكون الأدب تعبيرًا عن كل طائفة من تلك الطوائف ... لكن مع التقدم الزمنى والحضارى ، وتعقيدات الحياة ، أصبحت الحاجة ماسة إلى أدب للطفل ، وإلى شعر يتحدث عن الطفل أو يتحدث إليه ، لأن أدبنا فى الماضى كان أدب المستوى الواحد ، والأدب الذى يخاطب الكبار ، وقد يهمل لذلك الصغار .. ومع الشعر الحديث ، وبدايات الإفاقة كان الاهتمام بشعر عن الأطفال ولهم ، ويمكن لنا أن نلتقى مع « أدب الطفل » خلال رؤيتين شعريتين :

أولاً : رؤية فنية مباشرة عمودية قائمة على التعبير المباشر والتصوير الفنى البيانى .. والتركيز على التوصيل والوضوح ، والخطابية المؤثرة ، ولتقريرية الجميلة .. وهذه الرؤية صادرة عن مدرسة البيانية ، والعمودية والتقليدية المحافظة .. ولهذه المدرسة شعر قليل فيه نفاذ إلى عالم الطفولة ، ونظرة شمولية إلى الطفل باعتباره الأمل ، والتجديد

الدائم للحلم ، والولادة المرحلية إيذانًا بالجديد القادم .. وفى هذا الشعر هناك كثير من التعاطف الطفولى ، ومشاعر المحبة والحنان والكثير من الإيحاء .

ثانيًا : رؤية فنية تحليلية ، صادرة عن شعر يتميز بالكشف عن واقع لطفل خلال الواقع القادم المحيط ، والتحديق فى عالمه بعينى الشاعر والفنان بحثًا عما يدنه هذا العالم من مشاعر ، وآمال وأحلام .. وإذا كانت هذه الرؤية صادرة عن شعر رومانسى الاتجاه والفن فإن هناك شعرًا رومانسيًا ، وحداثيًا ، يرى الطفولة وعالمها مدخلاً لطرح تساؤلات ومناقشة الكثير من القضايا الاجتماعية ، والإنسانية ، والحضارية ، وتحاول هذه الرؤية أن تستوعب ، فوق هذا ، جوانب نفسية وروحية لعالم الطفولة .. لكن الرغبة فى التقريرية ، والتسطيح لهذا الشعر ، قد قللت من الطاقة الفنية الشعرية الموصولة بالعمق الطفولى ، وجعلت التعاطف المظهرى مع الطفل هو محور تجربة هذا الشعر .. فقل توتره ، وأفرغت كثافته العاطفية .. وهناك فروق غائمة بين الشاعر العمودى الكلاسيكى ، والشاعر الرومانسى ، أو شاعر الحداثة فى موقف كل منهما تجاه الطفل وعالمه ، وذلك على النحو التالى :

١ – الشاعر الكلاسيكى يمتلك إحساسًا بوحدانية مسئوليته الاجتماعية والإنسانية .. فهو يحلق ويحلم ، ويثير الانفعال والغضب فى الساحة القبلية أو الوطنية أو القومية .. لكن دون أن يفقد صلاته الحميمة الظاهرة بجزئيات الواقع ، وكل عناصره ، التى ربط حياته فى دائرتها ، وتحت سقف معطياتها ، والطفل بعالمه هو جزئية من تلك الجزئيات .

٢ – أما الشاعر الرومانسى ، أو شاعر الحداثة فإنه يريد فى تعامله مع الطفولة وعالمها أن يحدث فى هذا العالم برؤية أكثر عمقًا ، وبذوق جديد وإحساس ذاتى يميزه ، وهذه من مهام رؤيته ، على صياغة جديدة ، وولادة جديدة وتقديم هذا العالم بمرآة تعمل على شحن الموقف بطاقات جمالية ولغوية تتفق ومطلب طفولة العصر ، وتوتراته وكثافة انفعالاته . فالشاعر حينئذ ، هو كائن أثيرى يطل على الواقع من أعلى ، ويختار لذلك تجاربه موصولة بالكون الاجتماعى والإنسانى ، ويحاول الربط بين قضية الطفل ، وقضايا الحياة والوجود والمصير فالطفولة فى شعر الأول ظاهرة تعالج فى أبعادها الاجتماعية وتوجهاتها التربوية مشكلات الطفولة الذاتية ، ومن مشكلات الطفولة الذاتية مشكلات ثقافية ، والطفولة مع شعر الثانى نسيج متداخل تداخل الحياة بكل ألوانها ، وأنشاطاتها . وهذا الشعر قد حول عالم الطفولة ، بسبب قدراته الفنية الكبيرة إلى قدرات إبداعية ، تهدر بالرمز ودلالات موحية بالأمل والتجدد ، والجديد الطالع دائمًا ، وهذا الشعر

يقرؤه الكبار ، لتتأكد لديهم أحاسيس التعاطف مع عالم الصغار .. أما الشعر الأول فهو ليقرأه الكبار ، وليتدارسه الصغار .. لأن كثافة الرمز والعاطفة ، وتوتراتها تمنع الطفل من التواصل العقلى والذهنى مع شعر الحداثة أما شعر العمودية والبيتية ، والتفعيلة فى كثير من أشكاله الواضحة ، فإنه يعمق فى الطفل الإحساس بالفن ، وجماليات اللغة ، ويؤكد لديه على الفضائل ، وجمال الصور الإنسانية بأطر المحبة والتسامح والتعاون والتواد . وإليكم شعر الأطفال برؤية الكلاسيكيين والمحدثين هذا الشعر الذى يقوم شاعره بدور فنى من خلال حسه الفنى والاجتماعى والإنسانى .

أولاً : الشعر العربى الكلاسيكى :

وهو شعر يتواصل إبداعه من العمودية إلى البيانية ثم الكلاسيكية الجديدة فالرومانسية ، وبدءا بشعر أزهى عصور الإبداع ، حتى العصر الحديث ، وفى معظمه إشارات عن الطفولة ، أو توجهات إلى عالم الطفل ، وسنختار نماذج لكل لون من هذه الألوان التى تتحدث من قريب أو بعيد عن عالم الطفولة . وفى هذا المعظم .. كان الشعر منفعلاً انفعالاً خارجيًا صاخبًا داويًا بقضايا العدل ، والإصلاح الاجتماعيين أو باكيًا حزينًا لفقدان ابن أو خائفًا مذعورًا لتيتم طفل ، وتشرده ، وتجويعه ، وذلك بقصد التأثير على الحس المتلقى ، وعطفه ناحية القضية الاجتماعية التى يدور فى فلكها الطفل وواقعه .. وهذا الشعر بهذه الرؤية هو أقرب إلى العمل الفنى الذى يصف ويسطح التجربة ، ويقدم صورًا تنبض بالتشكيل اللغوى الداوى بالإيقاع ، وبنظم الكلمات ، ويدور من حول المعانى والأفكار واصفًا وموضحًا كل الأبعاد الخارجية للتجربة التى تستهدف الطفل وعالمه .. ولهذا أعفى الأديب نفسه من التعميم والتجريد وذلك لصالح التجربة الإنسانية الملموسة ..

وإذا كان التراث الأدبى العربى ، قد أعفى المبدع من أن يقدم أعمالاً أدبية ذات توجه للأطفال ، أو الزوجات أو الأمهات ، أو الإخوة والأخوات إلى آخر هذه العلاقات الحميمة .. فإن الأديب لم يعف نفسه من تجربة أدبية كان الطفل فيها محورًا تدور حوله أفلاك الشعر والنثر ، وتتجدد فى هذا الأدب قضايا الطفولة فى الوقت الذى أصبح فيه هذا الطفل لدى هؤلاء الأدباء بعامة ، قيمة أسمى من كل القيم .. وحتى عندما كان النص قليلاً فى توجهاته نحو عالم الطفل وحتى عندما كانت النصوص ، التى تخاطب الطفولة مباشرة قليلة بالنسبة لديوان الشعر العربى خلال مراحل الإبداع البيانى وحيث لم يكن يخطر بذهن هؤلاء الشعراء ، أن يلجأوا إلى تركيب جملهم الشعرية ، أو أشطارهم بالعمق الموصول بعالم

الطفل كما هو عند شعراء الحداثة ، والرومانسية الفنية الموغلة فى أعماق الجمل والعبارات والكلمات ، تجلوها الوِدادة الحميمة لعالم الطفولة .. فلقد كان هم الشاعر البيانى والأديب الناثر السهر على أشطاره الأفقية ، وسطوره الممدودة يجلوها بالفن اللغوى . والإيقاع الموسيقى الآسر ، وينسق الكلمات فى سياق لغوى وإيقاع موسيقى ، وفى أصص القصائد والمقالات .. والشاعر أو الكاتب – حينئذ – لا يدفعك إلى أن تسعى إلى تأويل كلماته ، والإبحار فى معانيه لتستخرج دفائن معانى الطفولة ، وقضاياها ...

فلقد كان لإحساس الشاعر البيانى بوجدانية مسئوليته الاجتماعية والوطنية والقومية ما يفرض عليه التماس المباشرة والوضوح .. فجاءت رسالته العامة ، متضمنة لرسالته الخاصة ، تجاه الطفولة ، والعمل ، والجهاد ، والتعاون ... إلى آخر هذه الجزئيات التى تضمنها خطابه الفنى الأدبى . لكن اللغة الشعرية التى تحمل هذه الرسالة ، عرفت بأنها تتميز بما يلى :

١ – الإيحاء والتعلق بالمحسوسات ثم المجردات ذات التحليق فى عوالم النموذج والمثل والخيال ، وذلك رغبة فى فاعلية لغوية لتشكيل وجدان الطفل .

٢ – البساطة مع وضوح النبر والإيقاع والموسقة ، مع اتجاهها فى مراحل أبعد إلى التعميم ، واتساع أفق دلالاتها حتى يمكن تكوين عقل الطفل .

٣ – إبراز مفاهيم الطفولة فى لغة الإبداع .. والتركيز على ما يفرزه الطفل من خيالات وتصورات وهذا يحقق فائدة أكثر لدعم شخصية الطفل .

٤ – التعامل مع لغة أدب الأطفال من خلال القاموس اللغوى ، الذى يمكّن تصنيفه حسب مراحل نمو الطفل حتى يستطيع الطفل أن يتجاوب مع عالمه الأدبى ، وأن يستجيب للغة الإبداع ، بما يضمن له متعة وخبرة لغوية ، وتوظيفا فنيا وعليا للغة ، لهذا كانت اللغة فى « أدب الطفولة » أكثر الآليات احتفالاً واهتمامًا بخصوصيات الطفولة ، وتوجهات الطفل الجمالية والتعبيرية والفنية والتربوية والثقافية ...

نحن – إذن – بإزاء شعر متواصل مع حركة الإبداع الشعرى المحافظ ، والذى ينتظم القصائد البيتية .

ثانيًا: شعر طالع من أرض الحداثة : وهو شعر أكثر حساسية ، وارتباط بالخبرات الفنية وتجاربها العديدة مع الوطن ، والأرض والإنسان والوجود والمصير . وينتمى لشكل شعرى متحرر من الالتزام تجاه الموروث الفنى للشعر البيتى .. وفى مسيرة الشعر العمودى

سنجد أنفسنا مع شعر واضح وقصائد تثير العديد من القضايا الاجتماعية وتتخذ الطفل – أحيانًا – محورًا لتلك القضايا أو مشكلات موصولة بواقع الطفل ، وبمصيره الاجتماعى والإنسانى . والرؤية التى تتم بها هذه الإثارة ويتبلور عن طريقها عرض القضايا والمشكلات ، ويطل الشاعر من خلالها على عالم الطفل . وهى رؤية خارجية ، تتبع الواقع بوعظية ووصفية ، تحد من المحاولة الجادة لتعمق أعماق الطفولة وسبر أغوارها ، ولتكشف عن خبايا النفس لدى الأطفال . وهذه الرؤية – إذن – قاصرة على وصف ما يحيط بالطفل ويتصل به وهى – أيضًا – جزئية ، لأنها تتناول الطفل فى جزء من حياته الاقتصادية أو الإنسانية ، أو الروحية والنفسية .. لكن بإجمال وبمرور سريع لا يمنحنا رؤية شاملة لعالم الطفل ، وإطلاعنا على أهم مشكلاته النفسية والروحية .. ما الشعر الطالع من أرض الحداثة ، فينتمى للحساسية الجديدة ، التى تطل على كل الفنون والآداب . من هنا ، فهو يتعامل مع الطفولة على أنها ولادة جديدة . والطفل لدى شعراء هذه الحداثة يمثل التجدد الدائم للفعل والحلم .. من ثم كان الطفل قناعًا ورمزًا ، ويمثل حياة تستعاد من خلال التعبير عن الطفل أو به وهو يرتبط عند هؤلاء الشعراء بالحلم الأكبر ، وبالحياة الواعدة . إنه هنا هو المجتمع كله ، وأهم بناء للتركيبة الفاعلة .

وهو جزء من حركة الحياة ، لا تنفصل قضاياه عن قضايا الحياة .. فليس هناك طفل يتيم وآخر بائس ، وطفل جائع ، وآخر جاهل أو ضال فى طريق المدنية .. لأننا جميعًا يتامى وغرباء فى طريق الحياة . فالشاعر يعالج الطفولة من خلال تناوله لقضايا الأرض والوطن ، وللمصير .. والشعر – حينئذ – لا يميل إلى الانتقائية أو التجزيئية ، بل يتناول عالم الطفولة ، بشمولية وعمق من خلال المسار المتطور لحركة المجتمع المصرى والعربى والإنسانى وأيضًا من خلال الأفق الأوسع للرؤية الشعرية حيث صورة الطفل تتضح دائمًا من خلال أحداث الواقع العام سياسيا ونفسيًا واجتماعيًا ، وليس من خلال كونه كائنًا منقطع الصلة بواقعه ، وبمجتمعه ، وبكل ما يحيط حياته وعالمه الخاص من عوامل وأسباب .. فصورته فى إطار الرؤية الشمولية ، تنمو باطراد ناحية المجتمع المأمول ، وتحمل – ونحن نعالجها فى إطار الفن الشعرى – أكثر من دلالة عميقة ، وليست مشكلاته وقضاياه معزولة عن الظروف المكانية والزمانية كما أن واقعه ليس منبتًا عن قوانين الحياة ، وحركة الوجود والتطور والتقدم .. فالشاعر هنا يرحل فى واقع الحياة والناس والأشياء ، والطفل جزء من هذا الواقع .. والشاعر هناك ينتقى بعض القضايا والمشكلات ، ويسبح فى عالمها المحدود ، ولا يستطيع أن يطيق المغامرة فى واقع مجهول الهوية بحثًا عن عمق

الأشياء ، وانتقاء لتقوقع وانعزالية قضاياه ومشكلاته ، تلك التى تجعل الشاعر – البيتى – ينظر إلى جزء من الواقع ، وليس إلى الوقع كله .. أما شاعر الحداثة فإنه مولع بالمغامرة فى جوهر الأشياء .

وكلا الشاعرين – فى نهاية المطاف – مشدود إلى الطفل وعالمه ، باعتبار الطفولة مرتكز التقدم والنهضة ، وكلاهما مغمور بهذا العالم وخصوصياته .

لكن لكل واحد منهما إطلالته ذات الخصوصية الفنية ، التى يطل منها على عالم الطفل ، وذلك من خلال منهجه ، الفنى والانتقائى .. حيث الكلاسيكية والعمودية والقضايا المباشرة ذات التوجه الاجتماعى ، والمشكلات الحياتية المشتركة لدى الشاعر البيانى البيتى ، والنظرة الكونية المصيرية ذات التوجه الشمولى عند الشاعر المحدث ، بحساسيته المفرطة تجاه الأشياء ونحن حينما نفرق بين الشكلين : الكلاسيكى والمتحرر ، فإنما نضيف للأشكال الإبداعية التى تتناول عالم الطفولة ، وجهات نظر يستفيد منها « أدب الأطفال » ويغتنى بها ، وتثرى صوره ، ومعانيه ، وإيقاعه الموسيقى بهذه الإضافات ويمكن متابعة صور الطفولة عبر الرؤيتين ، وخلال مراحل الإبداع العربى وذلك فيما يلى :

أولاً : صور شعرية منتقاه عن عالم الطفولة برؤية شعراء قدامى :

(أ) حس أسرى مشترك :

للحطيئة شعر يصور المشاركة الإيجابية ، التى أظهرها أطفاله ، حينما أصروا شبحًا دل على ضيف وافد على أسرة عربية معدمة ، فقال قصيدة يصور تلك اللحظات وموقف أطفاله منه . ومن ضيفه المنتظر :

وطاوى ثلاث[1] عاصب البطن مرمل[2] . ببيداء[3] لـم يعرف لساكنهـا رسما[4]
أخى جفـوة[5]، فيـه من الأنس وحشـة يرى البـؤس فيها من شراسها نعمى
وأفـرد فى شعب[6] عجـوزا إزاءها ثلاثـة أشبـاح تخـالهم بُهما[7]

(١) أى مقيم ثلاث ليال على الطوى : أى الجوع .
(٢) المرمل : الذى نفد زاده .
(٣) صحراء .
(٤) رسم الدار ما كان من آثارها لاصقًا بالأرض .
(٥) الجفوة : الوحشة .
(٦) الشعب : الطريق فى الجبل .
(٧) جمع بهمة : الصغير من أولاد الضأن والمعز .

حفـــــاة عـراة اغتذوا خبز ملــة[1] ... ولا عرفـــوا للبر مـذ خلقـوا طعما
رأى شبحـا وسط الظـلام فراعـه ... فلمـا رأى ضيفـا تشمـر واهتمـا
فقـال هيـا ، رباه ، ضيف ولا قِرى ! ... بحقك لا تحرمـه تَا اللّيلةَ اللحمـا
فقـال ابنـه لمـا رآه بحيـرة ... أيـا أبت اذبحنى ويسـر لـه طعما
ولا تعتذر بالعـدْم علَّ الذى طَـرا ... يظـن لنـا ما لا فيوسعنـا ذمـا
فـروى قليـلا ثـم أحجـم برهـة ... وإن هـو لـم يذبح فتـاه فقد هما
فبينـاهما عنّت على البعـدعانـة ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما[2]
عطاشا تريـد المـاء فانساب نحوَها ... على أنّه منها إلـى دمهـا أظمـا
فأمهلهـا حتـى تـروى عِطاشهـا ... فأرسـل فيهـا مـن كنـانته سهما
فخـرّت نَحُـوص ذات جحش سمينـة ... قد اكتنزت شحمـا وقد طبقت لحما[3]
فيـا بشـره إذ جرهـا نحـو قومـه ... ويـا بشـرهم لمـا رأوا كَلْمَها يدمى
وباتـوا كـراما قد قضـوا حق ضيفهم ... ومـا غرمـوا غرمـا وقد غنموا غنما

ومن هذه القصيدة نرى حرص العربى على أن يغذى ابنه بطيب الخلال ، وينشئه أفضل التنشئة .

لقد عمل على أن يكون هذا الطفل من لدن نشأته الأولى حاملاً لصناته الطيبة الحسنة ، المتمثلة فى القوة والنشاط وإباء الضيم ، والاتصاف بالكرم والبذل ، والنهوض إلى نجدة المحتاج ، إلى آخر ما عرف عن العربى قبل الإسلام من صفات عظيمة ، تسمو نفوس أفاضل الناس إلى التمتع بها ، وخلال رائعة ، تمثل الجانب المضىء فى حياة العرب قبل الإسلام ، ذلك الدين القويم الذى جاء فازداد به العرب رفعة ، وأخلاقية ورشدا ، لما زودهم به من الكثير من أخلاقياته وسلوكياته ، وأفاضه عليهم من نبع نوره . ولدينا بعض النصوص الشعرية التى تبين لنا كيف كان العربى – متأثرًا بأصلِه الكريم وتنشئته التى تأبى البخل ، ومقتبسًا من هدى الإسلام – قد استطاع أن يغرس فى أبنائه الكرم ، ويبعدهم عن اللؤم وخبث النفس .

هذا هو الحطيئة ، الذى اشتهر كثيرًا بالهجاء والذم والشتيمة ، لم يشأ أن يأتى شعره خاليًا من الحديث عن الكرم العربى وجاء حديثه عن ذلك مناسبًا بدويته ، التى تأثر شعره

---

(١) مَة : الرماد الحار .
(٢) عنت : ظهرت . العانة : القطيع من حمر الوحش . المسحل : حمار الوحش .
(٣) النحوص : الناقة السمينة . الجحش : ولد الحمار . اكتنزت : امتلأت .

بها فى المفردات والصياغة . ومعلوم أن حياة البداوة تستتبع الحديث عن الكرم ـ والبشاشة لحلول الضيفان ، الذين لا تخلو منهم بادية أو صحراء ، وبخاصة فى الليل ، إذ يشعر المسافرون والمرتحلون بالسأم والنصب ، ويطمعون أن يجدوا من يؤويهم ليتقوا مخاطر الصحراء ، ويتجنبوا أهوالها التى لا تؤمن إذا ما لف الليل الكون بظلامه .

يصور الحطيئة أمر واحد من هؤلاء المسافرين ، فكأنا نراه ، وقد أخذ منه الإرهاق والجوع ، لأنه لم يذق طعامًا منذ ليال ثلاث ، بل إنك تحسبه قد صار مفارقًا لصفات الآدميين كأنما اعتاد البؤس ، وصار بالنسبة له النعمى التى يتمناها غيره من المترفين المنعمين . وليت الأمر قد اقتصر عليه وحده ! بل لقد خلف من ورائه عجوزًا جلست فى طريق بين الجبال ، وبجوارها أبناء ثلاثة ، كأنهم أشباح لما ذاقوا من الحرمان من الطعام ، وما أن يرى الحطيئة شبح القادم حتى يعبر عن المأزق الذى وقع فيه ، والمعضلة التى إليها صار ، يقول :

فقال : أيا رباه ، ضيف ولا قِرَى !   بحقك لا تحرمه تااللَّيلةَ اللّحْما !

ويأتى موقف ابنه ، من بعد ، لما رأى أباه ، وقد أدركته الحيرة لانعدام ما يقرى به الضيف لديه – يأتى هذا الموقف ، ليبهرنا ويزيدنا تعجبا ، لما فيه من إيثار – من قبل الابن – للذكر الجميل ودفع سبة ، واكتساب محمدة – على بقاء الحياة نفسها ، مع انتقاص الشرف وسوء الذكر ، ورمى بالمقابح ، التى يتبوأ البخل مقدمها ، طول الدهر ، وهذا يتضح من تبرير الابن لدعوته أباه أن يذبحه ، ويقدمه للضيف ، ليكون له طعامًا ! إنه حب للوالد وإيثار له ولسمعته وطيب سيرته أيضًا ! وهو لا شك مبنى على الإيمان بقيمة الكرم ، وحب الضيفان .

وربما كان الحطيئة فى تصويره استعداد ابنه لأن يضحى بحياته فى سبيل أن يقرى الضيف ، لئلا يحصه بالذم بعد أن يترك خيمته ظنًا منه أن لديه من المال والقرى ما بخل به ، وادخره لخاصة نفسه وأهله – ربما كان الحطيئة فى ذلك مبالغًا بعض المبالغة ، لكن أن يصدر عن الابن عرض بتضحية بنفسه فى سبيل أن يمتدح أبوه بالكرم ، ولو كان ذلك العرض على سبيل المزح ، أو مجرد كلام لم يكن كلا الاثنين يشك فى أنه لن يتحقق ، لأنه من الصعب ؛ فما عهد عن العرب ، حتى فى جاهليتهم شىء من ذلك – فإن ذلك الكلام من الابن يدل على مشاركته أباه فى الإحساس بصعوبة ألا يكرم الضيف ، وألا يقدم له ما يقيم أوده ، ويسد رمقه . وتلك شىء

لا شك فى روعته وجمال وقعه على النفس ! يقول الحطيئة فى تصوير جميل للموقف ، ينقل إلينا منظره مع ابنه فى حيوية ولغة نابضة :

فقــــال ابنـــــه لما رآه بحيرة   أيا ابت اذبحنى ويسر لهم طعما
ولا تعتــذر بالعُدْم عل الذى طـرا   يظــن لنــا مالا فيوسعنا ذمًّا
فــروى قليلاً ، ثـــم أحجم برهة   وإن هو لـم يذبح فتاه ، فقدهما

وبينما هم على تلك الحال إذ بقطيع من حمر الوحش يظهر على البعد ، ثم يتجه إلى الماء ليرتوى به ، وتزيل آثار الظمأ ، ويظل الحطيئة يراقبها ظامئا إلى دمها ، متعطشا إلى أن يصيب منها ما يكون طعاما لذلك الضيف ، وينفذ سهما من كنانته ليصيب أُتانا سمينة مكتنزة اللحم والشحم ، ثم إنه يجرها نحو خيمته لتكون طعامًا لذلك الضيف ، الذى صادفه رزقه ، وصاحبه قراه ، ليناسب ما كان من رغبة المضيف وحرصه على إكرام ضيفه ، يقول الحطيئة :

فيا بشره إذ جـرها نحـــو قـومــــه   ويـا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى !!
وباتوا كراما قـد قضــوا حـــق ضيفهم   وما غرموا غرما ، وقد غنموا غنما !!

إنها واحدة من القصص التى ضمنها أدبنا وشعرنا ، وواحدة من أسباب قول هذا الأدب وذاك الشعر . تصلح هى ومثيلاتها مادة خصبة ثرية لأبنائنا ، وبخاصة لما تتضمنه من مثل هذا الموقف النبيل من الابن ، الذى نطمع دائمًا أن يكون أبناؤنا وأطفالنا على مستواه ، ومتمثلين لمؤدياته ودوافعه ، وما يرمى إليه . إنه إلى جانب دلالته التى سبقت إشارتنا إليها يشير أيضا إلى مدى طاعة الابن لوالديه ، وعدم مقدرته على أن يتأبى على إرادة أو رغبة لهما . ولا يبعد أن يكون الحطيئة متأثرا فى تصويره موقف ابنه بقصة الفداء فى سيرة أبى الأنبياء إبراهيم ، عليه السلام ، عندما رأى فى منامه أنه يذبح ابنه اسماعيل . وهى أيضًا مما ينبغى ألا نحرم أبناءنا من الوقوف عليه . وها هو الحطيئة مرة أخرى يستنجد بأطفاله بطريق غير مباشر .. حيث يعتذر في مواجهة الحكم النقدى الذى صدر ضد شعره وقد هجا به « الزبرقان بن بدر » مخالفًا بذلك روح الإسلام وتعاليمه السمحة ، التى تنادى بالسلام الاجتماعى ، فقال قصيدة منها هذان البيتان :

مـاذا تقــول لأفــراخ بذى مرخ   حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهـم فـي قعـر مظلمة   فاغفر عليك سلام الله يـا عمر

فالبيتان من شعر الحطيئة ، الشاعر البدوى ، الذى مثل شعره جانبًا من جفاء البادية ، وغلظ طباع أهلها ، وكشف عن كثير من دخائل نفسه التى كانت تتوق غالبًا إلى الهجاء ،

واستعداء الآخرين ، وأبان عن سوء أخلاقه أحيانًا ، حيث كان يسب بشعر أقرب الناس إليه بل جيرانه والمتصلين به ، وبلغ به ذلك إلى هجاء نفسه وأمه ، والبيتان هذان جاءا ليمثلا جزءا من اعتذاره إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى ألقى به في السجن جزاء هجائه للزبرقان بن بدر وقومه . فلما طال به المقام داخله ، حن إلى أولاده الصغار ، واستشرفت نفسه رؤيتهم ، والقيام على أمرهم ، بعد أن ضيع على نفسه ذلك ، وأوقعها فى أزمة وإحساس بالذنب والتقصير تجاههم ، فجعل يستعطف الخليفة العادل متوسلاً إليه ، راجيًا أن يعفو عنه ، مستفيدًا من عرض حالة أبنائه (أطفاله) عليه ، مدركا أنه قد أتاه من حيث سيرق قلبه ، ليرحم هؤلاء الضعفاء ، شاعرًا بمدى تألم المسئول عنهم وعن كفالتهم لتقصيره فى أمرهم . وكيف لا ، وهو المسئول عن المؤمنين جميعًا أقوياء ، وضعافًا ، الكافل لهم – بعد الله – تهيئة الحياة والمعيشة الملائمة ؟ إنه يستفهم في البيت الأول مستعطفًا ، منكرا أن يجد عمر – رضى الله عنه – ما يقدمه عذرًا حرمان أطفال من عائلهم ، مهما يكن من أمر أو سبب لهذا الحرمان . وكأنه يقول له : لقد أدركت خطئى ، وعوقبت عليه ، وندمت ، ويكفى أن يكون ذلك عقوبة رادعة ، فلا تحرم أولادى منى بعد ذلك ، ثم هو حريص على تصوير ضعف هؤلاء الأطفال ، ليتخذ من هذا الضعف وسيلة نحو حريته .

فهم كأفراخ صغار لا خبرة لهم ، بالطيران لجلب أرزاقهم ، ضعاف عن أن يقوموا بأمر أنفسهم ، فهم (حمر الحواصل) وهذا يناسب المشبه به الذى هو (الأفراخ) .. وقد صورهم فى حالة من السذاجة ، التى معها لا يستطيعون القيام بأمر أنفسهم ، ورعاية شئون حياتهم .

(ب) أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض :

وها هو ذا شاعر آخر يتمنى أن يكون حرًا صعلوكًا يعايش الحيوانات والذئاب فى الفلوات والصحراء ... لولا أطفاله الذين هم بمثابة كبده تمشى على الأرض . . وشاعرنا : « حطان بن المعلى » يصور حاله ومسئوليته عن أطفاله فى قصيدة عن « الآباء وقيود الطفولة » يقول فيها :

أنزلنى الدهر على حكمه	من شامخ عال إلى خفض
وغالنى الدهر بوفر الغنى	فليس لى مال سوى عرضى
أبكانى الدهر ، ويا ربما	أضحكنى الدهر بما يرضى

لــــولا بنيـات كـزغب القطـــا رددن مـن بعـض إلـى بعـض
لكـــــان لـى مضطـرب واسـع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـــــا أولادنــــــا بيننا أكبــادنـا تمشى على الأرض
لــو هبت الـــريح على بعضهم لامتنعـت عينـى مــن الغمـض

هذا شاعر من شعرائنا القدامى ، قد رماه الدهر بما يكره ، وأنزله حيث لا يريد بل حيث قضى به هذا الدهر المتقلب ، الذى لا يؤمن أبدا ، فصار بعد أن كان رفيع المنزلة عالى القدر ، مخفوض المكانة ، مردودًا مدفوعًا ، لم يعد ذا مال ، ولا صاحب نشب ، لم يبق له سوى نقاء سيرته ، وشرفه فى نفسه ، وسلامة عرضه مما يدنس . لقد أبكاه الدهر وآلمه مما أصابه به ، وقل أن يرضيه ، فيضحك له ويهش . وكان فى ذلك الذى حل به عذر كاف له لأن يبرح الأرض التى هو حال بها ، ويغادرها إلى غيرها ، حسبما تهدى إلى ذلك النفوس الأبية ، والفطر التى مزجت بكراهة الضيم ، ورفض الإقامة حيث تكره النفس – لكن حال دون ذلك بنته الصغار اللائى عليهن يشفق ، ولهن ينصب ويكابد ، وبحالهن يرأف ويترفق . فهم ضعاف كريش القطا أول ما ينبت . وليس بعد ضعفه من ضعف كما أنهن كثيرات ، رددن من بعض إلى بعض ، فلأجل ذلك كانت حاجتهن إلى الرعاية أمس ، ويتبع الشاعر ذلك بتعليل طيب متبول منه جدًا ، وكلامه هذا مبنى على مسئولية اجتماعية تجاه الأطفال ، فأولادنا بيننا يمثلون أجزاء منا غالية علينا ، لا تنفصل عنا ، وإن كانت منفصلة شكلاً ، ومستقلة ... حسبما يتراءى للناظر ، فهم بمنزلة الأكباد من الآباء ، التى إن أصيبت أو نالها أذى أو مكروه تأثرت لها أجسام آبائهم أيما تأثر ... فالتزام الآباء تجاه الأبناء فى التربية والرعاية واختيار الأصلح ، أمر تعلنه الفطرة ، وتحض عليه الأديان والأعراف ... وفى هذا تأكيد على التواصل .

(جـ) أبوة راثية وطفولة راحلة :

عرف ابن الرومى بنزعته التشاؤمية ، التى تدل على تعمقه دخيلة نفسه ، وتصويره هواجسها وأحاسيسها . ولا شك أن ذلك قد انعكس بوضوح على شعره ، إذ إنه مرآة صادقة لتصوير شخصية الشاعر وإحساساته وصراعاته النفسية . وواحد كابن الرومى قادر على أن يسجل انفعالاته بالأحداث ، وبخاصة ما يوقعه منها تحت وطأته ، تسجيلاً يكشف لنا عن أبعادها ، ويفصل لنا آثارها ، كما لا يقدر غيره .

إنه فى قصيدته التى يرثى فيها ابنه الأوسط يبين لنا أن موت هذا الابن كان له وقع الصاعقة على نفسه ، لأن مماثلاً لبعض أجزاء جسمه قد فقد ، فجعلت عيناه تذرفان الدمع سخنًا ، مما يجلب للنفس شفاء من تلك الكارثة التى حاقت به ، لكن دونما تطهير كامل من آثارها الغائرة فى النفس ، فلتذرفا الدمع دونما بخل لأن مثيلهما قد تخطفته يد المنون ، التى تمتد غاشمة فتحطم نفسًا عزيزة :

ما هذه المنايا ؟ تَبًّا لها وسُحْقًا ؛ فإنها تقصد قصدا إلى حبات القلوب لتصيبها فى مقتل . إننى أعجب لهذا الموت الذى تخير أوسط صبيتى ليختطفه منى ، على حين أنى كنت أعلق آمالاً عليه ، وأبصر الخير فى نظراته ، وألمس التعقل فى أفعاله . قد استحوذ عليه الهلاك ، فأبعده عنى فصار مزاره بعيدًا عنى وإن كان يبدو قريبًا لكنه مفقود .

ولكأنما المنايا قد أنفذت وعيدها التى قطعت على نفسها أن تترك به وبى آثارها ، فكانت لها الغلبة على وعود الآمال التى كانت تراودنى بشأنه ، لكنها لم تر إلى التحقق سبيلاً ، ولم تبصر بعد موعدها .

ما أقل وأقصر المدة التى لبثها حيًا ، فكأنه ما يزال ذاكرًا عهد المهد حالة إيداله اللحد . لقد نزف دمه ، حتى استحال لونه إلى الصفرة بعد أن كان صحيحًا معافى ، وذوى جسده وذبل ، وزهقت روحه بعد أن لم يستطع أحد أن يعيد إليه عافيته : فيا ألمى على هذا الابن الذى كان هلاكه كهلاك أنفس متعددة ، تتساقط كل منها من عقد قد انفرطت حبّاته ! وإنى لأعجب من قلبى كيف لم ينشق لموته ، وإن كنت قادرًا على تحمل المشاق والصبر عليها ، لكن الأبوة أعجز أمام الطفولة .

وإنى لغير مسرور ، وإن كنت قد أثبت لفقد هذا الإبن العزيز على النفس ، وإن كان هذا الثواب هو التخليد فى الجنة ! فإنى غير راض أن أبيعه بهذا الثواب ، وما كان ذلك عن رضى منى ، بل كان غصبا ، وما أحد قادرًا على الإعانة على ظلم حوادث الدهر ، وغَبْنها أمثالى فى أبنائهم وأشيائهم !! وقد تحمل الشاعر كل الحوادث ما عدا لاجعة الدهر فى الأبناء .

وليس لى عن هذا الابن الأوسط غنى ، مهما كانت متعتى بابنَى الآخرين بعده ، وإنى — كذلك — لمتعلق به ، ذاكر إياه ما دامت نِيَاق نجد مُصْدِرَة أصواتها حنينا إلى أبنائها . وكيف لا ، وأولادنا مثل الجوارح تمامًا بتمام ، فمن نفقده منهم فإن فقده يكون مؤلمًا ظاهر الأثر ، محدثًا لخلل لا يسده وجود غيره من الأبناء ، ولا يجدى عنه

التعزى أو التصبر . إن العين لا تكفى ، ولا تغنى وحدها بعد فقد السمع وكذلك العكس صحيح ، إذ السمع لا يهدى كما تهدى العين . وهكذا استحالت أمورى وتغيرت حقًا بعد فقده ، فليتنى أعرف كيف صار به الحال الآن بعد تركه عالمنا ! وليست مقولتى هذه إلا حقيقة ، فلقد فقدت سرورى جميعه يوم فقدى هذا الابن ، بل لقد صرت زاهدًا فى لذات العيش !

ما شأنك أيها الابن العزيز على النفس الآن ؟ فهل تغيرت عن عهدى بك يا مَنْ ملكتَ على حواس البصر والشم والمذاق ؟

لسوف أهْرِيق لفقدك ماء عينىّ ، ما جادتا به ، وأعانتانى على تقدمته ، علّه يبعث على بعض السلوى عنك ، وإن كنت موقنا من أن ذلك لن يفيد كما ينبغى . لم لا تسعفاننى يا عينى ، ولم لا تجودان بأقل مما قدمته ليشمله الثرى فى طياته .

لكأنما ذهبت حياتك سريعة سرعة لا أذكر بسببها أى متعة لى بك أيها الابن كما يتمتع الآباء بأبنائهم ، بشم ، أو ضم ، فى مهد ، أو فى ملعب . إنهم يلومونني على ما أبدى عليك من الحسرة ، وآثار الألم ، ومظاهر الجزع ، والحق أنى أخفى فى نفسى من ذلك كله أضعاف ما أبديه !!

لقد سدت على طرق التسلى عنك ، وأغلقت دونى سبل نسيان ذاكراك التى تلحف على ، فما من شىء أظن فيه السلوى عنك يا محمد » — يقصد ابنه الفقيد — إلا كان سببًا فى زيادة وجد قلبى واضطرابه لذكرى فقدك ! ولقد صار أخواك الباقيان كلاهما أكثر بعثًا للأحزان عليك ، وتجديدًا لتذكرك من أى شىء آخر ، فهما يقدحان لى الألم لذلك ، كما يقدح الزند النيران !! وهما لا يقصدان أن يحدثا فى نفسى هذا الأثر المرعب إذا ما لعبا فى ملعب لك ، بل يكون ذلك دونما إرادة منهما له وهكذا يصبحان غير باعثين على التسلى عنك والنسيان لفجيعتى منك ، بل حرارة يوقدانها لأشقى . صرت إلى مكان مخيف للإنسان ، ولكنك حلقتنى بدار الأنس فأنا فيها فى وحشة ، وغربة ، لا تقل عن وحشتك !!

أبعث إليك يا بنى بسلام الله تحية منى إليك ومن كل غيث منسجم غزير كثير برقه ورعده !

إنها قصيدة تقطر أسى ، وتنبض بمشاعر الحزن الذى اعتصر قلب شاعرنا الذى هو أكثر الناس مقدرة على تصوير عاطفة الأبوة ، وتصوير إحساس والد تجاه نكبة الأيام

فى ابنه . وإنه بهذه القصيدة يقدم صورة صادقة لإحساس الآباء بأبنائهم ، ومدى انشغالهم بهم ، وحدبهم عليهم ، وكون كل منهم لا يغنى عن الآخر ولا يسد مسده ، بل هم كما قالت المرأة العربية قديمًا – فاطمة بنت الخرشب الأنمارية – كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . ولشد ما تمس الحاجة إلى أن يعتقد الآباء ذلك ، ويحسوا به بصدق ، ولا شك أن الآباء ، أو كثيرًا منهم ، يحسون بذلك ، لكن الكثيرين فى حاجة إلى العمل على أساس منه .

ونلاحظ على هذه القصيدة :

١ – الإلحاح على تصوير الابن قطعة أو بضعة من الجسم أو جارحة عنه لا تغنى واحدة منها عن الأخرى .

٢ – بيان تعلق الأب بابنه تعلقًا ما بعده تعلق ، حتى إن نفسه تفطرت ، عدما أنزلت بهما المنايا وعيدها ، وبعد أن أرهقه المرض والنزف .

٣ – بيان أن الأب سيظل وفيا لابنه ذاكرًا له ، حتى إن ابنيه الباقيين لن يحسياه فقيده بل سيذكيان لديه لهيب ذكراه والأسى عليه .

٤ – غلبة الأسى والجزع على شاعرنا ، وميله إلى الحزن والتشاؤم .

يتضح ذلك من اتخاذه أسباب التأسى والتصبر أسبابا للجزع والذكرى الأليمة ، كما فى جعله من بنيه الباقين سببا فى تجديد أحزانه . لأنهما يبعثان عنده الحزن على الراحل . إنها قصيدة تمتزج فيها العاطفة الخالصة الصادقة النابعة من تجربة ، حدثت لشاعر حساس ، مرهف – أقول تمتزج العاطفة فيها بالعقل والفلسفة ، والتماس اسباب لتدفق هذه العواطف الأليمة المؤثرة . تلمس ذلك فى قوله :

وإنى وإن متعت بابنى بعده ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد
وأولادنه مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه من جذوع، ولاجد

فلم يظل ذاكرًا ابنه هذا ؟ إن سر ذلك أنه لا يغنى عن ابن أخوه ؛ لأن الأبناء كالجوارح . لا تغنى واحدة منها عن غيرها .. وهكذا ويستمر محللا وموضحا فى إطناب ، وكأنه بذلك يقدم التعلات للوم الناس له لما يظهر من الأسى والحزن ، كما ذكر من بعد :

ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى !

ولا يفوت أن ننبه إلى تصوير الشاعر ترصد المنايا وتربصها بابنه ، وهو – لا شك يصور مدى إحساسه بافقد لحظة ، تلو لحظة ، فهو حريص على رسم لوحة تبدى أحاسيسه الداخلية تجاه رؤيته ابنه ، وهو يتراجع القهقرى أمام مهاجمة المنايا له ، فيدفع ذلك بأبيه إلى مهاوى الألم لينحدر من واحدة منها إلى الأخرى . اقرأ :

ألـحّ عليـــه النزف حتى أحالـــه　　　إلى صفرة الجادىّ عن حمرة الورد

وكذا :

وظل على الأيـدى تَسَاقَطُ نفســه　　　ويذوى كما يذوى القضيب من الرّند

انظر إلى ما يدل عليه المضارع من التجدد والاستمرار ..
وبعد البيت يقول : فيالك من نفس تساقط أنفسا ...

وليس يصعب عليك بعدئذ أن تلمس الصور الجزئية والكلية التى رسمها الشاعر ، فى اقتدار ، ليبين عن طريقها استمساكه بابنه ، وحرصه على حياته ، التى كلفه فقدها بقاءه حزينا ، لايدفع عنه من حزنه لذة من لذات العيش أيا كانت ، وكأنه قد صادف حزنه وتشاؤمه الذى عرف به ، ما يجعله سائرًا دائمًا على درب هذا الحزن والتشاؤم ، أو ما يقدم . له التبرير لهذا المذهب الذى عرف به .

وهذا الحزن الذى ينتقل بالرثاء من مستوى الإبداع الفنى للشعر ، إلى مستوى العذاب العاطفى ، والألم النفسى لفقدان الأولاد الصغار راجع – فوق طبيعته الفطرية – إلى تعاليم الإسلام ، الذى جعل الأبناء زينة الحياة الدنيا ومصدرًا للسعادة ، وأضحى الصغار قرة أعين بدلاً من وأدهم ، والتخلص منهم .. فرثاء الابن هنا تعبير عن تحول عواطف الأباء ، من عاطفة الخوف منهم والتخلص لذلك من أعبائهم ، إلى عاطفة الخوف عليهم ، والحزن لفقدهم .. وفى هذا دعم للوجود البشرى ، وإعطاء الحياة معنى من معانى التأكيد على التواصل الإنسانى .. وإليك القصيدة :

بكـاؤكما يشفى وإن كـــان لايجـدى　　　فجودا ، فقد أودى نظيركمـا عندى[1]

(١) فى قوله « بكاؤكما » خطاب لعينيه ، لا يجدى : لا ينفع . أودى : مات . يقول مخاطبًا عينيه : إن بكاءكما يخفف من وطأة الأسى وإنه لا يجديه فى إعادة ابنه إليه ثم يشبه ابنه فى الشطر الثانى بمثل عينيه فى المعزة له والحرص عليه .

ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد[1]

توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فللّه كيف اختار واسطة العقد[2]

على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد[3]

طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيدًا على قرب قريبًا على بعد[4]

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد[5]

ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد[6]

وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند[7]

فيالك من نفس تساقط أنفسا ... تساقط در من نظام بلا عقد[8]

عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد[9]

وما سرنى أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد[10]

ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد[11]

---

(١) حبات جمع حبة : وحبة القلب هنة سوداء تتوسطه عمد : قصد ، يلعن الشاعر الموت الذى يتعمد الأذى فيصيب الناس بحبات قلوبهم أى بمن يحبونه ويؤثرونه غاية الإيثار .

(٢) توخى : طلب واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة التى تتوسطه . م : يعجب من أختيار الموت لأبنه الأوسط فكأنه اختار به واسطة عقده .

(٣) على حين : ظرف مبنى على الفتح فى محل جر ، بعلى وحين تبنى إذا أضيفت إلى فعل مبنى وتعرب إذا أضيفت إلى معرب . شمت : توقعت . آنست : علمت وعرفت . الآية : العلامة . م : أى أن الموت غتاله عنه بعد أن أنس به وأخذت تظهر منه أمارات الرشد والذكاء .

(٤) م : تطغى على هذا البيت النزعة البديعية، إذ يقول الشاعر إن ابنه الميت، غدا بعيدًا عنه ، الرغم من أن قبره قريب منه .

(٥) لبثه : مكوثه .

(٦) الجادى : الزعفران .

وتلخيص المعنى ، أن نزف الدم كثر عليه أحال لونه الورد إلى إصفرار الزعفران .

(٧) الرند : النار . م : يمثل فى هذا البيت احتضار ابنه ، وحملهم له على أيديهم ، دون أن يجح ذلك فى إعادة العافية إليه ، بإنه ظل يذوى كقضيب النار .

(٨) م : يقول إن ولده تلاشى فكانت نفسه مجزاة تتساقط كالدر من سلك غير معقود .

(٩) ينفطر : ينشق : الصلد : االصلب . م : يعجب الشاعر أن يفجع بابنه دون أن يموت لموته ، ومثل هذه الخسارة حرية أن تتشقق لها أكباد الصخور .

(١٠) لتخليد : البقاء أبدا. م : أى أن الشاعر لا يتعزى عن موت ولده حتى ولو جوزى بالخلود فى جنة النعيم .

(١١) غصبته : أخذ منى غصبا ، المعد اسم فاعل من أعدى فلانا على فلان ، أى أعانة وقواه . م :ز يقول إنه لم يتخل من ولده بإرادته ، بل إن الموت أخذه منه قسرا . ولا قبل للمرء بصد أحداث الدهر .

وإنـــى وإن متعت يـــا بنـى بعـــــــده ... لذاكـــره مـــا حنت النيب فـــى نجد[١]
وأولادنـــا مثـــل الجـــــوارح أيهـــا ... فقدنــــاه ، كـان الفاجـع البين الفقده[٢]
لكـــل مكـــان لا يسد اختـلالـــــه ... مكـان أخيه مـــن جزوع ولا جلـد[٣]
هـــل العـــين بعد السمـــع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى[٤]
لعمـرى لقد حـــالت بى الحـــال بعـده ... فياليت شعرى كيف حـالى بـه بعدى[٥]
ثكلت ســرورى كلـــه ، إذ ثكلتــــه ... وأصبحت فـى لـذات عيشى أخازهد[٦]
أريحـــــانة العينين والأنف والحشــــا ... ألا ليت شعرى كيف حالت به بعدى[٧]
سأسقيك مــــاء العين مـا أسعدت بـه ... وإن كانت السقيا من العين لا تجدى[٨]
أعينى جــــودا لــى لقد جـدت للثـرى ... بأنفس ممـــا تسألان مـــن الــــــرفد[٩]
كأنـــــى مـــا استمتعت منك بضمـــة ... ولاشمّة فى ملعب لك أو مهــــد[١٠]
ألام لمـــــا أبـــدى عليـك مـن الأسـى ... وإنى لأخفى منك أضعـاف ما ابدى[١١]
محمــد مـــــا شىء تـوهـــم سلـوة ... لقلبى ، إلا زاد قلبى مـن الـــوجـد[١٢]

والشاعر بعد أن شخص إحساسه اليائس الحزين ، وشعوره الباكى ، انتقل إلى إخوته الباقين ، ليعلن أنهما – وهذا شأن الأبناء – لا يبعثان على سلوة الراحلين من الأبناء

---

(١) النيب : جمع ناب وهي الناقة المسنة . م : أى أنه لن ينساه ولن يتعزى بابنيه الباقين ، أبد الدهر ، أى مادمت النياق تبعث أصواتها حنينا وتشوقا .

(٢) الجوارح : أعضاء الإنسان كالعين والأذن . م : يمثل ابن الرومى ابناءه بمثل أعضاء الإنسان ، فهو يشعر بفقد ما يخسره منها أكثر من سواه .

(٣) الجزوع: الفاقد الصبر. م: يقول أيا ماكان المرء ، فإنه يعجز عن التعزى بحاجة عن أخرى وبالولد عن أخيه .

(٤) الضمير فى مكانه يعود على السمع .

(٥) حالت بى الحال : تغيرت . م : يتساءل الشاعر بجزع عما حل بابنه بعد الموت ، ويقول إنه عرف بعد فقده شتى أنواع العذاب .

(٦) ثكلت : فقدت . م يقول : إنه فقد سروره إذ فقده ، وغدا زاهدا فى كل أطايب العيش .

(٧) م – يجمع ابن الرومى فى هذا البيت ثلاث حواس : البصر والشم والمذاق فى تمثيل طيب ابنه وسعادته به عندما كان حيا .

(٨) أسعدت بالدمع: ساعدت وأعانت به. م–أى أنه يذرف الدمع على ابنه، وإن كان ذلك لايجديه ولايرده إليه.

(٩) الرفد : الجود والعطاء . م – يستنزف الدمع من عينيه لابنه الذى وهبه للثرى .

(١٠) « : يتحسر على فراقه وما كان يناله منه من ضم وشم وهو يلعب فى ملعبه أو ينام فى مهده .

(١١) « : يلومنى الناس لتفجعى عليك ، وإن ما اضمره لك من عذاب هو أضعاف ما ابديه .

(١٢) « : إن السلو عنك ، وكل ما أتوهم أنه قادر على تمكين النسيان فى نفسى ، إنما يزيد فى إشعال حرائق قلبى ، تذكيرا بك ، وشوقا إليك . .

وبخاصة الأطفال .. بل إن بقاءهما دافع أكبر لمزيد من الانفعال وتجدد الأحزان والإحساس بالفقدان .

أرى أخويك الباقيين كليهما | يكونان للحزن أورى من الزند[1]
إذا لعبا في ملعب لك لذعا | فؤادي ، بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة ، بل حرارة | يهيجانها دوني ، وأشقى بها وحدي[2]
وأنت وإن أفردت في دار وحشة | فإني بدار الأنس في وحشة الفرد[3]
عليك سلام الله مني تحية | ومن كل غيث صادق البرق والرعد[4]

فالشاعر ينظر حول واقعه بفقدان طفله ، فيثيره الفقدان ، ويجسد الموت ، وهو يحاصر هذا الطفل فينتزع منه الحياة دفقة دفقة ، فيتأمل في أعماقه ، ويعبر عن هذا في رثائه الذي لا يملك إلا كلماته تعبيرًا عن فقدان الأحباب وبخاصة الأبناء والشاعر وهو الأب لايتقيد بما يملي عليه الفكر والعقلانية .

وإنما يرسم لنفسه خطا معنّى من الحزن العفوى .. لأنه يعكس ذاته ، وذات كل الآباء ويصور الانفعال الانسانى الأصيل .

ثانيًا : صورة الطفل فى الشعر العمودى الحديث :

(أ) خلال رؤية ذاتية حانية :

ولابد لنا هنا أولا أن نقدم بعض ما كتبه غير شوقى من الشعراء العموديين مما يتصل بالطفل وحياته ، واهتمام الكبار به ، وسعادتهم لسعادته ، وحزنهم لحزنه . لا شك أن الآباء جميعًا ينعمون بهذا الشعور ، إلا من تبلد إحساسه وانعدمت لديه المسئولية ، وفقد من الأبوة أعظم المعانى وأجلها . ولقد رأينا كيف تجلى ذلك عند شوقى فى بعض شعره الذى قدمنا .

---

(١) أروى : أكثر إيقادا وإشعالا . الزند : حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فتقدح النار م : يقول فى هذه الأبيات : أن كل ما يتوهم الناس لى فيه عزاء يزيدنى بؤسا فأخواك وهما يلعبان ، حيث كنت تلعب يزيدان عذابى ويقدحان فى نفسى نارا لا تنطفىء .

(٢) م : فهما لا يعزيانني ، بل يثيران نار الوجدان والعذاب .

(٣) يقول لابنه : إنه إذا ما وقع فى القبر الموحش ، وحيدًا فإنه أخ ابن الرومى ، يعانى مثل وحشته وإن كان حيا فى دار الأنس .

(٤) م : يستنزل به فى النهاية الغيث . على عادة الجاهلين فى الرثا .

ونقدم لك هنا قصائد ثلاثا تمثل أولاها عاطفة الأبوة ، وحنو أب على ابنه وتحمله المشاق من أجله ، وهى للشاعر عدنان مردم . أما القصيدة الثانية فإنها تعرض علينا ملاحظة أب لابنته ، وهى تلهو فى الحديقة مع كلبها وتلعب ، وتبين أثر ذلك عليه . وهذه للشاعر جورج صيدح .

وفيما بعد سنقدم قصيدة للشاعر يوسف بشير التيجانى عن « طفل الخلوة » ذلك الذى يتلقى القرآن ليحفظه فى « الخلوة » السودانية ، والتى تقابل ما يعرف لدينا بـ « الكتاب »[1] .

(١) قصيدة « ولدى » لعدنان مردم

أرعــــاك بالقلب الذى ... لك عنـــده مـا يُؤْثر
وأراك بـالعيـــن التـى ... بـك تستنير وتُبصـــر
وأقيك عاديـــة الأذى ... ممـا تَخـــاف وتَحذر
ولدى وأنت على الزمـان ... لـى السـراج النـيِّرُ
لك من حنـانى ما يضيق ... الوصف عنـه ويُقصر
أُخفى هـــواك محـاولا ... كتمــان مـا أنـا أستر
فينم دمعى بالـــذى ... كتم اللســان ويُجبر
أيعيبنى مـا رحـت أبدى ... مـن هـواك وأظهـر
وبـك المـنى صافحتهـا ... وبلغت مـا أتصـور
لمـا هششت مصفقـا ... وعطفت نحـوى تنظر
أيقظت مـلء أضـالعى ... فِتـن المنـى تتسـعر
وهــززت منى خافقا ... مـن رحمـة يتقطر
وأسلت من عينى الحنان ... مدامعـاً تتحـدر
أجد الحيـاة على القذى ... بك تستطـب وتـؤثر
ومعـــاتب متطفــل ... فيمـا يُشير ويـأمـر
تخـذ النصيحـةَ للأذى ... سببًا فـــراح يُشَهِرَّ

---

(١) فى كتاب : الشعر العربى المعاصر للدكتور الطاهر مكى ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٤ ، ٢٠١ .

فعذرتـــه مـــن رحمـــة إن الأبـــوة تَعـــذر
ولدى وهـــل شىءٌ أعز على منك وأكثـــر ؟ !
والكـــون أنت وماسواك زيـــــادةٌ لا تُذكـر
يصفو الزمانُ إذا ابتسمت بناظـــــرى ويُثمر
وإذا شكـــوت فكل مـا حـــولـى جديب مُقْفر
تحلـــوا لسمـاء ببدرها للنـــاظـريـن وتسحـر
ولأنت مـــن بـدرا لدجى أبهـى وعندى أنـــورُ

إن المقطع الأول من القصيدة يتناول واجبات الأب تجاه ابنه ، فهو يرعاه حريصًا عليه ، شاغلاً قلبه بالاهتمام بما يصلحه ، وينظر إليه بعينى الرأفة والشفقة نظرة الذى لا يبصر إلا بابنه ، ولا تشرق الدنيا أمام عينيه إلا عندما يرى هذا الابن على خير حال . إن لدى لهذا الابن العزيز مالا يحيط به الوصف من الحنان ، وما يقصر عن تصويره الكلام . وهو يغالب إظهار حبه العارم له فى غير ما مقدرة على ذلك ، إذ يفضحه دمعه ، فيظهر ما لم يتلفظ به لسانه .

وما يلبث أن يعلل ذلك ، ويبين للناس ما كان يخفى . وليس ذلك عيبا ، إذ كيف لا يفعل ذلك ، وقد كان ابنه المرقاة لنيل الأمنيات ، ومصافحة كل ما أمل من غايات ؟ ! والمقطع الثانى من القصيدة يتناول « سعادة الأب لمستقبل ابنه الواعد » .. إنه – أى الأب – تنبعث فى قرارة نفسه الأمنيات المتوثبة ، فتستولى على كيانه ، إذا ما صفق ابنه فرحا ، فى إقبال عليه ، وتحول نحوه ببصره واهتمامه . بل إن قلبه ليخفق مهتزا ، وقد أخذته الرحمة بالابن الحبيب ، وفاض من الحنان ، كأنه الدمع ينحدر من العينين . إن الحياة لطيبة بهذا الابن ومفضلة مهما يكن بها من منغصات ومضايقات ، كأنها القذى فى العين . وربما عتب على فى ذلك (متطفل) فراح يشهد بما أبديه نحو ولدى من حب وحنان ومودة لكننى لا أملك لمثل هذا المتطفل إلا أن أعذره ، لأنى إنما أعمل ما تقضى به عاطفة الأبوة .

أما المقطع الثالث من القصيدة فإنه يتناول « منزلة الابن عند الأب الشفيق » . إنه ينادى ابنه ليعلمه أن ليس شىء عنده أعز منه . فهو الكون كله ، وماعداه لا شىء عند أبيه . إنه هو الزمان أيضا ، إذا ابتسم صفت الأيام وحملت معها البشر والسعادة ، وإذا اشتكى صار كل ما حول الأب مجدبًا قفرا ، وإن كان على غير تلك الحال فى حقيقة الأمر .

ويأتى البيتان الأخيران ليمثلا لنا فكرة « الابن ينير سبل الحياة لوالده » .

وربما صح أن نجعهما يندرجان تحت الفكرة السابقة . ولك أن تتوقف عند هذا التشبيه الذى يفضل فيه المشبه المشبه به . وما ذلك إلا لتعلق الأب بولده وحرصه عليه ، وعلى إعداده الإعداد الصالح ، الذى يجعله نعم الامتداد له فى هذه الحياة التى أحبها من أجله ، وحرص عليه ، وعلى إعداده الصالح ، الذى يجعله نعم الامتداد له فى هذه الحياة التى أحبها من أجله ، وحرص على الإفادة من معطياتها كى يسعد ابنه .

(٢) فى الحديقة لجورج صيدح

ابنتى مع كلبها تلعب ... فى رحب الحديقة
أمها غابت فهذى ... فرصة البنت الطليقة
خالفت فى دوسها ... العشبَ المراسيمَ الوثيقة
ولوت أعناقَ أغصانِ ... الشُّجَيْرات الأنيقة
مورقات ، أصبحت ... أرجوحة اللهو الطليقة
رشرشتها بسخاء ... ترك العطشى غريقة
من رآها ظنها ... تطفىء بالنار حريقة
كم ورد هاجمته ... وهى للورد شقيقة
وكنار داعبته ... خنق الضَّغطُ شهيقة
كلبُها المسئولُ عنها ... قَلِقٌ يلمع ريقه
خائف عاقبة الطيش ... على رِدْف الرفيقة
أتغاضى ، وعيونى ... لم تفارقها دقيقة
وأنا فى مقعدى ... أسعد حى فى الخليقة
خلف منظارى توارت ... دمعةُ الشكرِ الرقيقة
دمعة أفرغت الأحلام ... فى جِفن الحقيقة
دمعةٌ تُغَسل أوزا ... ر الصبابات العتيقة
دمَعةٌ تَستعطف الدهر ... وتستندى صفيقه
ليته يجمع عمرى ... فى سويعات الحديقة

إن ابنته تلهو فى الحديقة ، ومعها كلبها ، بعد أن غابت أمها ، فكانت أمامها الفرصة المتاحة للعبث كما تشاء فلقد داست الحشائش مخالفة ما تعلمته من ضرورة المحافظة عليها ، وجعلت أغصان الشجيرات أرجوحة لها ، حتى غدت مقطعة ممزقة ملقاة على الأرض وربما ظنت أنها تحسن صنعا أو أنها تطفىء لهبا ، واحق أنها تفعل العكس . لقد هاجمت الورد الذى هى شبيهته ، فخنقته وبينما هى مرح هكذا جعل كلبها يلاحظها ، وكأنه مشفق عليها أن يصيبها أذى لكثرة حركتها ووثبها . وقد كنت أنا أيضًا ألاحظها ، وأنا جالس فى مقعدى ، تغمرنى السعادة لبالغة لما هى فيه من مرح وسرور . وأتغاضى عما تفعل ، فى غير ما غفلة عنها ، أو انشغال عن أن أتابعها بنظرات عينى . وقد جعل ذلك المشهد دمعة الشكر تنحدر من عينى متوارية خلف منظارى . إنها دمعة تحقق الحلم وتجسده على أرض الواقع ، متمثلاً أمام عينى صاحبه وتشخص أمامه نعمة الله علينا بالطفولة وهى دمعة تزيل ما كان من أوزار وآثار نزوات وتستعطف الدهر ليتخلى عن جفائه ، ويدع جانبًا ما يفجأ الناس به من النوازل . إنها ساعات طيبة تروق كل أب فليت عمرى كله كان منحصرا فيها .

(ب) خلال رؤية اجتماعية متعاطفة : يبدو لى أن الشاعر العمودى ، قد وجد ضالته فى الطفل ، وهو يحاول رسم صور المجتمع ، ويشتاق إلى نهضته حيث طفل المستقبل ، عن طريق تربيته ، وتنشئته ولأخذ بيده ، والتعبير عن عالمه ، بفن شعرى صادق الدلالة على الطفل وطموحاته ، أن يضع بالنظام الأخلاقى الذى يلقاه عبر الأدب تعبيرًا عنه أوله الأساس الحضارى للمجتمع القادم ، وأن تبنى نظرته على أساس من إفرازات وجدانه وعطاء ضميره .

ومع « أدب الطفل » ، الذى يمكن أن يكون بالشعر أكثر امتلاء بمشاعر الطفولة ، يستطيع المجتمع أن يلتقى مع طفولته لقاء مثمرا ، وأن يجعله الأدب بعامة ، والشعر بخاصة ، يخوض كل التجارب الفردية والاجتماعية ، ليتحصن بالتجربة والخبرة النازعتين إلى التقدم والازدهار ، ومن هذا نستطيع أن نلتقى فى الشعر العمودى بأكثر من محور ، ليتحقق ثراء تجاربنا عن الطفولة ، ومن ثم عن المجتمع ، وعن الإنسانية جمعاء ، وها هو ذا الشعر العمودى يتحدث إلينا عن الأطفال من خلال المحاور التالية :

١ – الطفل والتربية :

الطفل هو صورة المجتمع ... فالمجتمع السعيد ابن طفولة سعيدة[1] ، والمجتمع الشقى البائس ابن طفولة شقية بائسة ، كما أن الطفولة فى شقائها وبؤسها وسعادتها وفرحها قضية من قضايا المجتمع . وطفولتنا فى « مصر » و « العالم العربى » ، فى معظمها يلاحظ أنها تعانى الاضطهاد والحرمان والإهمال ، فضلاً عن اليتم والقهر والقيام بالأعمال الشاقة ، التى هى عبء فوق كاهل الطفولة ، بل إن كثيرًا من الأطفال يؤدون دور رب الأسرة ، ومصدر إعانة لآبائهم وأمهاتهم ، وهى فى كثير من المواقع المصدر الاقتصادى الوحيد الذى تعتمد عليه أسرهم . وطفلنا المصرى والعربى أقل حظا ومتعا وقيمة من غيره ، وهذا يعود إلى الفقر والاستغلال والاستعمار ، وضياع الأرض ونهب الثروات ، وتحويلها إلى مصادر قوة وتنمية وتقدم لمجتمعات الغرب وأمريكا ، ليصبح الواقع مليئًا بالتناقضات بين واقع الطفل الأوربى الأمريكى ، وسعادته بأنظمة عادلة تسهر على إسعاده ، ورعايته ، وواقع مصرى عربى إفريقى تكرس أنظمته لاستنزاف الأبوة ، والوقوع تحت طائلة القهر والإرهاب والاستبداد ، وشقاء الطفولة ، بأنظمة لاهية عن الأطفال ، بل وعن الكبار .. حتى إن الأسرة فى كثير من المواقع تعيش مدة شهر بما يعادل ثمن حليب لطفل أوربى .. والمطلوب من الآباء والمعلمين وهم يقدمون هذا اللون من « أدب الأطفال » أن يزرعوا الأمل فى قلوب أطفالنا ، وأن يؤكدوا على عظمة طفولتنا وهى تقاسى وتعانى ، وتعبر من أجل غد أفضل . وها هو ذا الشاعر العراقى : « معروف الرصافى » يقدم لنا خلال قصيدته : « تربية الطفل » صورًا من الإهمال الذى يعانيه أطفالنا .. حيث التربية هى الاهتمام بالطفولة ، باعتبارها بنية المجتمع السليم ، وأساس المستقبل الواعد والحافل بشتى ألوان الترف والنعيم والتقدم والازدهار .

إن الشاعر ، قد اكتشف بصدق عالم الطفولة الفقيرة الذى صنعه المجتمع بيديه ، وقد صور شاعرنا المعاناة التى يعيشها هذا العالم الفقير البائس ، الذى يحتاج منا إلى لفتة تربوية ، وحضارية ، تعيد للبناء الاجتماعى قوة تماسكه ، وصلابة لبناته إننا فى حاجة ، إلى تجاوز هذه الإهانة الموجهة لأطفالنا .. حيث البؤس ، والشقاء ، وسوء التربية وإزاء هذا . فإننا مطالبون ، بأن نستبدل حضورنا الحضارى ، بغيابنا الجاهل المتخلف ، حتى

---

(١) فى أدب الأطفال لدكتور على الحديدى ص ٢٤٠ .

نستطيع أن نعيد صياغة أطفالنا بما يتفق ، وأملنا فى المستقبل ، وأن نعيد ليهم دورنا الإيجابى ، نحو تحسين ظروف حياتهم ، نقد يكون من بينهم عالم أو فنان : أو مفكر ، وأن نبعد عنهم شبح الموت بالمجان ، الذى اغتال ، ويغتال براءتهم ، وفى سبيل هذا فلننصت جيدا لشاعرنا الرصافى » وهو يصف هذا العالم الطفولى الفقير فيقول :

رُبَّ طفـل أودت بـه قِلَّةُ الـدَّرّ   على أن أمـــه ثـديـاء
أمـه من أبيـه آمت فأمست   ينهك البؤس جسمها والشقاء
فحكى شخصها الخيالة إذ لا   ح ذبول بجسمها وارتخاء
فهـو إن لـم يعش فمـوت مريح   وهـو إن عـاش فيه الداء
هكذا كـأن المـواليد تحيـا   ولهـا مـن حيـاتها إفناء
ومن اللـؤم أن ترى عندنا الأ   طفـال تفنى لأنهـم فقراء
لا غـذاء فى جـوفهم لا كساء   لا وطـاء من تحتهم لا غطاء
إنهم غيـر معـربين ومن حسن   السجـايا أن ترحـم العجماء
علّ من لـو يعيش منهم لأضحى   فيـه للنـاس مأمل ورجاء
رب من مـات منهم مـات معه   شـرف بـاذخ لنـا وعلاء
ليس مـوت الأطفـال هينا فقد   ينبغ منهـم نـوابغ أذكيـاء
إنما هـم كمثل أصداف بحـر   لست تدرى : دربها أم خلاء
ولعل الطفـل الذى مـات منهم   مـات عقـلٌ بمـوته ودَهَـاءُ

وشاعرنا ضمن شعراء الإحياء والعمودية برؤيتها الوصفية . يحث ويحض الأغنياء ، وأصحاب القلوب الرحيمة ، للأخذ بيد أطفالنا ... مع أن هذا هو حقهم فى عنق المجتمع ونظامه الحاكم ، وليس منة أو صدقة . وقد يرى كثير من الشعراء أن تربية الأطفال ، وحسن تنشئتهم تؤكد على بث عادات وأفكار وتوجهات إيجابية ، وتعمل على رفاهية المجتمع ، وتقدمه ، ونجمل هذا فيما يلى :

١ - الاهتمام بالطفولة ، هو اهتمام فى الدرجة الأولى ، بالمجتمع وتقدمه ، وخططه التنموية ، وتعلقه بالتقدم ، والتخطيط له فقد يكون من بين الأطفال ، الذين أهملناهم ، تربويا ، وثقافيا وصحيا ونفسيا أطفال عباقرة ، يكشف الزمن ، عن عبقريتهم الكامنة . ورب طفل ضيعناه صغيرا ، ولو عاش ، أو تربى تربية صحيحة لحق المأمول فيه ، وفى عبقريته ، ووقدة حسه .

٢ – تقول الدراسات إن من بين ألف طفل ، قد يولد الطفل المعجزة ، والعبقرية الفذة ، والحس المتقد ، والذكاء المشتعل وقد يتسبب الإهمال ، فى متابعة ، وملاحقة هذا الطفل من بين هذه الكثافة ، فى ضياعه ، وفقدانه ، وقد تكون سوء التربية عاملا أقوى فى ذوبان هذه العبقرية ، وضياعها .

٣ – إن الاهتمام بالطفولة ، هو تأكيد على توجهات العدالة ، التى يتمتع بها مجتمع حرصه على حسن تنشئة طفولته ، يتعادل مع حرصه ، على تقدمه ، وبزوغ علمائه .

٤ – لكل أمة مشروعها الحضارى القومى ، والطفولة السعيدة التى تنمو ، وتنشأ ، وتتطور فى إطار رعاية اجتماعية ، وسياسية ، وثقافية ، وحضارية ، هى أهم لبنات هذا المشروع القومى وبدونها ، لا تمتلك أمة ما الاعتزاز بهذه المشروعات .

٥ – إن التخلف يعنى عدم المقدرة ، على تحمل المسئوليات ، وإن التبعية الفكرية ، والعلمية ، والثقافية ، هى ترسيخ للتخلف ، ودليل على أننا لم نستطع تربية المواطن الجيد ، أى أننا هزمنا فى ميدان الطفولة ، وحسن تنشئتها ، ونحن بحاجة ملحة إلى أن نوجه كل رعايتنا للأطفال ، فهم أثمن شىء يمكن الحفاظ عليه ، حتى يمكن الحفاظ على كياننا ، وهويتنا .

٢ – الحرية :

وإذا كان الشاعر « معروف الرصافى » قد لفت الأنظار إلى ما يعانيه الأطفال من إهمال ، وإحباط ، ولذلك فقد طالب المجتمع وأصحاب القلوب الرحيمة ، بأن يهتموا بالطفولة ، وأن يحولوا حياتهم البيئية والتعيسة إلى حياة تظللها السعادة والرفاهية وتقوم على التربية أقوم الوسائل للنهوض بعالم الطفل ، ولأن التربية تحمى أطفالنا من الانحراف ، وتحافظ على مخزونها من المواهب والعقول العبقرية ، تلك المواهب والعقول العبقرية التى يغتالها الإهمال والأمراض والحرمان .. وتقوم تربية الأطفال على عناصر نلتقى ببعضها مع عالم شعراء العمودية ، وهى الحرية كما يراها الشاعر « خليل مطران » .

هذه الحرية التى ينبغى أن يمارسها الطفل فى طفولته حتى يشب على حبها وممارستها والدفاع عنها ، والاعتراف بها للآخرين .. ففى قصيدة الحرية لكل الأطفال والأطيار ، يقدم الشاعر « مطران » تجربة غنية بالدلالات .. حيث كوفئ الطفل لحسن سيره وسلوكه ، وطاعته لأمه ومرضعته بالذهاب إلى جدته حيث اللعب والهواء النقى والخضرة الممتدة .. فطار فرحا مستبشرا ومن ثم ذهب إلى طائره الحبيس ، وكافأه هو الآخر بسبب

التزامه فأطلقه من القفص كي يذهب إلى جدته ، مثلما يذهب ، وبعدئذ حود كما يعود هو من عند جدته ، وهكذا ترى القصيدة أن الطفل هو الحر الحقيقى على وجه الأرض ، وذلك قبل أن تكبله الحياة بقيودها الثقال . والقصيدة تقول :

لِيَ ابـــنُ عمٍّ بالـــغٌ أربعـا — مـن عمْرِهِ أو دونَهـا أشهرٌ
طلْقُ المَحيــا شعرُه مُذَهَّبٌ — وثغـره كنز حوى جـوهرٌ
يختـــال كالجندىّ مستكبرا — ومـا أحبّ الطفلِ مستكبِرًا
قالت لـــه المرضِعُ يومـاً وقد — أحسن سيرا : حقّ أن توجرَ
هيّـا نزُرْ جـدّتك الآنَ يـا — بُنَيّ فالبس ثـوبك الأفخرَا
فـراح مثلَ الظبى يعـدو إلى — غرفتـه جـذلان مستبشرًا
وكان فى إحدى القـرى طائرٌ — قد أودعـــوه قفَصًا مُقْفرِ
رآه فيـــه صـامتا مـوحشا — كما يكـون الحـــرّ مستأسرا
ففتح البـــاب مسـرعـــا — وقـال : أحسنت فخيرا ترى
أراك مشتـاقـا إلـى جـــدة — تزورها ، فاذهب وعد مبكرا

فالطفل وقد رأى عصفوره السجين فى القفص ، أدرك بإحساسه الصادق الرهيف ، وبانفعاله الطفولى ما يعانيه عصفوره .. فأراد أن يخفف عنه بالذهاب هو الآخر لزيارة جدته ، فيمد يده إلى القفص ويطلق سراح طائره .. وهكذا يتعلم ولأول مرة كيف يمارس الحرية لنفسه ، ويعطيها للآخرين .. إنه يمارس ، كما يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح الشاعر المرهف والعالم الجليل ، العطاء لأول مرة ، عطاء الحرية ، وما أكرمه وأجمله وأشرفه من عطاء ! والحق أن أمتنا العربية لم تعود طفولتها مثل هذا العطاء ولم ترب أطفالها على احترام الحرية ، وحبها والسعادة برؤيتها كما يتمتع بها الآخرون .. وهذا هو السبب فى تأخرها ، ووجود الطغاة المتسلطين فى قياداتها ، وعلى كل مستويات حياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية .. فالحرية لا تمنح . وإنما تولد معنا ، ثم ننميها ، ونتعدها لدى أطفالنا : وبين أفراد المجتمع .

٣ – الطفولة هى الحب :

إن الحب الذى يُنشَّأ عليه الأطفال ، ويطبعهم مجتمع الأسرة والشارع والمدرسة بطابعه ، هو التعبير الحقيقى والفطرى عن طفولتهم ، ونقائها وصفاتها . وهو تعريف واف لمعنى الطفولة .. وإن أى تربية نوفرها للطفل دون أن تتضمن عنصر الحب ، هى تربية ناقصة وغير ناضجة . فالحب ينير للأطفال حياتهم ، ويكشف عن جوهر وجودهم ويساعدهم

على التآلف والتوازن ، والإقبال على التعليم والمعرفة ، لأنهم حينما يحبون غيرهم ، ويقبلون على الحياة إنما يستهدفون الارتقاء بتلك الحياة ، ويكون التعليم آنئذ المدخل الصحيح لرقى الحياة .. والشاعر « بدوى الجبل » هو شاعر عمودى إحيائى ارتبط شعره بالوطن ، وأمومة الأرض العربية لأبنائها .. وهو لذلك شاعر يتحدى القوة الاستعمارية بكل عوامل التجزئة ضد أمته وأرضه .. وفى شعر هذا الشاعر ، وُدٌّ وحنين إلى مثل أعلى ، وفيه : « مسحة صوفية تتجلى أروع ما تكون عند الحنين إلى الوطن أو الحديث عن الطفولة » . وفى مقطوعته الشعرية التالية « صلاة حب » شاعرية عميقة من أجل الطفل ، وفى دعاء صارخ يخترق الواقع الكئيب ، ويرتفع إلى عش الله ، إذ بالحب يستطيع الطفل أن يخترق جميع الحدود ، ويتذوق الأشياء ، ويمتلك القدرة على التفسير ومن ثم الإدراك .. فكل شىء مفهوم بقلبه وإحساسه : ومشاعره الصغيرة والدقيقة ، وهو بهذا دعم لكل ما يدعو إليه المجتمع من فضائل وقيم وتعليم ، وتقدم . كما أن الحب الذى نعلمه لأطفالنا عن طريق تربيتهم بمثل هذا الأدب ، هو مزيد من الثقة فى الفن الشعرى ، الذى يستصيعه وهو لا يملك سوى قوة زهرة ، أن يكون له تأثير قوى فى نفوس الأطفال والكبار على السواء .

فبالشعر نستطيع أن نربى أطفالنا ، ونقدم لهم حصصا ومواقف وعلاقات مترعة بالحب ، وفى المقطوعة التالية يتغنى الشاعر « بدوى الجبل » بقصيدة حب الأطفال . حيث يقول :

ويــاربُ من أجــل الطفولة وحدَها ... أفِضْ بركــات السلم شرقـا ومغربا
ورُدَّ الأذى عن كل شعب وإن يكن ... كَفُــورًا وأحْبِبْهُ وإن كــان مُذْنِبـاً
وصُنْ ضحْكَةَ الأطفــال يارب إنها ... إذا غرّدت فى موحش الرمل أعْشَبَا
ملائك لا الجنــــات أنجبن مثلهم ... ولا خُلْدُها – أستغفِرُ اللّهَ – أنجبَا
ويــاربُ أحبب كل طفــل فلا يرُى ... وإن لجّ بالأعنـــاب وجها مقطبا
وخبئْ لــــه فــى كـل قلب صبابةً ... وفى كل لقيا مرحبــا ثـم مرحبـا
ويــارب : إن القسب ملكك إن تَشَا ... ردَدْتَ مُحيلَ القلب ريّانَ مخصبَا

٤ – الطفولة هى الحياة وجمال الوجود :

وهذا العنصر الرابع من عناصر التربية التى ينبغى أن تقوم عليها تنشئة الطفولة ، إذ كيف يكون البيت بدون أطفال ... . وكيف يكون الوجود بدون أزهار وصغار ؟ وكيف تكون الحياة نفسها بدون طفولة ، وبواكير وأفاويق وأزاهير تنتشر هنا وهناك . ويكمن

فيها سر الوجود وتواصل رحلة الحياة .. وهكذا ينبغى أن تكون تربيتنا لأطفلنا قائمة على ربطهم بجمال الحياة والوجود ، وأهميتهم لهذا كله ... بل كيف تكون قيمة احياة إذا كان الناس يولدون كبرا .. إنها من غير شك ستكون موحشة قاسية عاقرا .. وللشاعر شوقى البغدادى مقطوعة شعرية تتغنى بجمال الحياة ، ويتغنى فيها بجمال الطفولة : طفولة الحياة نفسها ، تلك الطفولة التى تتلقاها فى الزهر والشجيرات ، والأطيار والحيوانات الصغيرة . وفى النبتة ، والبرعم ، والخفقة وشعيرة الضوء . وهو بهذا يقدم لنا صورة جميلة للحياة ، وعن الوجود عبر لوحة شعرية عذبة ، ولا حد لجمالياتها ، ولا مدى لعذوبتها لأنها تعكس شعور وحب الأبوة والأمومة وهى تحن وتحس بأطفالها . والشاعر - أيضا - يعكس إحساس المجتمع الأب بقوة علاقاته الروحية وكثافة لعاطفة التى تربطه بأحبائه من الأطفال ، ويصور فى الأعم الأشمل إحساس إنسان رحب القلب ، يرسم بالشعر الذى هو أصدق دليل على هذا الإحساس ، ورحابة القلب ، شحنات عواطفه المتدفقة تدفق الحياة فى أجمل لحظاتها من صباح أو مساء . والشاعر فى مقطوعته يتحدث عن الأطفال على أنهم بهجة الوجود ومن ثم تصبح تربيتهم هى تنمية هذه البهجة ونضارة الحياة . يقول الشاعر معترفا بخضوعه لمن يحب .. وهم الأطفال رمز الحياة والوجود :

هنا فــى فراغ القلب طَـارُوا وحَوَّمُوا ... فراشـاتِ حَقْلٍ فــى عيــونى تَدوَّمُ
مـلأن علىّ الـدرب « فهــو ملوَّن » ... بهـن كمـا يروى الأسـاطير علهِمُ
أرَاهُمْ مـدى عمرى ، فكُلّ قصيـدة ... أغنى ، قـوافيهـا التى تشتهى هُمُ
أحبهـمُ عنـد الشتـــاء إذا غَدَوْا ... فضجَّ بهِمْ صـفٌ ونـــاءَ حلمْ
فـإن رجعــوا فالبيتُ منهم قصائدُ ... تُعـادُ ، وأرقـــامُ مئـاتُ تنظِّمُ
أحبّهـمُ فـى كل أرض ، لأنهــم ... جمــال فـأىُّ ليس يَعْشِقَ بهمُ
خدودُهُمو، خُصْلاتُهُم، كلّ ضحكة ... وكـل سـؤال فـى الشفاه يُلَعْثِمُ
وأعيُنُهُمْ عُلّقَتْ فـى حكايـــة ... تَوَقّدُ من وهَجَ الحـديث ، تحلُمُ
وخمْشاتهُمُ فـى وجَنَة الأمّ لــذةٌ ... تُسيـل مــن الظفْرِ الحبيبَ تنْعِمْ
حياتهُمُ الضــوءُ الذى ليس ينطفى ... وبيتُهُمُ الـــدارُ التى لا تُهـدّمُ
فـإن روّحــوا فالعمرُ وحشة سالك ... مفازتـــــه سدٌّ وليـــلُ خيمُ
وإن طلعــوا فـالسـد منفتح كمـا ... تُفَتّحُ أبـــوابُ السمـاء وتبسُمُ
لأنّهـــمُ فــى الأرضِ فـالأرضَ جَنّةَ ... ووعــد بأنّ الغــدَ أحْلَى وأكْرمُ

٥ – الطفولة والمستقبل الواعد :

ولن نستطيع أن نكون جادين فى تربيتنا لأطفالنا إلا إذا أحسسنا بأنهم أمل الحياة ويشيرون بحاضرهم إلى مستقبل واعد ... وإذا امتزج الأمل بكدنا وتعبنا ، وكفاحنا ، ونضالنا ، وخالط كل شىء نعيشه . تحولت الحياة إلى حلم ثم إلى غد مشرق جميل وتأكدت رحلة الحياة فى مستقبل واعد ... وكل طفل هو أمل لوالديه وللمجتمع ، وللحياة نفسها .. وإذا خلت من هذا الأمل شاهت حياة الآباء والمجتمع والحياة ، فهو أمل بالمعنى الخاص ، وبالمعنى العام . من هذا المنطلق كان الترحيب ، وكانت السعادة فى استقبال الشاعر المرهف « محمد سعيد جواده » لميلاد طفله الأول ، وذلك فى قصيدته « مولد هانى » وتتميز بأصواتها اللاهثة وراء الغمام لتكشف عن وهج الميلاد واللقاء والانتظار ، وحفاوة القدوم .. ثم التجربة مع الواقع ، والخوف من هذا الواقع المحاصر بالحروب والندوب ، ومن أن تغتال شراذمه الأمل بمعنييه الخاص والعام أو على حد تعليق الأستاذ المقالح على هذه القصيدة بقوله حين استقبل الشاعر طفله الأول ، وبدأ تجربته مع عالم الطفولة . « أخذ الشاعر يكتشف هذا العالم ، وما يمثله كل طفل من أمل خاص ، وعام فكانت قصيدته ، وفيها على تعدد مقاطعها صوتان : صوت المبشر وصوت المنذر ، وصوت الأديب السعيد بطفله والطفولة بعامة ، وصوت الخائف على هذا الأمل من الشر المرابض فى قلوب الناس ، وفى واقعهم » . والحق أن القصيدة نفثة ودفقة : نفثة خائفة ودفقة شاعر خائف حذر على الحياة ، وهى تدب من جديد بعد الفناء المرحلى فى طفل وليد ، وأمل يخطو على طريق المستقبل ، وذلك بقوله :

أيها القـــــادمُ يـــا مصدرَ أفراح الشعوبْ
يـــا بشيرَ الأمـــــل المونق والعيش الخصيبْ
جئت فـى حين انتظار العين لا فجر الحبيبْ
إن خيْرَ القَطْرِ مـــا انهلّ على القُطْر الجديبْ
ما نشيدُ الطيرِ قربَ النهر فى الوادى الظليلْ
وحفيفُ الزهَرِ النـــادى لـدى الفجر البليلْ
ورنين العـــــود فـى أحضـان فنّانٍ أصيلْ
مثلَ صوت الطّفل فـى إيقاعه الحُلْو الجميلْ
جَلّ بارى الكون ، كم جلّت أياديه الجميلةْ
كم له مـن نعمةٍ دلّت علـى « ذاتٍ » جليلةْ

لمست صبغـة الكـــــون فسوّتـه خميلةْ
وكسته حلةً غـــراءِ مـــن نسج الطفـولةْ
جئت يا هانى فأنعمت حيـــاتى بالجمالْ
ونفيتَ اليـــأس عـن نفسى وآثـــار الملالْ
كنت فى كهف مـن العزلة محبوسَ الخيالْ
فإذا بى فـى « فراديسَ » وريفات الظـلال
أىْ بُنَىّ اسمعْ وصيّاتٍ قـد ترى فيهـا دليلا
من أبٍ قد مارس لآفـاتِ والهـولَ المهولا
يدّعى الخبرةَ فى الأيـــام والرأىَ الأصيلا
فاستمـع نصحى وإن كـان للنـاس ثقيلا
جئت هذا العـالم ، القُلّبَ فاصحبْه وحاذرْ
سترى فيـــه ظلامـــا دامسا يغشَى النواظر
سترى فى أهله مـوتـــا فظيعا فـــى الضمائرْ
كلهم عُبّاد أوهـــــــــام وعشاق مظـاهرْ
كن مع العرفان فجرا ساطعا يمحو الظلاما
كن من الأخلاق نبعا صـافيا يشفى الأواما
كن قـــوة روحيـــة نحـو الأعالى تتسامى
كن على الطغيان نـارا وعلى العدل سلاما
لا تعش كالبُـــــوم نعابًا وغـرد كالهـزار
واقتبس فنك مـن أفـق المعـــانى والفخـار
وتقلـد فيـــه واطلـــه اجتهـادًا وابتكـار
إن أغبى النـــاس مـن يحيا بإحساس معـار

٦ – الطفولة والكتاب وروح المكان :

(أ) مصائر الأيام :

ومن الصور التى يحرص عليها الشعر العمودى بما يحمل من رؤية وصفية صورة الأطفال ، وهم يعايشون المستقبل وما يرتبط به من حظوظ تأتى بها الأيام . وذلك خلال حياتهم بالكُتّاب وما يقدمه الكتاب حينئذ من مودة الصحاب ، وعصا العريف ، وصياح

سيدنا ، والألفة التى تجمع بين الصبية والمكان ورحلة الصباح والعودة إلى البيت مع المساء ، وما يتخلل اليوم المكتبى من دروس تتم معظمها فى ترديد منتظم يسمح لكل طفل أن ينطق النطق الصحيح ، وفى أداء لغوى وهجائى سليم يساعد على الحفظ والاستيعاب الجيد مع تسطيحه للأفكار والمعانى ، وما يقوم به الصبية من إثبات ومحو لما كتبوه من آيات قرآنية على صفحات الألواح التى تضمن لهم تجويد الخط وتجميله بقلم « البوص » و« الحبر الشينى » .. وخلال هذا كله يقوم الصبية بخدمات منزلية فى منزل سيدنا وأسرته ، والذى يقع الكتاب ضمن حجراته ..ويجمع أطفال « المكتب » وصبية الكتاب مرح غريزى ، وشيطنة محببة ، ولهو عابث برىء ، وأحيانا تصدير بعض المنغصات لسيدنا وعريفه . وفى نهاية الرحلة المكتبية ، يتم الصبى حفظ القرآن كله قراءة وحفظا .. ثم بعضا من المعلومات التاريخية العربية والإسلامية ، وشيئا من الحساب والمعلومات العامة . وفى قصيدة الشاعر أحمد شوقى بخياله الثرى وصوره الممتعة واستعارته الجميلة لصحبة الكتّاب ، يقدم لنا فى قصيدته : « مصائر الأيام » صورا من حياة الطفولة بَالمَكْتَب ، والكتَاب ، وفيها يقول :

ألاَ حبّذا صحبةُ المكتب ... وأحْببْ بأيّامِهِ أحببِ
ويا حبذا صبية يمرحون ... عنانَ الحياة عليهم صبِى
كأنهُمُ بَسَمات الحياة ... وأنفاس ريْحَانِها الطيّبِ
يراح ويغدَى بهم كالقطيع ... على مشرق الشمس والمغرب
إلى مرتع ألِفُوا غيرَه ... وراع غريب العصا أجنبِى
ومستقبل من قيود الحياة ... شديدٍ على النفس مستعصِبِ
فراخُ بأيْكٍ : فمِنْ ناهضٍ ... يروض الجناح ، ومن أزغبِ
مقاعدهم من جناح الزمانِ ... وما علموا أخطر المركب
عصافيرٌ عند تهجّى لدروس ... مِهَارُ عرابيّة الملعبِ
خليون عن تَبِعاتِ الحياة ... على الأمّ يلْقُونَها والأبِ
حنون الحداثة من حولهم ... تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبدّ بعقل الصبى ... وأعدى المؤدِّب حتّى صَبِى
لهم جرسٌ مطرب فى السرّ ... احِ وليس إذا جدب بالمطرب
توارت به ساعة للزمان ... على النّاس دائرة العقرب
تشُول بإبرتها للشباب ... وتقذف باسمّ للشُّيَّبِ

يدق بمصرقتيهما الفضـــــاء وتجرى المقـــاديرُ فى اللولب
وتلك الأواعـى بإيمـانهـــا حقـائبٌ فيهـا الغـــدُ المختَبِى
ففيها الـذى إن يقـــم لا يعــدُ من الناس ، أو يَمض لا يحسَبِ
وفيها اللـــــواء وفيها المنــار وفيهـــا التبيع وفيهـــا الغَبِى
وفيها المؤخـــرخلف الزحـــام وفيهـــا المقدّمُ فى الكــوكبِ

فالشعر يقدم لنا صورا نابضة بالطفولة ولذاتها وطبيعتها ، وفى فن شعرى مصور لمرحلة من مراحل الطفولة التى تكون فيها لاهية عن مصيرها ، وما يخبئه المستقبل لها حيث الحظ فى المجتمع هو كل ما يختزنه لزمن من مفاجآت .. وليس راجعا إلى العلم والذكاء والفطنة .. بل – أحيانا – يجد الجاهل ما لا يجده العالم ، لكن الأمر يتطلب من يتصدى لتربية الأطفال .

وتقديم صور من أدب الطفولة له أن يؤكد دائما على العلم والشخصية باعتبارهما الأساس فى الرفعة والتقدم والحظوة ، وشغل أرقى المناصب وأحفلها بالخدمة الإنسانية ، وأن يحاول المعلم أن يجمع بين الصور التى أتى بها شاعرنا والحقيقة التى نريد التأكيد عليها .

(ب) طفل الخلوة للشاعر يوسف بشير التيجانى :

تلك إضاءة لزمن الطفولة ، ومعاناتها مع نظام الخلوة (الكُتَّاب) ، وتعبير إنسانى عن تلك المعاناة التى عاشها أطفال القرى ، وبعض المدن فى طول البلاد العربية والإسلامية ، يسجلها لنا الشاعر فى تلك الأبيات :

هب من نـــوم يدغدغ عينيه مشيحًا بوجهه فـى الصباح
ساخطا يلعن السماء ومـا فى الأرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضـاقت بـه الحيلة واهتـاجه بغيض الـرواح
وأهابت به الظـــلال وقد نشرت فـى جلوة القرية والبطاح
ومشى بارمـــا يـدف رجليـــه ويبكى بقلبـــه الملتـــاح
ضمخت ثـــوبه الدواة وروت رأسـه مـــن عبيرها الفيـــاح
ورمـى نظـــرة إلـى شيخه احبـــار مستبطنا خفى المناحى
نظرة فسرت منـــازع عينيه ونمت عمـا بــــه من جراح
ونفوس سجى الكرى فى جواشيها ودب الفتور فى الأرواح

فارجحنت مهومـــات ، ومـــا تبرح مركـــوزة عى الألـــواح
كلمـــا لفها النعـــاس وأضفى فوقها عالمـــا ندى الجنـــــاح
قصف الرعد فى المكان ودوى مرزما صاخبا قـــوى الصباح
فاستفاقت وهينمت بعض أشياء وعادت وعـــاد قصف الرياح

الشاعر هنا ، كما هو واضح غير راض عن ذلك الوضع البائس لهذا الطفل المسكين فهو يقوم فى الصباح من نومه فزعا ، كأنما يدغدغ عينيه ، لما يبدو عليهما من علامات السأم والإجهاد ، قد أعرض عن الناس لما تملكه من سخط على كل شىء حقيقى ومتخيل ، وهو متضايق مكدر ، لكن ما الذى يستطيع أن يصنع ولا حيلة له ، وقد استثاره الذهاب إلى مكان التعلم الذى لا يطيقه ، وبدت الظلال وكأنها تدعوه إلى التوجه إلى هذا المكان ، فسار متضجرا يدفع رجليه دفعا على حين أن قلبه الحزين كان يبكى . لقد بان على ثوبه آثار بارزة من مداد دواة الخلوة . وكانت رأسه أيضًا قد فاح منها وانتشر ريح هذا المداد . لقد وصل أذن وحدج شيخه القوى المتغطرس بنظرة كأنها تستبطن شيئًا ما كأنها تستبطن ما تكنه مناحى كيانه . إنها نظرة تفسر ما تريد عيناه أن تقولاه ، وتكشف عما يعانى من جراح داخلية .

إنها نفوس هؤلاء الذين تجمعهم الخلوة تلك التى عانت من الفتور ، ويغشاها الكرى ، لكنها تظل مهتمة بألواح قراءتها ، منكبة عليها . وإذا كان الشاعر قد صور لنا الطفل هذا التصوير الدال على معاناته فى سبيل تحصيل القرآن الكريم وبدايات العلم ، حسبما كانت تقضى بها طبائع الأشياء فى عصر مضى ، وفى أمكنة عرفت هذا النظام وحده فى تعليم الطفل ، ووضع قدمه على أول طريق الحياة — فإن له الحق كل الحق فى هذا التصوير ، الذى أراد به أن يكون صادقا مع نفسه ، ومتجاوبا مع الواقع ، بعرض محاولة إصلاحه ، والرقى به نحو ما هو أفضل ، وهو ما نحرص عليه الآن ، وهو ما من أجله تقيم الكتابات للطفل وتجرى الدراسات والبحوث من أجل تلافى الجفاف فى معاملته ، واتباع أفضل الأساليب وأنفعها فى تربيته وتثقيفه . إن الشاعر لا يقلل من شأن الكُتّاب [الخلوة] لكنه ينقدجانبا من جوانب التعليم فيه ، ذلك المتمثل فى خشونة المعاملة ، والإثقال على الطفل ، وعدم تعهده بما يشعره بنفسه ، وباهتمام من حوله به ، ومعاملته على أنه رجل صغير . وربما كان كثير من ذلك راجعًا إلى الظروف السيئة التى كانت تعيشها المنطقة العربية فى الماضى ، وهو ما يمكن القول بشأنه إذا تجاوزنا كثيرًا منه ، على أن الكم المعرفى الذى كان يعطاه الطفل فى هذه الأزمان الماضية ، والإعداد

الجاد بعض الجدية للطفل ، نرانا فى حاجة ماسة إليه ، بعد ما ألححنا فى التخفيف المفرط عن الطفل ، والتدليل الزائد عما هو مقبول له ، ولا يخفى على أحد ما لذلك من الآثار السيئة فيما بعد ، وهو ما ينبغى أن نتلافاه ، وبالذات مع المرحلة التاريخية التى نشهدها ، ونجنى الثمار المرة لما زرعناه تقليدًا للغرب ، وتمشيا مع التغريب فى التربية تلك التى رجع عن بعض نواحيها كثير من المربين الغربيين ، وهو التدليل الزائد ، وعدم تحمل الأطفال لمسئوليات تتفق ، وقدراتهم .

ثالثا : من أدب الطفل الفلسطينى

لماذا الطفل الفلسطينى ؟

لا أعدو الحقيقة ، حينما أعتبر الطفل الفلسطينى ، رمزًا من رموز قليلة ، فى تاريخ الطفولة الحديثة : يدل على المعاناة ، والمكابدة ، والحرمان ، ويتلقى فى صفولته مثلما يتلقى شعب بأكمله ، من اضطهاد ، وتشريد ، وبؤس وشقاء . وقد تحول هذا الطفل إلى رمز للفجيعة فى الأرض ، ولليتم وللآلام والخوف والإرهاب .. وهو رمز لمعظم أطفال العالم الثالث وذلك لما يلاقيه ومعه أسرته وبنو قومه من تشريد وصلم وقهر . والأدب الذى يعبر عن واقع هذه الطفولة ، يدعونا إلى التفكير الإنسانى العاقل الرشيد فى حال هذا الطفل .. وكيف تقام فى أوربا جمعيات الرفق بالحيوان .. ثم تشارك ومعها أمريكا فى تشويه حياة الطفل الفلسطينى ، وذلك بدعم صريح وواضح ، ومحو للاحتلال الصهيونى ، الذى يتوسل بكل الوسائل الوحشية وأسلحة الدمار ، و « النابالم » ضد هذا الطفل ؛ لتحويل واقعه إلى خرائب ، ودمار وقتل للحياة ، وإشاعة للخوف والإرهاب . كما أن الأدب الذى يشى بالأمل ، ويشير إلى الانتصار ويثق فى أن الجيل القادم من أطفال الحاضر سيحول الأنين إلى شدو وغناء وفرح بانتصار الثورة العربية على أرض فلسطين .. فأدب الطفل الفلسطينى هو أدب كل أطفال الدنيا الواقعة تحت مظلة الاستبداد والقهر والحرمان والتجويع ، وهو أدب يجمع بين المحنة والمنحة ، بين الواقع والحلم ، بين المتناقضات التى بها تولد الحياة مرة أخرى .

إن الأدب مع هؤلاء الأطفال ، يدعم ثقتهم فى مستقبل الوطن العربى وذلك ليشد من أملهم ، ويقوى ثقتهم فى المستقبل ، ويحولهم إلى مقاومة باسلة ، تدعم حركة النضال العربى الفلسطينى .. وطفل هذا الأدب سيصبح من غير شك مواطنا عربيًا فاعلا ومتفاعلا مع الحياة ؛ ليمنحها كل الإيجابيات وخلاصتها .. والمؤسف تجاه واقع الطفل العربى ،

هو أن مساحة الصمت العربى تتسع يوما بعد يوم إزاء هذه المآسى التى تظلل هذا الواقع ، لنسلم جميعًا بأن لكل الأطفال أحلامهم وآمالهم وأمانيهم وأفراحهم .. فماحظ الطفل الذى يكافح أبوه وجميع أفراد شعبه من أجل أن تعود البسمة على الشفاة .. ؟ إن حظه أن يحلم بيوم الخلاص .. لكن الواقع أقوى وأقسى من أن يترك للطفل العربى أن يستمر فى حلمه ، حيث هذا الواقع ملىء برموز الخفاش والذئاب ، والأخطبوط ، ويكتنفه الليل الأسود من كل نواحيه . والشاعر : « عطاف غانم » يصف هذا الواقع مستنكرا أن يظل الأطفال فى حلمهم يحاصرها الأشرار الصهاينة :

حدقت شيرين فى حزنى قليلا
وتوارت مقلتاها فى الفضا
وبماذا يحلم الأطفال ياشيرين والخفاش
يجتاح الشوارع والمساجد والمدن

لكن الواقع يتضاءل بكل تفاصيله المخزية والمحزنة أمام حلم الأطفال بوطن عربى فى فلسطين ، ليظل هذا الحلم هاجسا وصحوة موصولة بنضالهم ، مرة بالحجارة وأخرى بالفن البسيط . ويتمثل ذلك مرة ثالثة بما يكتبون وينشدون ، ويغنون ، وبما يوزعون من منشورات وملصقات ، وصحف حائطية . ويظل الوطن كما يغنون :

زينة يومى .. زهرة حلمى
وطنى .. وطنى .. طول الزمن
ملء القلب .. ملء العين

وهكذا يظل غناؤهم ، وأناشيدهم مع الشاعر الفلسطينى .. « محمد الظاهر » يمتزج بدمائهم ، ليصبح حلمهم عن الوطن ، ضحكتهم التى تشكل الواقع الجميل الذى ينشق عن وطن عربى ترفرف عليه أعلام الدولة الفلسطينية .. ولن يتحقق هذا إلا بمزيد من الكفاح ، ليتحول رمز « العلم » إلى فرح منتظر لا يتحقق كما يقول الشاعر « يوسف حمدان » إلا بالقضاء على أعداء الطفل الفلسطينى ، لكن الحلم يكبر ، ويقترب من الواقع وذلك خلال لحظات تأمل العلم الفلسطينى .. حيث :

ليلى ترسم بالطبشورة علما يخفق
سوى تكتب تحت الصورة « وغدى مشرق »
ليلى ترسم بالطبشورة فوهة مدفع

سلوى تكتب تحت الصورة « وغدًا نرجع »

إن الحياة القاسية التى يعيشها هؤلاء الأطفال ، والمخيمات والمدن ، وظلالها التى شهدتها جميع الأراضى الفلسطينية ، ومخيمات : « صبرا وشاتيلا » تجعل الشاعر « حلمى الأسمر » أكثر لهفة على صورة الوطن الفلسطينى الحر ، كى يرتاح الأطفال ، ويجدوا الوطن العربى الآمن .

يغرقنى الليلـــــــة دمـــــع الأطفـــال
مـــاذا يجـــرى فـــى مـــدن القهـــر
لحـــوم الأطفـــال الرضع يا وطنى لا ترحم
آه يا أمى
كيف تصير المدن لوردية فى غمضة عين أطلال ؟

ويظل الأدب الفلسطينى ، يخاطب الأطفال بالقصة وبالمسرحية ، وبالأناشيد حتى يظلوا قابضين على الحلم بقلوبهم الخضراء .. إلى أن يكبروا وينخرطوا فى صفوف المناضلين . ويظل الشعر يصور حالهم بين الحلم والواقع كما يصوره الشاعر « جراشع عيسى » حيث يسأل طفل أباه عن وطنهم البعيد وعن بيتهم القديم ، وعن أسباب هذا الاغتراب الطويل والتشرد المتواصل من رحيل لرحيل ، ومن رصيف لرصيف ، ومن حزن لحزن . ويكبر السؤال وتتضاءل أمام الأب الإجابة ، وتنكمش التوقعات إلا من زهرة نور صغيرة يزرعها الأب فى عين طفله ، ويظل الشعر نابضا بالسؤال :

أبى ... أبى خذنى إلى الـــوطن
وكيف حـــال بيتنا القـــديم
كيف حـــال القـــدس ... كيف
حال البرتقال ؟
أبى وهل مازال جدى الحبيب قابعا
فى كوخه العتيق ... ؟
يراقب الطريق
ويسأل العـــدو والصديق عن أحبة
الوطن ؟ !! !
أبى أبى خذنـــى إلـــى الـــوطن

وإزاء واقع شديد القساوة والمرارة كهذا ، لن نبهر بالحلم والثقة فى المستقبل ووعوده ، إلا إذا أضفنا الثقة فى المستقبل ، وذلك عن طريق تربية ثورية والسعى الحثيث إلى تكامل البنى النفسية والروحية والعقلية لدى الطفل ، واقترابنا من عالمه بالأدب والفن ، وبكل ما ينقله من مستوى المباشر إلى مستوى التعبير الفنى الجيد ، حتى تتسع مداركه وتتيقظ حواسه . ويستطيع بهذا أن يتسلل برؤيته إلى جوهر الأشياء ، وينضم تلقائيا وعفويا إلى كل ما هو فاضل ونبيل فى حياته الخاصة والعامة ، ولا شىء أعلى من الحرية والوطن والأمة والدين ، وكل مقومات الحياة . والطفل الفلسطينى لهذا بحاجة إلى الأدب لينمى ملكة الانتماء الوطنى والقومى ، بعد أن زرعت الأحداث فى أعماقه الإيمان الكبير بأن يكون له وطن ، وبالأدب شعره ونثره ستورق شجرة الوطنية ومستثمر ، وتمنحنا جيلا جديدًا وراء جيل ليظل شعار « أطفال تولد ، وتكبر وتتحول إلى مقاومة باسلة » إلى أن يتم تحرير الوطن ، وتعود فلسطين إلى أحضان الأمة العربية وهذا يدعونا إلى دعوة مدعومة فى رجاء بأن يعود الوطن السليب . وذلك على جميع الأدباء الشرفاء أن يكتبوا عن أطفال فلسطين ، ولهم .. ومن أجل أن تعود إليهم أرضهم وتشرق من جديد شمسهم ، وتسعى البسمة على شفاهم .. وإن هذه قضية من أهم قضايا أدبائنا على مستوى الأمة العربية ومن قضايا ضمير الكاتب الملتزم على مستوى الأدباء الشرفاء فى العالم كله .

رابعًا : صورة الطفل خلال رؤية شعرية شاملة مع شعر الحداثة :

الشعر الجديد له موقف إيجابى من « الطفل » و « عالم الطفولة » .. وهو يطل على هذا العالم ، من خلال نظرة شمولية غلى الحياة تشمل الطفل وغيره ، على أن الطفل جزء من حركتها وواقع من نظامها الاجتماعى والثقافى .. وقد حاولت التجربة الشعرية الجديدة أن تنظر إلى الطفل وواقعه من خلال منظور يتسم بالرؤية الشمولية ، لأن الطفل عندها مثل غيره من الأفراد والأشياء والمجتمعات غير خاضع معها لعملية انتقائية .. وإنما هو شريحة من شرائح هذا الكل الذى لا يصح معه المنهج الانتقائى وإنما تصح معه مناهج الشمول والتداخل الشمولى ، وحيث اتساع مساحة الرؤية ، وشمولية النظرة إلى الواقع . والطفل حينئذ ليس معزولا عن ظروفه ، ولا عن بيئته ، ولا عن قوانين الواقع الذى يضمه مع غيره .. والشعراء – حينئذ – يتعاملون مع الطفل على أنه رمز لهذا الواقع ، وصورة عنه ، وحقيقة من حقائقه .

وكثيرا ما نجده قناعا لمعظم قصائد هذا اللون من الشعر الجديد . وإذا ألقينا نظرة على مجتمعنا فإننا نجده مازال يعانى الهموم كلها : التجزئة ، والاستلاب واحتلال الأرض ، واستبداد الحاكم وسخرية أقداره التاريخية ، والحرب التى تفرض عليه لتهديم قواه الحضارية ، والمؤامرات التى تحاك ضده ، وحريته الغائبة وعدله المفقود ، وحقه الضائع المسلوب .. وهنا يتخذ الشعراء من الطفولة قناعا ورمزا . وتعد قصيدة « أدونيس » فى إطار هذه الحقائق والطرح الفكرى والثقافى والسياسى ، والتى بعنوان « الأطفال » — بداية التحول نحو هذا المنحى ، الذى يقيم فيه الشعر الجديد آليات الجدل والتناقض ومن ثم الصراع بين الإنسان ووجوده . وقصيدة الطفل أوضح رمز ودلالة على هذا الصراع .. حيث الطفل مازال هو الينبوع الثر الذى يتفجر بالضوء والماء . وبالفجر والمطر ، وذلك فى اتجاه الميلاد الجديد ، والحياة الجديدة . وهذا ما يحاوله الشاعر « أدونيس » من قصيدته « الأطفال » والتى يقول منها فى لوحات :

في غبـــــار الصّلوات
غـرق الفجـــر ومـات
لكـــن الأطفــــال
نحـ يحملون وجـــه الشمس
مـــن أمـــواج الأمس
فـــــى شـــلال

اللوحة الأولى :

عند بيتنا يطلـع النهـــار
وجهه طابة فى يـــد الصغار
وفــى شفـــاه المدنية
جـــرس للعـــــويل
مـــن ثلاثـــين جيل :
— — منسمى عمنـا —
— — اللى بيأخـذ أمنـا — —
« يالله الحالـــة مـا بتنطاقْ
ضـــاع وجـــه المدينة »

يدعون القارئ يذهب فى استكناهها مذاهب شتى ، وتلك هى الإبهام الحقيقى ، إذ لا ضابط واضحًا لمدلولات هذه الرموز ، اللهم إلا أن يتبع الشاعر من هؤلاء قصيدته ببيان ماذا يريد بكذا وكذا من كلماته !

وإذا كان هذا شأن بعض شعرنا الحديث ، فلا مناص من أن يدرب فتياتنا فى سنى شبابهم المبكر على قراءته ، والوقوف على مدلولاته .

سيلمسون بعض الكلمات ذات الدلالات الحسية ، « الولد – حبة توت – البنت – الضفيرة – بياض الغرفة – اللوحة الناقصة – الجسد – عين الشمس – المصيدة – الفرشاة – القوس » .

لكن لا شك أنهم سيحارون من بعض التراكيب التى تشملها مثل : « الولد الأخضر – الجسد الغارق تحت بياض الحلم – مصيدة الحلم – معادلة لوردة – صوت الوردة – بياض الحلم – يفتح صوت الوردة قوسًا – ليمر الولد الأخضر من نشوة فتح القوس » .

وعنوان القصيدة نفسه يبدو غريبًا للوهلة الأولى ! فماذا يعنى « قطف الشمس » ؟ قد يكون من إضافة المصدر ، بمعنى اسم المفعول إلى اسم يدل على الزمان ؟ فكأن المعنى « المقطوف نهارًا » – ربما لو تركنا هذا التحليل اللغوى له ،لجاز أن يكون معناه : « المقطوف الثمين » . وهو ما أحرزه الولد « الأخضر » – أى الصغير ، غير ذى التجربة – ولنلاحظ أن مثل هذا التعبير ، لن تستنكره أذن المتلقى ؛ لأنه يسمعه من ذويه ،يطلقونه على الطفل فى مهده ،، ومثل هذا التعبير ، وغيره مما تألفه الأذن ، وإن تغيرت دلالته بعض الشىء – مما يجذب القارئ ، ويستهويه ؛ ليحرز المعنى المراد .

و « المقطوف » كان « ثمينا » ؛ لأنه استحال بحياة هذا العابث – الولد الأخضر – الذى لا يهتم بغير شجرة التوت « يغمض عينيه ؛ ليستدرج أشجار التوت إلى الجسد الغارق ، تحت بياض الحلم ، فهو حالم ، حلمه « أبيض » ، لا تشوبه شائبة ، ولا يكدر « صفوه » شىء ، فلكأنه غير معنى بغير الأكل ، يستنفد له ما يستطيع من « ثمر » التوت و« قطوفه » و« قطوف » أى ثمار أخرى ، لا يبذل فى سبيل ذلك جهدًا يذكر ، اللهم إلا « التسق » ، ولكاء الشاعر هنا يَلْمِزُ التطفل ، ويحقر من شأنه ، ويدعو هذا « الولد الأخضر » ، إلى الترفع عنه . ولكأنّ البنت فى طفولتها الرقيقة ، وجمالها البسيط ، وزينتها المتواضعة : « أريج الوردة » قد حفزت الفتى « الأخضر » ؛ ليودع حياة اللهو ،

و « ليفض معادلة الوردة والمصيدة العمياء » ، وليكمل اللوحة مارًّا من « نشوة فتح القوس » ، هذه النشوة التى أحدثها فتح لقوس .

فلَعِب الصغار ، ومن هم فى مقتبل الحياة ، يولّد لديهم تصوراتهم للحياة فى المستقبل ، وكيفية عملهم من أجل تحقيق هذه التصورات ؛ لتصير واقعًا ينتقل إليه بعد مرحلة ، هى أدنى من تاليتها . وهكذا تبين لنا هذه القصيدة« أحلام الطفولة » المتأخرة ، وتطلعات الصغار ، وأنها إنما تتحقق بالعمل ، ومبادرة الأشياء والفرص قبل أن يفوت أوانها .

وفرص الحياة ، لا تواتى إلا المؤمنين بالحياة ، الواعدين ، والذين يمتلكون الحلم الوردى ، فى سبيل مستقبل أوطانهم :

– « أتشم أريج الوردة
أم
تنتظر الوردة
حتى
تسقط
فى
مصيدة
الحلم ؟ .. »

فالأطفال ، والصغار ، وهم يعبثون ، ويلهون ، ويلعبون ، يذكرون « زواج » و « تكوين الأسرة » ، وبينا البعض يستغرق فى لهوه ، يتنبه الآخرون إلى ضرورة العمل والمذاكرة ، والسعى الحثيث ؛ ليكون « الرجل » الصالح ، الذى يبنى الحياة ، وينهض بمسئولياته تجاه الوجود ، وهو الذى يملك قدرًا هائلاً من الإرادة والوعى ، والخبرة بالواقع ؛ لتغييره ، وتعميره ، وتطويره نحو لأفضل ، والأجمل :

– « فيغمس فرشاه الأخضر
فى
خارطة
بياض الغرفة »

وعندئذ ، يستطيع تكوين أسرة ، ويكون عضوًا نافعًا فى مجتمعه ، غير منعزل عنه .. وبذلك أيضًا يكون « شطح الذاكرة » ،وما يأتى منه ، قد ودع إلى الحقيقة ، التى يلمسها

الناشيء ، وقد تفتحت له الآفاق للعمل على تحقيق حلمه .. وبهذا يختزن الطفل ، معانى من أهمها : أن الإنسان لا يعيش فى فراغ ، وأنه مطالب بأن يحقق إنسانيته فى عمل يفيد مجتمعه ، وأمته ، وبهذا يرتبط بحياة هذه الأمة ولعل المعلم ، بمثل هذه الأفكار ، والتوجهات ، أن يكشف عن العناصر البشرية .فى مجتمع الأطفال ، القادرة على الإبداع . ومن ثم الابتكار ، والتفكير المستقبلى السليم ، كما أن على المعلمين ، أن يطرحوا أمام أنفسهم – دائمًا – مجموعة من الأسئلة يتوجهون بها إلى أطفالهم ؛ لتكشف لهم عن مواطن القدرة الإبداعية الخالقة لدى هؤلاء الأطفال وذلك فى أطر ، تحدد مجموعات الإدراك العقى والحسى مثل :

أولا – الإدراك الحسى :

١ – **سمعى** : كيف يتعرف الطفل على التمييز ، بين مجموعة من أصوات الطيور ، أو الحيوانات ، أو الأهل ؟

.. وذلك بالتدريب على سماع مسجلات ، أو أغانى .

٢ – **ذوقى ولمسى** : وذلك بالتدريب على الطعوم وملامس الأشياء .

٣ – **بصرى** : إلى أى مدى ، يستطيع الطفل ، أن يتعرف على صور الطيور ، والحيوانات ، والأشجار ، والزهور ، والتدريب على التفرقة بين المشمومات .

.. ودلك بعرض نماذج خلال « صندوق الدنيا » أو السينما أو الرحلات ، أو المصورات ، أو أنواع الزهور ، ثم يأخذ فى عملية الانتقاء بتوجيه من معلمه ، الذى يحاول إيجاد علاقة ،بين هذا كله : (مبصرات ومشمومات) والإبداع الأدبى ، والفنى ، وعمليات التذوق المصاحبة كما يصاحب هذا التدريب على تكوين الصور ، والمربعات .. إلخ .

ثانيا – كيف تتكون لدى الطفل ، إدراكات عقلية ، ووجدانية صحيحة .. حيث يتدرب الطفل ، على المواد التى تصنع منها الأشياء وعلى الأشياء التى تتشكل منها المرئيات ، والمشاهد أو التى تجعلنا نحصل على الزهور ، والفواكه ، والخضرة .. إلخ . أو التى تدعونا إلى الضحك أو الحزن ، والفرح والسعادة .

وهكذا تتفاعل كل الطرق ، حول استدعاء المفاهيم الصحيحة والمطلوبة للرموز الأدبية ، وتدريب الأطفال ، على تذوقها فى سياقها الجمالى ،والعقلى معًا ، ولقد لاحظت بتجربتى الشخصية ، أن كثيرين من الباحثين تقليديون فى أفكارهم ، وآرائهم ،

وبحوثهم والسبب فى هذا يرجع إلى أنهم حصيلة طفولة ، لم تتدرب على التذوق الجمالى ، أو الإبداع اللغوى ، الذى هو محور العملية الإبداعية ، والابتكارية فى البحث العلمى وتتمحور حول الإبداع اللغوى ، معظم الأنشطة العقلية ، والوجدانية ، وهذا راجع فى الأساس إلى طفولة مأمورة دائمًا ، وقلقة اجتماعيًا ، واقتصاديًا ، وسياسيًا وثقافيًا ، وفكريًا ، كما أنها نتاج مجتمع منقسم على نفسه : فريق يؤمن بالعقل مطلقًا ، وآخر يؤمن بالنص دائمًا ومجموعة مثقفة ، وواعية ، وأخرى بمثابة مخزن للمعرفة . وليس هذا القصور فى الإبداع لدى الطفل هو مهمة رجل التعليم ، والجامعات وحدهم .. بل مهمة كل الأجهزة ، التى تتعامل مع الطفل إعلاما ، وثقافة ، واجتماعا ، وتربية ، تلك المصادر والمؤسسات ، التى ترعى التطور الاجتماعى الشامل وتنشط الطفولة ، وتهتم بالتنمية البشرية والفنية والأدبية لحياتنا الجديدة ، التى أرى أن الأطفال القادرين على التذوق ، والتعامل مع الإبداع الأدبى : هم البنية الأساسية ، لهذا التطور الجديد ، نحو مجتمع جديد ، وعملية تعليمية جديدة ، وفى هذا الإبداع ، يكمن التقدم القائم على ربط الأدب ، والفن ، والتذوق ، والإبداع بالكيان السياسى والاجتماعى والثقافى ، والعلمى المنشود .. إن تغيير مفهوم الإبداع ، والتذوق ، لدى الأطفال ، وقيامه على رؤية سليمة للأدب والفن ، واللغة ، ينبغى أن يتأسس على عملية تعليمة ، تضع « أدب الطفل » فى المرتبة الأولى من اهتمامات خبراء التعليم ، وتتعامل مع الأدب الإبداعى على أنه خبرة ، يكتسبها الطفل ؛ ليكون قادرا على الاكتشاف العلمى ، والتذوق الفنى السليم ، وحسن التلقى ، وإصدار القرارات ، وتبنى الآراء المتطورة ، والنظرة المثقفة ذات الشمول ، نحو الأشياء ، وأخيرًا العلاقة الجيدة بين المواطن الصالح ، والحداثة ، والمعاصرة ، والموقف العقلانى من التراث ، ويتمثل مردود تعليم الأطفال ، أدب الطفل الإبداعى فيما يلى :

أولا : تنمية قوى الإبداع – ابتكارًا ، أو تلقيًا – لدى الطفل المصرى ، حتى نستطيع أن نكون ، كادرًا من العلماء الصالحين والباحثين المكتشفين والقضاة العادلين ، والأساتذة الكفايات ، والمواطنين الصالحين .

ثانيا : إن النظرة المتخلفة ، نحو الإبداع الأدبى ، واللغوى قد أوجدت مواطنًا غير قادر على تبنى قضية اجتماعية أو إنسانية ، أو عملية ، تجاه وطنه وأمته ، الأمر الذى أصبحنا معه ، وكأننا شعب ، مسلوب الإرادة ، والهوية والإنتماء .. من ثم فإن ربط الإبداع

« دعينى .. فما تلك بالقبرة
دعينى أقل إنه البلبل
وإن الذى لاح ليس اصباح »
أتلك السفين التى تعول
على مرفأ ناوحته الرياح
تلوح منها أكف الجنود
لألفى كـ « جوليت » فوق الرصيف
« وداعا وداع الذى لا يعود »
وأم كما استوحشت فى الخريف
وراء الدجى ، درحة عارية
وفرت عصافيرها الشادية
عصافير ! أم صبية تمرح —
أم الماء من صخرة ينضح
حديد عتيق !!
رصا .. ص وحتى كأن الهواء
رصاص : وحتى كأن الطريق
حديد عتيق .
وينقض ، كالمعول الحافر ،
صدى راعب من خطى التاجر
له الويل ماذا يريد ؟
حديد عتيق
رصا ... ص
حديد !
لك الويل من تاجر أشأم

ومن حائض فى مسيل الدم

ومن جاهل أن ما يشتريه

لدرء الطوى و(النّوى) عن بنيه

قبور يوارون فيها بنيه .

فقضية السلام ، هى قضية الإنسانية والبشرية على وجه الأرض .. لكن الأطفال ، وهم جزء من كل ، أكثر حساسية للسلام .. من هنا كان التمسك بموقفهم اتمنى خلال سياق القصيدة .. وهكذا استطاع الشاعر وهو يقبض على الطفولة ، أن يفجر طاقات اللغة وقدراتها على التعبير ..

(جـ) الطفولة والموت بالمجان :

الأطفال فى أرضنا العربية المحتلة يموتون بالمئات بالرصاص الصهيونى ، ويموتون فى كل مكان مُحتل بسبب الجوع والإهمال ، ويموتون فى إفريقيا جوعا وحرما ا وجفافا . وهكذا أصبح الموت ساحة معدة يأوى إليها أطفالنا فلا يعودون منها .. وقصيدة : « الأطفال يموتون ، ويتمددون فى الخارطة الحمراء للشاعر الفلسطينى « على الخليلى » ، صوت نقى ، يجسد كل الأحزان والنواح والبكاء الذى يسود أرضنا العربية فى فلسطين ، أو كما يصفه الشاعر الدكتور المقالح « صوت يخترق الصمت العربى ، ويغوص بجذور التجربة إلى أعماق المأساة الدامية .. إن ميت الأطفال هنا ليس الموت الطبيعى ، الذى يدرك عددا من الأطفال فى العالم ، إنه نوع من الذبح والقتل الجماعى ، قتل الرجل الفلسطينى القادم ، وهوفى مهده ، حتى لا يأخذ دوره فى صف المقاتلين إن أطفال فلسطين الذين يموتون قتلا .. لن يكون العدو الصهيونى المسئول وحده ، بل سيشاركه كل الزعماء العرب ، والسماسرة والتجار بصمتهم الجبان » ...

إن مخطط إسرائيل أن تنفى المستقبل العربى بفلسطين من أجل مستقبل أطفالها على حساب أطفالنا ، وذلك بقتلهم جميعا وموتهم موتا مجانيا . ومن هنا كانت حون قصيدة الشاعر الفلسطينى « على الخليلى » لحونا حزينة كابية نائحة لما يلم بأطفالنا من اغتيالات ، اغتيال لنفوسهم أو اغتيال لوطنهم ، أو اغتيال لمستقبلهم ، أو اغتيال للحياة من حولهم ، أو اغتيال لآبائهم ، أو الزج بهم فى السجون والمعتقلات ..

فالموت يحاصرهم ويحصدهم بصورة أو بأخرى .. وهكذا يتغنى الشاعر أغنيات حزينة لموت الأطفال بالمجان فى وطننا العربى وهو لا يخص طفلا بعينه بقدر ما يعبر عن مأساة الأطفال بعامة ، وتناول ما يجرى لفلسطين على يد اليهود والصهاينة بخاصة :

ضيعت الفرس ببادية الشام وبوابات البحر المتوسط
ونقلت كرة الأطفال المثقوبة فى قدمى ،
لاحقها الأطفال المنبوذون ،

تلونت الكثبان/ الأسماك/ اللؤلؤ والقمر الحجرى/ بقايا أحذية/ كراريس/ حكايا/ غرر الأطفال المذبوحين .

قد أخليت البادية/ البوابات/ الكرة/ الفرس :
امتلأت أمى بالحبل الكاذب ،
واكتمل المنفى
أى طنون تكتسح الأطفال على آبار الدم والدينا
– أفكر بالموت ،
– لأعرف فى اللون ؟
– إنى تمدد فى كل الخارطة الحمراء
تصاخبت الأرحام على النطقة ، لم تدرى وجهه
يا أم الأولاد الباقين على الأصلاب رذاذا يبسه الحب ، الشهوات الفجة
تنضج ذاكرة الدم ،
ولا تنضج ذاكرة أبو الهول ، وبادية الشام وبوابات البحر المتوسط ،
واغادر نفسك
انداح وأسكن نفسك
اركض ما بين أعنة قافلة السمسار – القتلة ،
بين الزعماء – القتلة ،
بين التجار – القتلة ،
بين الوعد وعينيك

أتعب – أبكى – أطعن صدغى
بالكف المطعون .
سويتك وجهى
سويتك نجما – نهرا – فاجعة ،
سويتك أمى ... .
وأدق جدار الرحم
أدق الرحم ... .

(د) الأطفال والهزائم :

وعندما تنزل بالعرب الهزائم من سنة ١٩٤٨ حتى كتابة هذه السطور ، وإلى ما شاء الله ، وإلى أن يأتى جيل يزهد فى التبعية ، وفى قبض البلايين من مراكز المخابرات ، ويكون ملتصقا بوطنه وأمته وقومه ودينه ، حينئذ يتاح لنا النصر .. وإلى أن يحقق هذا فلا نصر مطلقا بل استعباد واحتلال وتبعية . من ثَمّ فإن كثيرا من شعرائنا يتجهون إلى الأطفال ليجدوا عندهم الخلاص من هذه الهزائم ، أى إلى الصغار الذين لم يتلوثوا بأجواء الهزائم وعواملها .. إن جميع الشعراء الحالمين ، قد فقدوا الثقة فى الكبار ، فتجهوا إلى الصغار الذين مازالوا أنقياء طيبين ، يرون الأشياء بإدراك فطرى أصيل .. وحس إنسانى عفوى .

والشاعر « نزار قبانى » أحد هؤلاء الشعراء الذين يلجأون إلى الأطفال : لدى كل هزيمة فى قصيدته : « أطفال الهزيمة » ومنها :

يأيُّها الأطفال ...
من المحيط للخليج ، أنتم سنابل الآمال
وأنتم الجيل الذى سيكسر الأغلال
ويقتل الأفيون فى رؤوسنا ... .
ويقتل الخيال ...
ويأيُّها الأطفال أنتم – بعد – طيبون
وطاهرون ، كالندى الثلجى ، طاهرون

لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم ... يا أطفال
فنحن خائبون ... .
ونحن ، مثل قشرة البطيخ ، تافهون
ونحن منخورون .. منخورون ... كالنعال
لا تقرأوا أخبارنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا أفكارنا
فنحن حيل القيء ، والزهرى ، والسعال
ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال
يأيُّها الأطفال :
يا مطر الربيع .. يا سنابل الآمال
أنتم بذور الخصب فى حياتنا العقيمة .
وأنتم الجيل الْذِى سيهزم الهزيمة ...

(هـ) الأطفال .. والثورة :

هناك علاقة بين الثورة ، والأطفال .. فالثورة تغيير لواقع مهترئ نحو الأفضل نقاء وصفاء ، وتجاوزا لكل النقائص . والطفل ميلاد جديد ، وتغيير لواقع إنسانى مهترئ نحو رجولة شجاعة نقية ، صافية ، تتجاوز كل النقائص .. فالطفل بإدراكه الطفولى العفوى الفطرى ، يرفض كل الهوان ، والمذلة ، والتبعية والفقر والظلم والتخلف . وهو لذلك نموذج بشرى للثورة .. بل هو كما يذهب الدكتور المقالح ، « فى مقدمة هذه النماذج الثورية الرافضة للأوضاع » . من ثم كان إدراك الشاعر عبد الوهاب البياتى لكل ما تعنيه ثورة الطفل ، وما تحمله من صفاء ونقاء ، وما تشى به من تفاؤل وأمل ... وفى قصيدته : « قمر الطفولة » تصوير وتعبير عن الطفل رمز الوطن ، والطفل رمز الأرض العربية المستباحة ، والطفل رمز الثورة ، والطفل رمز المستقبل الواعد ، والطفل رمز الحياة الحرة المتقدمة ... والطفل الذى هو ابن المستقبل الذى لابد أن يجىء بعد أن تغيب وجوه شائهة أدانها التاريخ لخيانتها ، تلغ فى دماء أطفالنا ، وتحول لياليهم إلى زنزانات ، وآمالهم

إلى حبال ومقاصل وقبور لشنق العصافير الواعدة بالفجر الجديد ووأدها ومن هذه القصيدة يقول البياتى :

قمر الدموع على هضاب الليل غاب
والطفل والعصفور والخيط الذى ينسال من باب لباب
يلتف حول مدينتى
حول الرقاب
وطنى يكلل رأسه تاج العذاب
والشوك والدم والضباب
قمر الطفولة فى التراب
عريان تنهش لحمه
عريان تأكله الكلاب
أواه يا وطنى
ويا طفل تمزقه الحراب
يا زورقا يهتز فى ريح المغيب
ويا مناديل الغياب
إنى أرى عبر المذابح والخراب
قاع البحيرة والسنابل والربيع على الهضاب
وأرى الذئاب على طريق الشمس تفترس الذئاب
وأرى المسوخ يذيبها الفجر العظيم
وأرى قناديل الشباب
وأراك يا قمر الطفولة مشرقا فى كل باب

(و) **الطفل والشعر :**

هناك علاقة جمالية وفنية واستدعائية بين الطفل والشعر ، وهى علاقة خالـة ، لأنهما ينبعان من نفس الينبوع ، وهما كل ما تبقى لنا فى خضم الحياة : الطفل ، ونحـم معه وبه

وله فى مستقبل يعد ، ومازال الغيم يكتنفه ، والشعر الذى هو الأداة الصادقة فى التعبير عنا ، وعما ندفنه فى أعماقنا ولغة خطابنا نحو هذا المستقبل .. والشاعر « نزار قبانى » يحاول أن يضل قابضا على حاضره ومستقبله برؤية طفل وأن يظل طفلا وهو يتعامل مع الأشياء ، ويعيش الحياة .. وإنها دعوة منه إلى « عالم الطفولة » وما يحمله من دلالات وإرهاصات . وإذا كنا قد جربنا عالم الكبار فيئسنا من الحياة .. فلنجرب عالم الأطفال لننبت الأمل فى[1] العيون ولتزداد قبضاتنا ونحن نتمسك بالحياة :

خطيئتى الكبيرة الكبيرة
أنى يا بحرية العينين ، ويا أميرة
أحب كالأطفال
وأكتب الشعر على طريقة الأطفال
فأشهر العشاق يا حبيبتى
كانوا من الأطفال
وأجمل الأشعار ، يا حبيبتى
ألفها الأطفال ... .

خطيئتى
أنى أرى العالم يا صديقتى
بمنطق الصغار ... .
ودهشة الصغار ...
وأننى أقدر فى بساطة
أنْ أرسم النساء فى كراستى
بهيئة الأشجار
وأجعل النهد الذى اختاره
طيارة من ورق ...
أو زهرة من نار

---

(١) اعتمدت فى دراسة هذه النماذج العمودية والحديثة على الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح ، الشاعر الإنسان ، فى دراسته الوافية عن « أدب الطفل » التى ألقاها بالجزائر ..

فالطفل فى عيون هؤلاء الشعراء . كان يمثل الحلم القومى ويعبر عن المستقبل ، ويصور الواقع المحزوم من المتوقع ويمثل الشوق واللهفة نحو أرض عربية حرة وأقوام يمتلكون صناعة الحياة ، ومعانقة القادم . وعند هذه النقطة الأخيرة ، ربما نكون بحاجة شديدة ؛ لإبراز جانب هام من العاطفة ، الروحية نحو الخروج من المأزق الحضارى ، الذى وضعنا فيه أو وضعه الغير لنا .. فالطفولة الحقة ، التى تمثل لبنة صالحة ، فى البناء الحضارى ، هى الطفولة ، القادرة بحكم التربية الصحيحة ، على العمل فى سبيل هذا القادم وليس مثل الأدب منهجا ، للتربية الشاملة .. وهو لذلك تحول إلى رمز ، يفيض بالأمل مرة ، وبالمعاناة مع واقع مهزوم مرة أخرى ، وبالحيوية ، ودوام الموجة والألفة ، والصدق فى مواصلة الكفاح من أجل المستقبل الواعد دوما ، وباستمرار .. بسطة الإلهام مع الطفل ، ورموزه ، تتسع حتى ليمكن اعتبار الطفولة هى الإلهام الأصيل فى حياة الإبداع الأدبى والشعرى . والأدب من ناحية أخرى ، يمنح الطفل نموا نفسيا ، يجعله مستفيدا أكثر من النظام الأسرى والمعارف المدرسية .

*** * توجهات تربوية :**

إن دراسة مثل هذه النماذج الأدبية للأطفال الذين هم فى مرحلة ما بعد العاشرة ، أو لمعلمات رياض الأطفال توقفنا على التوجهات التالية :

١ – إنها تفجر فى الأطفال ينابيع الإبداع ، وتمكنهم من الإمساك بقضايا إنسانية حيوية بالنسبة للطفل وعالمه ، كما أنها تفيض عليه بالمشاعر الصادقة.

٢ – إن الشعوب لا تتقدم إلا عن طريق تنمية إحساس أطفالها تجاه الحياة .. وهذه النماذج دعوة جهيرة لمقايضة الحياة بالموت ، والحضور بمجرد الوجود ، بحيها تربية ، وبناء ، وتوجه إيجابى فى اتجاه الأجمل .

٣ – هناك علاقة ديناميكية قوية ، بين فهم الأطفال لمعارفهم المدرسية : واليومية ، ودروسهم المدرسية ، وتعليمات الأسرة : ومبادئ السلوك الديمقراطى ، و لحضارى ، والاجتماعى الصحيح ، والتربية الأدبية ، والتنشئة الجمالية ، والتعامل ع اللغة فى مستوياتها الراقية ...

(ز) أطفال الحجارة : للشاعر الدكتور أحمد هيكل

تجسد قصيدة « أطفال الحجارة » عاطفة شاعر عربي مصرى ، هو الدكتور « أحمد هيكل » تلميذ الدراسات العربية ، والإسلامية وواحد من أبرز أبناء جيل كلية دار العلوم ، فى عصورها الزاهرة ومن أصدق شعراء الانتماء ، للوطن العربى الكبير فى جميع مواقعه ، ومعاركه ، ومحاولاته نحو التقدم ، وتبرز فى القصيدة عاطفة الشاعر ، والمواطن العربى ، والإنسان ، تجاه منهج النضال الذى اختطه لنفسه ، « طفل الحجارة » ، وهو يقاوم العدو الصهيونى بحبات من « الحصى » ، « والطوب » فتفعل فعلها المدمر للكيان ، والشخصية ، والموقع ، والأمان والاستقرار ، يجسد الشاعر كل هذا ، ويبرزه ، تجاه أطفال الوطن الفلسطينى بموقعه العربى التاريخى ، والحنان ، والعطف الذى يكنه الشاعر لهؤلاء الأطفال ، والجزع الشديد عليهم من التعارض بين الموقفين : موقف البطولة التى يبديها الأطفال بأسلحتهم البسيطة « الحجارة » ، وموقف العدوان الذى يندفع إليه العدو الغادر ضدهم ، ونظرا للأثر العظيم ، الذى تركه أطفال فلسطين العربية ، على الوجدان العربى ، والعالمى ، وللمكانة ، التى احتلها نضاله ، على خريطة المقاومة العربية الباسلة ، والمساحة التى شغلتها قضية فسطين بسبب نوعية نضال الأطفال . سجل الشاعر هذه القصيدة ، إعلانا عن المستقبل الواعد للأمة العربية ، وإعلاء لشأن أطفالها وتخليدا لدورهم البطولى . ومن ثم كانت القصيدة :

مِـــنْ إبـــــاءٍ وانتمــــاءٍ وجَسَارةْ ... صاغت الأقدارُ أطفـالَ الحجـارةْ
أرست طيــــــرًا أبابيــلاً رَمَتْ ... بِيَدِ الحـــــق لكـــى تأخذ ثاره
كـــم حصـاةٍ أصبحتْ من عزمهم ... مدفعا يَخْشَى أعـاديهــــم أُواره
أرَّقُـــوا الخصــــــم فأمْسَى فَزِعًا ... يَرْهَبُ الليـــــلَ كما يَخْشَى نهاره
أشعلـوا الأرض لهيبـــا حَوْلَـــهُ ... كـم حريقٍ شَبَّ مـن قلب شراره

* * *

يـــا فلسطـــين ارقُبى فجــــر المُنَى ... إنهـم للفجـــر والنصر بشــــاره
جَددُوا العـــــزم وأَحْيَوْا أمــلا ... كـــاد يَلْقَى فـى دُجـا اليأسِ قراره
أيْقَظُوا النُّوَّامَ عـــن حــق لهـم ... من مِكالِ الخصم قد صار خساره
جَمَّعوا الشمــــلَ فأضحى موكبـا ... يَهْتدِى بالقــدس فى الزحف مناره

بأبــى أطفـــــال شَعْبٍ صَمَّموا فمحوا عن ذلك الشعب إساره !!

* * *

يـــا زُهُـــورًا مــا بها غير الشَّذَا يا قلـوبا مــــا بها غير الطهاره
كلُّ طفلٍ فـى الدُّنـــا فـى عُمْرِكم آمنٌ يَعْرِفُ فـــى الأحيـاء داره
بينما الــــواحد منكم ضـائع بين حـزن وعـذاب ومـــراره
أىُّ عصـــرٍ ظــــالم كلَّفكـم أن تَشُبُّوا كل يـوم ألـف غاره ؟ !
أىُّ عصرٍ للـــوغى فَرَّغكـم ؟ ! إنـه عصر انتهــــاك للحضـارة !!

* * *

ليتنى أرجـــع طفــلا مثلكـــم أغمر الغــاصب نــارا لا حجاره
أتلقــى عنكمُ تعذيــــــه .. وهْوَ فـى تعذيكم يُطفىء نـاره
ويَرَى فـى قتــــل طفـل صَوْلَةً وانتصــــارا زائفــا يَسْتُرُ عـاره
يَوْمَ وَلَّـى هـــاربا منهزمــــا تَشْهَدُ الـدنيــــا أسـاه وانكساره
عَجَّــل الله بكـــم أيــــــامـه وأرانــــا بأياديكم دمـــاره !!

رؤية فى اتجاه أهداف النص

(أ) التحليل والتعليق :

الشاعر يرسم صورة للطفولة على أرض فلسطين ، وهى تقاوم فى بسالة ، وشجاعة ، العدو الغاصب لأرض العروبة والقدس العربية ، وسلاحهم فى هذه المقاومة الحجارة ، فكأنهم طير أبابيل تحرك فى جماعات : وقد أرسلته الأقدار ليرمى جحافل العدو الصهيونى بحجارة من سجيل . من ثم تحول كل طفل إلى عزيمة وجسارة وحجره إلى مدفع ، وقوة تقتحم ، حتى أحدث هؤلاء الأطفال العرب فزعا ، ورعب فى قلوب وأفئدة العدو فأرقوه ، وأحالوا حياته إلى جحيم وأصبح يخاف الليل ، ويفزع من النهار ، وتحولت الأرض إلى لهيب ، ونشب فى كل قلب من قلوب الأعداء حريق أشعلته شرارة الأحجار تتوالى حصاة وراء حصاة . حتى أحدثوا فزعا ، ودمارا ، واستحقوا بذلك احترام العالم ، وسرت فى شرايين قضيتنا العربية حيوية دافقة بالعزم والإرادة تلك الصورة التى رسمها الشاعر لأطفال الحجارة ، أثارت شوقنا ـ لهفتنا إلى

معرفة المزيد عنهم ، وعن انعكاسات دورهم على القضية العربية بعامة وفلسطين بخاصة .. إن أطفالنا بهذا المنهج النضالى ، قد أشاعوا الأمل ، والتفاؤل ، ودقوا بذلك أبواب المستقبل فكان جهادهم الصغير والنبيل بشارة جعلت فلسطين ترقب المستقبل الواعد ، وتنتظر فجر الأمانى وهو يطلع من بين شرارات الحجارة ؛ وهم – أيضا – قد جددوا العزم ، وأحيوا المنى وأيقظوا النوام ، وحركوا الساكن الهامد ، وتأثرت الأمة فجمعت شملها ، وتجمع متفرقوها وصار الجميع فى موكب يحدوه إلى المستقبل أصوات الحجارة ، وهى تتنزل على العدو الصهيونى صواعقًا ، وويلات ، ومستقبلاً مظلما فاستحق كل طفل أن نكون له فداءً ، وفتح التاريخ أنصع صفحاته ؛ ليسجل فيها شجاعتهم النادرة ، وبسالتهم التى تفوق بسالة الكبار كما سجل تاريخ الإنسانية أنه فى يوم من أيام الشعوب المناضلة ، وقف أطفال عرب صغار يتلقون بصدورهم رصاصا – العدو الطائشة ، ويقاومونها بحجارتهم التى كانت أشد فتكا بالعدو من قنابله التى صارت مشاعل تبنى للحجر موقعا من رأس العدو الغادر الجبان ..

إن العالم كله يحنى رأسه إعجابا وإكبارا لشهداء الحجارة ، وأطفال الفداء والكفاح الذين باستشهادهم ، وفدائهم ، ضربوا أروع الأمثلة ، ومسحوا عن الشعب العربى عاره وقيوده ، والصورة المهينة التى ألحقت به فى حروبه لخسارة ، والتى انتصر لنا فيها أطفال الحجارة . إنهم صورة للبسالة والجسارة وهم فى الواقع زهورٌ أينعت ، وبعثت الشذا ويمتلكون قلوبا طاهرة نقية .. وقد كلفهم العصر الظالم المليء بالأحزان ، والاضطهاد ، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان الكثير من المعاناة ، حتى حولهم عصرهم هذا إلى قوة تبطش بالعدو ، لأنها ضائعة بين حزن ويتم ، واغتراب .. وكان المأمول أن يكونوا زهورا يانعة تضمهم أحضان الأبوة والأمومة الدافئة ، ويتلقون مباهج الحياة فى مدارسهم وأوطانهم ، ورحلاتهم ، ويشبون فى وطن ينتمون إليه ، وينتمى إليهم . إن العصر الذى حملهم صغارا كل هذه المسئوليات . إنما هو عصر أفرغ من الإنسانية ، ومن الحضارة ، واستحق لعنة الله والناس أجمعين . هذا العصر الذى يشهد شراذم يهودية تعذب أطفال العرب وتستبيح دماءهم ، ويرى فى مقتل طفل انتصارا ومجدا زائفا .. لكن أطفالنا ، قد أشهدوا الدنيا بأن عدونا نمر من ورق ، وأنه يولى هاربا منهزما منكسرا خلال لحظة مقاومة صادقة باسلة من طفل عربى يحمل بيده حجرا وبالأخرى زهرة يخاطب بها المستقبل وبهذه الصورة المشرفة للطفل العربى سيعجل

الله بالأطفال العرب أيام الصهاينة الأعداء ، وستورق أرضنا مرة أخرى ، وسيذكر التاريخ أن أمة لم تمت ، لأنها أنجبت أطفال الحجارة فجملوا بذلك صورة الطفل ، واستعادوا براءته ، ونقاءه وبريق عالمه ، حتى تمنى كل رجل وامرأة وشيخ أن يعودوا أطفالا صغارا لينضموا إلى موكب أطفال الحجارة .

(ب) توجهات عامة :

١ – خلال هذه القصيدة ، نبصر طفلا متمردا على الظلم ساخطا على العبودية ، مؤمنا بوطنه ، ودينه يؤمن بأن النضال سبيل إلى الحياة الكريمة وأن الوسائل مهما كانت بساطتها وقلتها فهى قوية ، إذا توسل بها المؤمن بقيم النضال والمتمسك بتقاليد العزة والحرية والكرامة .

٢ – وطفلنا العربى ، قد تأثر فى علاقاته اليومية بموقف آبائه ، وهم يخوضون معارك غير متكافئة ضد العدو الصهيونى ، فاندفع فى عفوية ، وتلقائية ينضم إلى موكب النضال ، وكانت الحجارة البسيطة أقوى ما يملك ، مع أنها فى الواقع أضعف ما يتوسل به المقاومون ضد عدو يملك ترسانة من أعتى أسلحة العالم فقلبوا بذلك موازين القوى ، و ستعادوا – أيضا – التاريخ . حيث كان الله مع القلة بأسلحتها البسيطة ضد الكثرة بأسلحتها التدميرية ؛ لأن القلة مؤمنة وصادقة ، وصاحبة رسالة ، وقضية عادلة وهكذا نستطيع أن نقدم النموذج ، من عالم الأطفال ، إلى الأطفال ، ونضرب لهم ، بهذه المناسبة الكثير من أمثلة التاريخ .

٣ – القصيدة وهى تتحدث عن الأطفال ، من خلال نضال أطفال الحجارة الفلسطينيين ، إنما تسعى لتقديم رؤية الشاعر ، وموقفه من حركة النضال القومى والوطنى والدينى ؛ ولذلك يسعى لوصف موقف بطولى للأطفال يؤكد من خلال حرصه على أن يكشف عن مبادئ إنسانية ونضالية ، وقيمية عظيمة .. فالطفل جزء من حركة الحياة فى أصعب ، وأقسى مراحلها ؛ أى عندما تهان المقدسات .. من ثم فقد شكلت القصيدة رؤية إنسانية نحو الأطفال وقد اتسمت هذه الرؤية بالعمق ، والإيحاء ، وذلك من خلال تلاحم الأطفال بمجتمعهم ، وأمتهم وآبائهم ، وأجدادهم ، ومقدساتهم ، والنظرة إلى الموت والمصير ، والحياة .. وإن الأداء الفنى فى صورته الأشمل قد أعان هو الآخر على أن يظهر التضاد بين الضعف ، والقلة فى جانب ، والقوة والكثرة ، فى الجانب الآخر ، وذلك لصالح الأطفال . ولا شك أن القصيدة عن الأطفال ، وللأطفال ، تمنح المتعاملين

مع أدب الطفل ، وعيا ، وإحساسا ، بضرورة الربط بين الأطفال وأمتهم ووطنهم ، ودينهم ، وأرضهم ، وتؤكد على الانتماء فى إطار هذا الربط ، وإن التضافر بين أجزاء الموقف النضالى للأطفال ، يعطى للوطن كل الولاء من جانب الصغار ، وهذا فى حد ذاته ، قيمة من أدب الطفل ومن خلال النظرة الكلية الشاملة ، التى انتهت إليها القصيدة .

٤ – سواء أكانت ، هذه القصيدة سياسية ، أو قومية أو إنسانية ، فإنها استطاعت ، أن تقدم رؤيتها واحتضانها للطفولة المناضلة ، فى غير مراحل نموها حيث مراحل الطفولة ، هى الترف ، والنعيم ، والوداعة والحنان ، والحياة ، والعطف ، والأبوة ، والأمومة ، واللعب لكن العصر ، كان غادرا ، والقوى العالمية ، كانت أسوأ والاختيار ، أمام الأطفال ، كان أصعب .. ومع ذَلِكَ تم كل هذا ضمن بنية ، امتزج فيها الضعف بالقوة والضمير بالتحلل ، والانكسار بالانتصار ، ثم استبقت القصيدة ، نقطة التنوير ، وهوالانتصار ، مهما طال الانتظارُ .

٥ – دراسة هذه القصيدة للأطفال ، تشكل توجها تربويا نحو تعميق خبرة الأطفال ، تجاه ذواتهم أولا ، وتمنحهم رؤية أشمل ، وتتيح لهم التعرف على نماذج من عالمهم ثانيا ، وتبصرهم بحقيقة وجودهم ، وترفع من شأن هذا الوجود ، الذى يجعل وجود الأطفال هو البداية الحقيقية ، لأى طريق ، تسلكه المجتمعات نحو التقدم ، والتحرر ، والرخاء والسلام ..

(ج) الطفل الرمز :

وعند شعراء الظاهرة الحديثة ، الطالعة من أرض التجربة ، لدى « نازك الملائكة » وعبد الوهاب البياتى والسياب ، ثم « صلاح عبد الصبور » ، و« أحمد عبد المعطى حجازى » نجد الطفل ، قد تحول عندهم إلى رمز للحب ، وتتحرك التجربة الشعرية حول هذا الرمز ، فى دوائر فنية قصصية غنائية وينمو الموقف بنماء هذه التجربة الشعرية حول هذا الرمز ، فى دوائر فنية قصصية غنائية يُنمّى الموقف بنماء هذه التجربة . وقصيدة الطفل للشاعر صلاح عبد الصبور ، يرى فيها الدكتور غنيمى هلال أنها قصيدة رمزية .. فالطفل فيها هو الحب ، وهذا معنى مألوف ، ينميه الشاعر ، فى القصيدة ، ويبنيها عليه »[1] ولما كان الطفل هو رباط الأسرة وعقدة العلاقة بين اثنين وثمرة للحب بينهما

(١) النقد العربى الحديث – الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٩ – دار النهضة العربية بالقاهرة ص ٤٥٧ .

كان الرمز هنا واضحًا ، وضوح الموضوع نفسه ، وتكون العلاقة بين الرمز وهو الطفل ، والتجربة وهى الحب ، علاقة عضوية مصيرية وتوظيف الطفل هنا رمزا للحب هو توظيف سياقى عميق ؛ لأننا كثيرًا ما نجد استخدامات الرموز لتتأتى فى غير سياقه وأن بعض الشعراء . يستخدمون الرموز استخداما سطحيا ؛ لأنهم « يخفقون فى أن يخلقوا له السياق الرمزى المناسب . فضلا عن عدم الارتباط الحيوى ، فى شعرهم بين الرمز والتجربة .. فالواقع أن الرمز إذا كان له مغزى فإن هذا المغزى . يختلف نوعا من الاختلاف ، من سياق إلى آخر ؛ لأن الرمز ، من حيث هو وسيلة لتحقيق أعلى القيم فى الشعر ، هو أشد حساسية ، بالنسبة للسياق الذى يرد فيه ، من أى نوع من أنواع الصورة أو الكلمة .. فالقوة فى أى استخدام خاص للرمز ، لا يعتمد على الرمز نفسه ، بمقدار اعتماده على السياق »[1] .

فرمز الطفل ، الذى يدل على الحب هو موظف فى خدمة السياق ، وأصبح من القوة ، بحيث يمكن أن يتجاوز حدود المدرك ليسكن اللغة وكأنه يدل دلالة حقيقية على الحب ، أو أن يكون معنى من معانى الحب .. والرمز فى القصيدة يبدأ حينما تخبو الحياة وتهمد جذوتها ويعيش الشاعر تجربة هذا الأفول وقد صور « صلاح عبد الصبور » تجربته مع الحب فى قصيدة غنائية رمزية رومانسية شديدة الوله إلى المسرح الدرامى ، وقد صاغ كل هذا فى تتابع تحليلى وصفى ، قصصى ، ثم انتهى منها وقد تركنا ونحن فى حيرة من أمرنا ، وأمر هذا الرمز .

هل هو تعبير عن حبه ، الذى انطفأت شمعته ، وضعفت وقدته ، وخبأ ناره وأخيرا استودعه مدافن الحياة ؟ أم أنه طفله الحقيقى الذى تسلل إليه الموت شحوبا ، وذبولا ، وقلبا ضعيفًا ونفسا خافتا ، وصدرا واهنا وعينا غائرة فأخذ يحسد إحساسه بمأساته فى فقدان طفله الحقيقى ، حتى كأننا نقف فى هذا الإحساس بفقدان الطفل صياغة جديدة ، وصورا نابضة بفن الرثاء الذى يتفق ، وتطور الحياة الإنسانية ، والثقافية .. وسواء هذا المعنى ، أم ذاك ، فإننا سنقف خلال هذا النص الشعرى على أننا أمام طفولة تكابد الموت ، وتعانى المصير والوجود ، وأبوة وأمومة ، تكابدان الفقدان والحرمان ، والانقطاع ، وأمام صياغات لغوية شكلت مع التجربة ، والرمز والسياق العام ، والخاص ، وحدات عاطفية سديمية ، وتعتمد هذه الوحدات على قالب فنى درامى يحاول إبراز طاقات المتلقى ،

---

(١) الشعر العربى المعاصر للدكتور عز الدين اسماعيل – دار العودة . بيروت سنة ١٩٧٢ ص ٢٠ .

ويفجرها ، ليسير بها ، نحو الإحساس بالطفولة وهذا هو المبتغى من « أدب الطفل » .. حيث الإحساس به ، وبعالمه ، وخصوصيات هذا العالم ، وتميزه خلال النمو المعرفى والجسمانى ، والاجتماعى ، تحتاج إلى مدخل أدبى ، ومفتاح وجدانى إذ ليس هنا أقوى من الأدب ولوجا إلى عالم الطفل ، وليس هنا أقوى تأثيرا ، وانفعالا بهذا العالم أكثر من الفن بعامة .. وإليكم قصيدة « الطفل »[1] للشاعر « صلاح عبد الصبور » ، فى مستوياتها اللغوية والدلالية والتربوية :

أولا – النص :

قولى ... أمات ؟

جسيه ! اجسى وجنتيه

هذا البريق

ما زال ومض منه يفرش مقلتيه

هذى أصابعه النحيلة

هذى جدائله الطويلة

أنفاسه المترددات بصدره الوردى ، كالنغم الأخير

من عازف وفد النعاس عليه فى الليل الأخير

وتلك حبهته النبيله

بيضاء يلمع فوق لوحتها الزبد

قولى .. أمات ؟

وأنا غموت بلا أحد

وسألتنى ما الوقت ؟

هل دلف المساء ؟

أتذهبين ؟

ولم نطيل عذابه حتى الصباح ؟

---

(١) الناس فى بلادى ص ٣٥ .

لن يرجع الصبح الحياة إليه . ما جدوى الصباح ؟
ومض الشعاع ، بعينه الهداب ومضته الأخيرة
ثم احترق
ورأيت شيئًا من تراب القبر ، فوق الوجنتين
رباه ! فوق الصدر ، فوق الساعدين
العازف المغلوب نام ، ومات فى الصمت الكبير
نغم أخير ..
وسألت مات ؟ أجل
أجل ، سأبكيه ، سنبكيه معا
ووجمت ، لا الجفن اختلج
ونهضت ، ثم فتحت هَذَا الباب فى صمت ملول
ونظرت خلف الباب ، تلتمسين سلمه النزول
ووقفت ، ثم رجعت ، فى عينيك شىء من وهج كى تلتمسيه ؟
أو تغمضى عينيه . أو تتأمليه
لا تلمسيه
هذا الصبى ابن السنين الداميات العاريات من الفرح
هو فرحتى
لا تلمسيه
أسكنته صدرى فنام
وسدته قلبى الكسير
وسقيت مبسمه دمى
وجعلت حائطه الضلوع
وأنرت من هدبى الشموع
ليزوره عمرى الظمى

ثانيا – المستوى الدلالى :

إن الحب هو المحور الأساسى ، الذى ترتكز عليه محاور هذه القصيدة ؛ لأنه يراه شيئًا ضروريا للأسرة ، وللمجتمع الإنسانى . الحب الذى تمنحه الأم لطفلها والحب الذى يعطيه الأب لطفله ، والطفل المحبوب من الأسرة رمز للحب الذى يجمع بين اثنين ، وأفراد الأسرة والمجتمع . ويمكن النظر إلى الطفل على أنه رمز للحب الذى أخذ لظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية يرحل عن عالمنا ، وقد اتخذ الشاعر ، رمز الطفل الذى ينزع النزع الأخير ، تعبيرا عن رحيل الحب ، بالمعنى العام والشاعر مع رمزه ، يحاول تحليل مشاعره ، وإحساسه على النحو التالى :

١ – إنه يتأمل الجسد المسجى ، ويعاوده الأمل مرة ، وراء مرة فيطلب إلى الأم (الحبيبة) أن تجس مواقع الحياة ، ومواضع الحيوية فى هذا الجسد الطفولى ، والذى يدفعه إلى هذا التصاق بالحياة عن طريق هذا الطفل ، ثم يأخذ فى وصف أجزاء منه تنبض بجمال الوجود ، وتفيض بالعذوبة والرقة ، والوداعة ؛ فالأنامل رقيقة ، والشعر طويل وومض الحياة مازال عالقا بكيانه .. وهو ربيب مشاعر صادقة وأحاسيس دفينة . وهكذا أخذت الصور تتوالى ، وتتلاحق لتفى هذا الطفل حقه من الأوصاف والآمال ، والآلام . حتى استحال إلى نموذج نفتقده فى حياتنا ، التى جف الأمان فى ينابيعها ومحل السلام فى نواحيها ويديم النظر إلى الطفل ، على أنه الابن المفقود ، الذى كان أملا باسما فى حياة أمه وأبيه ، وأن مرته قد انعكس على أمومته وأبوته يأسا وحزنا مقيما وانطلاقا من هذه الإحساسات استطاع الشاعر الأب أن يكثف عواطفه ومشاعره فى هذه الصور النابضة بصدق مشاعر الأب الشاعر تجاه طفله الراحل وقد استطاع هذا الأب أن يوظف الفن الشعرى ، إلى أن ستحال إلى كيان له سمات وميزات خاصة تصبغ مختلف نواحى الحياة الإنسانية ، وبهذا تحقق التعبير عن المشاعر ، والعواطف ، والقيم الثابتة الكونية التى تضفى على الفن الشعرى قيمه الإنسانية وقدرته الفائقة على استمالة قلوب ، وعقول المتلقين .. فهناك طفل يجود بآخر أنفاسه وهنالك أبوة تعانى وتكابد الحرمان من هذه البنوة ، مما جعل العواطف والأحاسيس صادقة ويحيط الموضوع نفسه بغلاف من الصور النابضة القابضة على مجمع المشاعر والعواطف .. من ثم ينبغى معايشة هذا الغلاف ، لأنه جزء من الموضوع . حتى لا يكون تعاملنا مع موضوعات مجردة لا روح فيها ، ولا نبض ، ولا حياة .. وحيث هناك صلة وثيقة ، بين الألفاظ وصور العلاقات وموت الطفل .. والتى تنعكس بشكل مباشر على الأبوة بعامة والمتلقين من الآباء والأطفال

بخاصة إذ عندما ينتقل الأدب من مجرد التعبير عن أى شيء ، إلى التعبير عن أحب الكائنات والأشياء والموجودات فإنه حينئذ لا يستطيع أن يقدم مساهمة فعالة فى تصوير العواطف والمشاعر التى تحيط بالموضوع إلا إذا كانت الكلمات والصور والأساليب ، واللغة مجالا لإنتاج أرقى العواطف وفى خدمة الإنتاج الروحى الرفيع .. من ثم كانت العلاقة بين التعبيرات واللغة والأساليب والموضوع علاقة روحية وعاطفية وعضوية وكان منهج التعبير عنها هو فى مستوى رثاء أب شاعر لابنه الوحيد وفوق هذا كله .. فالطفل بطل هذه القصيدة الغنائية الرومانسية الشفيفة ، إنما يمثل حلما لأبوة ، تتحرك نحو حياة أفضل ، وموت الطفل يأتى ليعصف بهذا الحلم والمأساة كامنة فى هذا الصراع الدائر بين أحلام الآباء يحققونها بأبنائهم وبين الموت الذى يطفىء الومضة فى أفاويقها ، مخالفًا بذلك وظيفته مع البشر وقوانين الحياة ، التى ترى الموت حلا أبديا ، ومريحًا لشيخوخة موفية ، وفى هذا الصراع تتجسد بطولة الآباء ، والأمهات ، الذين يعيشونه ، ويطيقونه إنهم مع الحياة ، يخوضون معارك ضد الموت ، يحققون بذلك بطولات ملحمية ، ماتزال صفحاتها مفتوحة لتحكى معاناة الأبوة ، ومكابداتها .. وفى هذا كله تتضح عظمة الإنسان بعامة ، والآباء بخاصة وتتجلى قيمة الشعر ، والفن حينما يحاول الاقتراب من عالم الأطفال ، بهذه الشفافية ، والنقاء والصفاء والإخلاص للفن ، والإنسان معا وإن جدلية الحاضر ممثلا فى الآباء ، والقادم واضحا فى الأبناء تعطى دلالة على حتمية الاستمرار. وموت الطفل ، هو رمز للانقطاع والخروج على نواميس الحياة كما ينبض به الفن .

ثالثا – المستوى التربوى :

إذا كان الأدب وفيه الشعر يقع فى ضمير الكاتب ، كما أنه نسيج متداخل من الرموز ، يتكامل بواسطتها إحساس المبدع والمتلقى فإنه عمل تعبيرى فنى أبدعه إحساس إنسانى معين ؛ لذلك ينبغى أن يفهم الأدب والشعر فى ضوء صلاته بالزمن وبالمناسبة وتحليلنا للعمل الأدبى يبدأ من نقطة فهمنا لإحساس مبدعه ، والمبدع يقول كثيرًا ـ وعلينا أن نعيش نصه فى مستويات متعددة وتحقيقا لهذه الفاعلية فإن النص يمنحنا مستوى تربويا يتمثل فى المعانى وإشاراتها ، والأساليب ودلالاتها وفى الموضوع نفسه ، ومتهج معالجته ويتمثل هذا فى النقاط التالية :

١ – الطفولة تعنى البراءة والبكارة ، والنعومة ، والحداثة وهذه الصفات ينبغى التركيز عليها ونحن نقدم عالم الطفل للأطفال ، وللكبار على السواء ، تحقيقا لأصالة ونقاء الحياة

وربطا للأطفال بهذا العالم الذى يتأسس أصلا على معانى الفطرة التى تعتبر الطفولة ، رمزا للعطاء واللون المميز لعالم الموجودات .

٢ – الشاعر يريد أن يرسل لنا رسالة تربوية ، هى أن الطفل هو رسالة الوجود إلى الحياة ، فيجب الاعتناء به ، ووضعه فى الإطار الذى يناسب تحقيق رسالة الكون إلينا ، لذلك فهو يمثل الجمال لأبدى ، ويسكن أعز مكان بداخلنا ، ويلقى منا ، وحده الحب المطلق .

٣ – الطفل هو قرة عين والديه ، ومرضه ، وموته من الأحداث التى تهز الأسرة ، وتفجع المجتمع ، وللأطفال على أسرهم واجب حمايتهم ، وتربيتهم ، وتنشئتهم التنشئة الصحيحة وعلى المجتمع أن يوفر كل الظروف المناسبة ، لتحقيق كل مقومات التربية الصحية ، والنفسية ، والفنية المناسبة للأطفال فالأطفال هم شموع الحياة ، وأزاهير المجتمعات والبسمات فى وجود أفراد المجتمع ، والاهتمام بهم هو عمل حضارى ودينى .

٤ – الصور الفنية ، والتعبيرات الموحية التى جاءت ضمن التركيبات الفنية للقصيدة مثل : « هذا الوميض مازال ومض منه يفرش مقلتيه » أو « أنفاسه المترددات بصدره الوردى كانغم الأخير ، من عازف وفد النعاس عليه فى الليل الأخير » أو « هذا الصبى ابن السنين الداميات العاريات من الفرح » ففى هذه التعبيرات تكمن خصائص أدب رثاء الأطفال وتتخذ – أيضًا – للانطلاق نحو دراسة تربوية لغوية نفسية ، لبيان دور اللغة فى تنمية الإحساس بقيمة الطفولة فى الكيان الاجتماعى والإنسانى وإنتاج مفاهيم تربوية وجمالية وإنسانية وثقافية حتى يستطيع العاملون فى ميدان الطفولة ؛ – تربية وتعليما – الاستفادة من هذه الدراسات والنتائج فى تأليف « كتاب الطفل » وأدبه ومناهجه وإمكانات التفاعل معه .. فأدب الطفل بعامة ومنهج هذه القصيدة : « الطفل » بخاصة مقولات فنية وتستحيل إلى منهج وبناء معرفى فأنت تقرأ فنا .. لكن ما تقرأ إنما ينتج عندك معرفة حقيقية عن الطفولة والأطفال ، وعن عالمهم الإنسانى الرحب ، وطفولتهم المتعددة الدلالات معرفة بواقعهم الإنسانى ، ومعرفة بواقعهم الاجتماعى ومعرفة بواقعهم الثقافى ومعرفة بو قعهم التربوى ومن هذه الدلالات التى تنتج تلك النوعيات من المعرفة ، نستطيع الاقتراب الأكثر من عالم الطفل ، ونسبر غوره ونضعه على الطريق السليم .

٥ – تحتل اللغة مكانا بارزًا فى « أدب الطفل » وفى هذا النص الشعرى استخدامات للغة فى إطار الرمز أو الدلالة أو الصورة الفنية . ومن المفيد ، تربويا ، وتعليميا أن تختار

اللغة وتوظيفها فى هذا النص ، وأمثاله . حتى يمكن إثراء الطفل لغويا . وأن نختار السياقات اللغوية والدلالية ، والفنية التى تحمل لغة الخطاب الفنى أو التربوى ، أو المعرفى لتحقق للطفل مزيدا من المعرفة ، وتعمل على تنمية إحساسه ، وعاطفته وتصقل خبراته الخيالية ، والإدراكية ، وتستثمر فيه التوجهات الإيجابية التى يسعى النص إلى تحقيقها فنيا وإنسانيا : أى أن تكون هذه السياقات ، فى خدمة الطفل لينمو لغويا وعاطفيا ونفسيا ومعرفيا ؛ ولتنمو قدرته على التلقى والتوظيف .

٦ – تداخلت اللغة ، والموسيقى ، والدلالة ، والمعانى والأفكار ، والمشاعر ، وذلك فى سباقها الحميم من أجل إضاءة عواطفنا تجاه أبنائنا وأطفالنا.. فالشعر يتحول إلى كائن ينطق ويحس ، ويحزن ، ويتعاطف ، والكلمات تتحول إلى أنات ، وندوب ، وتنعى لنا موت طفل لكن النص الشعرى الذى معنا ، ويسجل لنا « موت طفل » هو نص – أيضا –للحياة .. حيث تبرق الحياة من سدف الظلام الكثيف التى تعاونت الصور على رسمها ، وتعميق ألوانها .. لكن الحياة فعلا كانت أقوى .. وهذا ما ينبغى أن نؤكد عليه ونحن نتابع قراءة النص وعرضه .

٧ – هذه القصيدة ، تبرز تعلق الآباء بالأبناء ورغبة الحاضر فى التواصل مع المستقبل . من هنا كان المزيج العاطفى قويا ، ومزج الخاص بالعام أقوى .. ولهذا كان استطاعت القصيدة أن تشكل من تجربة « موت طفل » تجربة إنسانية ، وتشكل دعوة – أيضا – إلى السلام ، ونبذ الحروب ، ومقاومة الأمراض ، والأوبئة ، حتى نضمن طفولة حرة ونحقق عالما طفوليا سعيدا .. فالقصيدة دعوة إلى إسعاد ، ورعاية الأطفال . وهكذا ينبغى النظر إلى أدب رثاء الأطفال ..

الفصل الثالث

شعر الأناشيد والأغانى

(أ) فى شعر الأناشيد ، والأغانى :

الشعر هو فن العرب الأول ، ومعمق الخصائص الصوتية فى لغتهم ومنميها ، وهو وسيلتهم ليقظة ذهنهم ، وتنظيم عقولهم ، وأداتهم لإرهاف وجدانهم ، وقدرتهم على التأمل ، ورقة المشاعر ، واغتناء العواطف ...

فإذا كان لكل حضارة فنها المميز من نحت أو مسرح أو فنون تشكيلية فإن الفن القومى الأول للحضارة العربية كان الشعر ، وسيظل هذا الفن ناهضا بأعباء إنسانية ووجدانية وتربوية . فالشعر يحاول بالكلمة المصفاة المنتقاة الممدودة مع الإيقاع الصوتى – أن يشيد للكبار بعامة ، وللصغار بخاصة عالما جميلا . ومهمة الشعراء فى أن يكون الجمال والرضا مأوى للناس ولكل الأطفال ... لكن الاختيار الذكى للشعر الذى نقدمه لأطفالنا ، هو الوسيلة الوحيدة لتقديم صورة جميلة للشعر أمام الأطفال .. حيث القطع القصيرة ، والقصائد المقطوعة والأوزان الخفيفة ، والإيقاع الواضح بتموجاته هو غاية ما ينبغى أن يكون مادة شعرية غنية مقدمة للطفل . كما أن الأناشيد ، وهى تلك القطع الشعرية ، التى يتحرى فى تأليفها السهولة ، وتوقع توقيعا خاصا ، وتصلح للإلقاء الجمعى وتستهدف غرضا وطنيا أو قوميا أو دينيا أو تحاول الاقتراب من المثل الأعلى أو تتمثل النموذج الأفضل – هذه الأناشيد بتلك الخصوصيات ، هى ما ينبغى أن تقدم – أيضا – للطفل ... فهى لون أدبى شائق محبب ، وتلحينها يغرى التلاميذ بها ، ويحببها لهم ، ويزيد من ارتباطهم الفنى والإبداعى بها ويعمل على تأكيد صلتهم بها ، وإقبالهم السخى والودود عليها ، حتى يمكن استغلالها تربويا إلى أبعد الحدود ، كما أنها تقوى روح الجماعة ، وتنمى الانتماء ، لأن التلميذ يشارك زملاءه فى إلقاء النشيد ويسهم فى ذلك بالصوت الجماعى القوى ... ومما يزيد من شغف التلاميذ بهذه المقطوعات الشعرية ، أنهم يؤدونها فى أجمل أوقاتهم ، وأحفل هذه الأوقات بالعمل الجماعى . مثل الرحلات ، والمشاركات العامة. وإذا كان للأناشيد هذا التأثير فإن للشعر ومقطوعاته وقصائده القصيرة ، وما تتضمن من معنى إنسانى أو اجتماعى أو أخلاقى ، تأثيرا أكبر على المدى البعيد فضلا

عن تأثيراته الوجدانية والإدراكية الآتية . وللشعر والأناشيد تأثيرات مباشرة على النواحى التالية :

١ – فهما وسيلتان أصيلتان فى تقوية الوجدان ، وإخراج التلاميذ من عالمهم الاغترابى الانعزالى ، وعلاج من يغلب عليهم الخجل والتردد ، ويتهيبون النطق منفردين .

٢ – كما أنهما يبعثان السرور فى نفوس التلاميذ ويحددان النشاط ، ويبددان السأم لما فيهما من إيقاع وتلحين وعذوبة .

٣ – ودورهما عظيم فى إكساب التلاميذ ، الصفات النبيلة والمثل العليا ، ويحققان لهم خيالا تتراءى منه أفضل النماذج ، وأجمل القيم ، وأنبل البطولات ... وهما بهذا مصدران ثريان بالتأثيرات وإشباع الحاجات ، والتأكيد على القيم الموروثة ذات التوجهات الإيجابية .

٤ – والشعر والأناشيد ، يدفعان الأطفال ، وتلاميذ المدارس إلى تجويد النطق وتكوين الآليات القادرة على ترسيخ عادات صوتية سليمة ، وأداء لغوى صحيح ، وإخراج الحروف من مخارجها السليمة الصحيحة .

٥ – كما أن الشعر والأناشيد من الوسائل الناجعة فى تهذيب اللغة ، وتزويد الأطفال باللغة السليمة ، وبهما يسمو الأسلوب وتنمو القدرات اللسانية نحو تحقيق الصور اللغوية الإيقاعية العربية الجميلة ذات الأداء الاجتماعى المشترك .

٦ – وللشعر والأناشيد دور فى تحقيق التقارب بين العامية الفصحى ، وذلك بصعود العامى إلى مستوى الفصيح فتقوى الصلات القومية ، وتقضى على الثنائية اللغوية . ولن تتحقق هذه الأهداف ، إلا عندما يعمل المربون ، والمبدعون فى مجال « أدب الطفل » على اختيار النماذج الشعرية (لغوية أو موسقة) اختيارا يقوم على أسس تراعى الأطفال وعالمهم . وذلك على النحو التالى :

١ – أن تشبع تلك الأعمال الجمالية القائمة على اللغة ، والموسيقا أساسا ، حاجات الأطفال ، وتتجارب مع خصوصياتهم ، ومراحل نموهم وأن تتصل تلك النماذج بمناسبات تهم الأطفال ، فتسعدهم المشاركة فيها ، وأن ترضى حاجة من حاجات الطفل ، حتى تدفعه لأن يرددها بينه وبين نفسه ، أو فى أماكنه الخاصة ، أو أن ينشدها الأطفال فى رحلاتهم ، وحفلاتهم ، وفى المناسبات العامة .

٢ – أن تساعد الأطفال كى يستثمروها فى مناسباتهم وأعيادهم وتجمعاتهم ، وإحياء المواسم التى يحبونها مثل أعياد الطفولة ، أو شم النسيم [أعياد الربيع] ورحلاتهم ، وتنافسهم مع أقرانهم من الأجانب .

٣ – أن تكون سهلة فى لغتها ، جميلة فى أسلوبها سلسلة فى جملها ، عذبة فى موسيقاها ، خفيفة فى إيقاعاتها ، جمعية فى أدائها .. وأن تتضمن أفكارا ومعانى محببة إلى الطفل .

٤ – ويحسن أن تكون هذه الأشعار ، وتلك الأناشيد فى خدمة التجمعات المحببة للأطفال مثل تجمع الفلاحين وهم يجنون ثمار ومحصول حقولهم ، وتجمع الصيادين ، والعمال والبحارة ، والمحاربين ، والتجار ، وأصحاب الحرف الذين ينبغى أن تكون لهم أناشيدهم ، ومواويلهم ، وأشعارهم ليستطيع الأطفال مشاركتهم وجدانيا عن طريق هذه الأناشيد ، وحتى يستطيعوا أن يمزجوا بينها فى مسرحياتهم وتمثيلياتهم .

٥ – أن تعمل هذه الأشعار والأناشيد ، على إثارة العواطف القومية والوطنية والدينية والإنسانية حتى تستطيع مخاطبة وجدان الأطفال ، وتوحد ما بينهم ، وتقوى صلتهم بالعالم المحيط بهم وأن تكون قادرة على حمل رسالة عظيمة يحس بها الأطفال ، ليستشعروها ، وهم مستغرقون فى التغنى بكلمات الشعر ، أو النشيد ، معمقة بينهم روح التقدم والانتصار .

٦ – أن تكون تلك الأناشيد والأشعار متجاوبة مع الأحداث ، والمناسبات التى تحقق للطفل الالتحام الاجتماعى ، وتلك المناسبات والأحداث التى تحقق له ارتباطا وثيقا بقيمه ، ودينه وأرضه . من ثم ينبغى أن نختار أجمل الأناشيد وأقواها ، وأبلغ الأشعار تأثيرا .

٧ – أن تكون صور الشعر فيّاضة بالعذوبة والرقة والوداعة فى المواقف المناسبة وأن تتدفق الكلمات وتقوى ، وتعلو الموسيقا مثيرة وحاثة ودافعة ، وصاعدة ، لتحقق الحماس ، وقوة الارتباط ، وإليك نموذجين للأناشيد ... والأغنيات ..

١ – الأناشيد ونموذجها :

وقفنا عى قيمة الشعر ، ورأينا بعض فائدته ، وعظيم وقعه على نفس القارئ الصغير .. ونخصص هذه الصفحات التالية للوقوف أمام منوعات شعرية كتبت للطفل ، تخدم مجالات مختلفة من الحياة ، وتتصل فى بعضها بعالم الحيوان ، فتكشف أسراره ، وتضرب الأمثلة للسلوك الإنسانى بما يحدث بين أفراد جنسه فى تصوير وتخييل ، يأخذ بلب

الطفل ، ويستميله ، فيفيده خبرا أو معلومة ، مغلفة فى الفكاهة ، ومتوسلا إليها بالمتعة والتسلية .

وإذا كان مثل هذا الشعر يصلح لأطفال التاسعة والعاشرة أن يرددوه ، ليقفوا على مضمونه ، حسب قدراتهم ، ومساعدة مربيهم لهم – فإن ثمة أناشيد أخرى تتناول الدعاء إلى الله واستقبال اليوم فى نشاط وتوثب إلى العمل ، يصلح أن تقدم للطفل فى هذا السن أيضا . ومع تقدم السن يصح أن يقرأ أشعارا أخرى عن الوطنية والشجاعة ، والإيثار ، والبذل فى سبيل الوطن والآخرين ، وما شاكل ذلك من المعانى ، وذلك فى إطار فن الأناشيد :

١ – فيمكن أن نقدم للطفل في التاسعة هَذَا الدعاء[1] ، أو يردده خلف أستاذه ، ومع زملائه ، ليُعوَّد أن يتجه إلى الله فى تضرع منذ الصغر :

يـا من أبدعت الأكوانـ	ورفعت عليـها الإنسـانا
اغفر يـا رب خطـايانا	وامنحنا حبـا وحنـانا
خفف آلام الفقـراء	وارحـم تشريد الغربـاء
وانصرنا ضد الأعـداء	واجعل فـى الجنة مأوانا
جئنا ندعـو الله الهـادى	نمضى بثبـات وسـداد
ونشق دروب الأمجـاد	فأجب يـا خالقُ دعـوانا

٢ – كما يقدم له ما يحفزه إلى النشاط والحضور إلى مدرسته ، والنهوض مع زملائه لمشاركتهم فى دراستهم ولعبهم ، ليكونوا جميعا أخيارا نافعين لأمتهم .

٣ – وثمة حكايات عن الحيوانات تصور ما بين أفرادها من عداء أو صداقة ، وتحمل ما يبذله كل منها فى سبيل بحثه عن طعام له . وفيها تبدو رؤية الراوى لسير الأحداث بين الحيوانات ، بحيث يستفاد منها ، ويتعلم ، فيفهم الطفل ضرورة الاحتياط والتفكير قبل الإقدام على أى عمل ، ويدرك أن مملكة الحيوان صورة مصغرة لمملكة الإنسان ، ويدور فيها ما يدور فى الثانية ، ويمكن أن يمثل منها للنمذج المختلفة من بنى الإنسان . فهناك – إذن – توظيف لعالم الحيوان نستفيد منه لتوجيه الأطفال ، ومدّهم بالخبرة . وقد كان شوقى أمير الشعراء أول من كتب للأطفال شعرا مبسطا فى هذا .

---

(١) انظر ديوان شعر (نسعى إلى مستقبل) لجمال عمرو . ط . هيئة الكتاب ١٩٩٠ ، ص ٥ .

٤ – والطفل محتاج أن يرتبط بموطنه الصغير والكبير ، وأن ينتمى إلى بيئته وإلى وطنه والقطر الذى ينتسب إليه هو وأهلوه ، من أجل أن ينشأ محبا لأهل بلده ، حريصا على أن يعمل لما فيه مصلحة الجميع ، ويكونوا بلدا قويا ناهضا ، تخافه أعداؤه . وهذه أنشودة صاغها الشاعر « عبد الفتاح سرور »[1] ليتغنى فيها الأطفال بمصر بلدهم العربى الشامخ الذى يحتاج دائما إلى بيئتهم القوية وعقولهم المبدعة .

يقول الشاعر :

مصر خبزى وكتابى ... وأناشيدى الجميلة
فى إيابى وذهابى ... وابتعداتى القليلةْ
مصر بابى والطفولة ... وشبابى والكهولةْ
أول الأيام [ميم] ... باسمها الحلو البداية
أحس الأحلام [صاد] ... تجعل الصبر شفايةْ
وأرق العيش [راء] ... فى ثراها الخُرّايةْ
مصر عيشى من دمائى ... فيك قد هانت دمائى
... ... إلخ الأنشودة

٥ – وهذه « دعوة لتعمير الصحراء » تفيض بالحث على حب الوطن ، وتوضح أن العمل على الإضافة إلى مساحته المأهولة والمعمورة ليس إلا تجسيدا لحياة العزة ، ورفضا للذل والهوان . والإنسان فى خضوعه للحاجة واستلامه للعوز ، ليس إلا عبدا ذليلا . وقس على ذلك الوطن إنْ قَصَّرَ أبناؤه فى تلبية حاجاته ، وسد مطالبه .

٦ – وتتأكد معانى الانتماء ، وتنمو توجهاتها بداية بالبيت حيث الحب والمودة التى يرتبط بها أفراد الأسرة الواحدة ، والتى تعمل بالتالى على تقوية انتمائهم إلى البيت والمسكن والمنزل ، وذلك على حسب ما تمنحنا هذه الكلمة من دلالات ، يقول الشاعر الهراوى فى تأكيد الانتماء ، وتوضيح معناه شعرا نذكر منه :

تحية يا دارى ... تحية الإكبار
آوى إليك كلما ... يطيب لى قرارى
ما بين أمى وأبى ... وإخواتى الأبرار

---

(١) نالت الجائزة التاسعة لأدب الأطفال [جائزة سوزان مبارك] سنة ١٩٨٩ .

٢ – الأغانى ... . ونماذجها :

من روح الشعر ، تتشكل الأناشيد ، والأغنيات . والأغانى يطرب لها الأطفال كثيرا ، وينفعلون بها ، ويندفعون إلى ترديدها . ولعل ما يميز الأغنية بساطتها ، وجمال إيقاعها ، وانسيابها ، وخروجها عن التركيبات لشعرية الصعبة ، وبناءها على الصور البسيطة المدهشة ، والقابلة للتردد وقدرة المبدع ، والمغنى ، على أن يخلق لكل منهما جوا من الإبهار والإثارة والانفعال ، وبالطريقة الخاصة لكل واحد منهما ومن خلال هذا الجو توظف الأغنية توظيفا تربويا واجتماعيا ، وثقافيا .. وقد آثر كل من المبدع والمغنى أن يضحى بالعمق اللغوى فى سبيل هذا التشكيل المدهش من التركيبات اللغوية ، والأداء الصوتى ، والإيقاع الموسيقى الخفيف ، ولتتحقق التوجهات التربوية والثقافية . ومؤلف الأغانى وملحنها وموسقها بأدائه وتطريبه ، يحاول كل منهم أن يخلق لنفسه دورا فى عالم الطفولة ، ومن خلال لغته التى تحمل رسالته إلى عالم الطفل ، يضفى على الأغنية ، قيمة موسيقية وفنية وفكرية ، ولغوية . وفى الوقت نفسه هو قادر على المزج بين مطالب الطفولة وأهداف المجتمع وأهداف التربية والتعليم ، بما يجعل الأغنية دعوة إلى البناء والرخاء ، والمتعة ، وأهم وسيلة من وسائل الأطفال لتحقيق ذاتيتهم فى عالم الكبار . وتدور معظم الأغانى التى تم تأليفها أو ينبغى أن تؤلف حول العمل ، والإنتاج ، والحب والحرية والاحتفال بالمناسبات ... .. إلخ ويتخذها الأطفال وسيلة ترفيه خلال تجمعاتهم الإنتاجية . ويعمل المبدعون ، والملحنون ، والمغنون على تدريب الأطفال ، كى يستطيعوا إبداع أغنيات ، تتغنى بهم وبأحلامهم ، ويشاركون بها فى الحياة العامة مثل هذه الأغنيات :

١ – قطى

قطى جميل ذيله طويل
يصحى دايما طول الليل
شافه الفار نط وطار
بالمشوار ساب الدار

* * *

٢ - يا مطرة رخى

يـا مطـرة رخـى رخـى	على أرضى وزرعى ونخلى
رخـى واملى لـى الغيطـان	ميـه للـزرع العطشـان
تحيـا أشجـار البستان	ويفتح وردى وزهـرى
رخـى واملى لـى الوادى	فضـة ودهـب لبلادى
أفـرح وأسعـد أولادى	وأصلـى وأشكـر ربـى

* * *

٣ - القط مشمش

القط مشمش الجبـار	يمشى ويتسحب فى الدار
يبص لشمـال والا يمـين	يبحث عن الفـار المسكين
ولمـا شافه صاحبنا الفـار	يجـرى ويرمـح بلمشوار
على جحره كان خايف محتار	يهرب من القط الجبـار

* * *

٤ - صيد السمك

هيـا بينـا هيـا نصطاد السمك	نصطـاد سـويا نملا الشبك
هيـا بنـا هيـا وخذنـى معك	نأكل لما نشبع من صيد السمك
هيـا بنـا هيـا	هيـا بنـا هيـا

* * *

٥ - آداب المرور

لما تشوف النـور الأحمر	حاسب إوعـى تمـر
بعدين يجى النور الأصفر	خلى بالك إوعى تمـر
لما تلاقى النـور الأخضر	ياللا قوامك عدّى ومر

* * *

٦ – حيوانات وطيور تغنى

صـوت القطـة بيقـول نـو　　أمـا البوبـى بيقـول عو
والـديك يـدن كوكو كوكو　　والعصفـور صَوْصَوْ صَوْصَوْ

* * *

٧ – عصافير الجنة

احنـا دور الحضـانة　　عصافير جنة فرحـانة
نجـرى نلعب نطنطط　　مـع أبلتنا ونطـأطط
فايـزة تركب مرجيحة　　حمرة وحلـوة ومريحة
أمـا عـادل والصبيان　　علشان تفـرح أبلتنا

* * *

٨ – النجمة الصغيرة

يـا نجمتى الصغيرة　　أراك فـى السماء
جميلـة منـيرة　　لـؤلـؤة بيضـاء
لمـا أراك أشـدو　　أكثر الغنـاء
مع الصحاب ألهـو　　فى نـورك الوضء
أريـد أن تظلى　　عروسة السمـاء
أريـد أن تظلى　　براقة فـى المـاء

* * *

٩ – ألعاب موسيقية

البطـة والـوزة　　والفرخـة والكتاكيت
قاعدين ع السفرة بياكلوا　　القمـح والفتـافيت
البطـة قالت يـا حـلاوة　　دا القمح طعـم البقلاوة

والـوزة قالت يـا عروسة ۔ دا القمح طعم البسبوسة
أمـا الفرخـة والكتاكيت ملهمش غير الفتـــافيت

* * *

١٠ – حيوانات أليفة

عنـدى قـــط عنـدى أرنب عندى كلب دومـــا يلعب
كلبـى يأكـــل كلبـى يشـرب كلبى يجرى خلف الأرنب
كلبـى يجلس فـى اطمئنـــان يحـــرس بيتى والجيـــران
لا يقـــرب منـــا إنســـان لص سمـــج أو حيـــــوان
قطى يسعى نحـــو البـــاب يبحث عـن فـــأر قد غاب
قد سن القـــط الأنيـــاب كى يأكل مـــا لـــذ وطاب
أمـــا الأسرع فهـــو الأرنب يجرى يقذف بـل يتشقلب
حـذر لبـق حـــالا يهــرب خوفـا من عـدوان الثعلب

* * *

١١ – الحج

منـــــايا يـــا الله أحـــــــج بيت الله
وأدعـــى وأقـــول الله لبيـــــك يـــا الله
بالكعبة نفسى أطـوف وأحـرم فى توب فضة
واشرب واملا كفـوف مـن زمــزم أتـوضه
واسعى مـا بين الصفـا والمـــروة واستغفـر
وأدعى دعـا المصطفى فـى السعى وأكبـــر
حوالين جبـل عرفات ملايكـــه بترفـرف
مشتاق أنـا لعرفـــات وروحـــى بتهفهف
نفسـى أزورا لنبـــى وأصلى فـى رحابـــه
مطرح مـــا كـان النبى بيصلى بصحابــه

فالأغنيات تتسم بالبساطة ، وبإمكانية محاكاتها وتقليدها ، كما يمكن لهذه الأغانى أن تساعد فى التحصيل الدراسى والمعرفى وأن يطل منها الطفل على مجتمعه ، ليشارك فى بنائه وإمتاعه ..

٣ – رؤية تحليلية للأغنيات :

فالأطفال مع هذه الأغنيات ، كأنهم يدعون نصهم الشعرى ، ويقدمون المنهج الذى به يشاركون الوطن أفراحه ، ونشاطه فالطفولة ، من ثم ، وبأثر من هذه الأغنيات ، عالم واسع الأبعاد يمتلئ بالأنشطة الموارة ، التى لا حدود لها ، وترتفع أمواجها كلما هاجها انفعال ، أو شغلها طارق ، واللعب والأغانى ، والأسرة ، والمدرسة ، والرحلة ، والملاعب كانت ، ولا تزال ، وستظل هى وأمثالها من أقوى الانفعالات التى تستبد بالطفولة ، وعالمها ، وتحرك فى الطفل كل مشاعر الحب ، والانتماء ، والمودة ، وتدفع إلى التمسك بالحياة ، والأمل المستمر ، والشوق المتواصل ، والحنين الجارف إلى المستقبل .. وهذه الأغانى ، التى أسوقها مثل ، لما ينبغى أن يكون عليه عالم الأغنية أو الأنشودة ، المرتبطة ، بخصوصيات الطفولة وعلاقة هذا كله ، بالانتماء ، والعمل ، والالتزام ؛ وبذلك تكون أمنية الأديب ، وحلم المبدع . فأدب الطفل حريص على الإحياء ، ولغتيهما كل خصائص الطفولة الصادقة ، وهو يتوسل بالأغنية ، والشعر وموسيقاها ، ولغتيهما ، وتركيباتهما اللغوية ، التى تترسب فى أعماق أفئدة الأطفال ، الذين تتفجر بداخلهم ، كوامن الإبداع ، والانتماء ، والإخلاص ، بسبب ما يتراكم فى أعماق الطفولة ، من الكلام الشجى ، والإيقاع الهادئ المتوالى والمعانى المفعمة بالجد ، والصدق ، وتعمير الحياة ، والتغنى بقيمها الرفيعة ؛ ولأنها تنقل الأطفال ، من واقع مادى ملموس غير مثير ، أو مبهج ، إلى حلم الكلمات ، وما يثيره من انفعال صادق ، نحو الحياة وعلى مستويات مختلفة ، سنقرأ الأغنيات ، قراءة ، استنتاجية لنقف على أهم خصائصها ، الموصولة بعالم الطفل ، حتى يمكن الإبداع فى إطارها :

١ – على مستوى الموضوعات ، فإننا نتقى بالقطة ، التى تدخل فى صراع غريزى ضد « الفأرة » لتهرب الأخيرة من البيت ؛ ليعود إليه خيره ، وخزينه ، وينتفى عنه الإتلاف ، وفى هذا تأكيد على إيجابية الأغنية ، وإيجابية مضمونها ، **وفى الأغنية الثانية** : كأنها تقيم صلاة استسقاء ؛ لصالح الأرض ، وأن يعم الناس الخير ، **وفى الثالثة** : يوضح قيمة الوجود النفعى للقط بعامة ، وضد فئران المنازل بخاصة ، **وفى**

الرابعة : تدعو الأغنية إلى العمل ، والانتفاع بالطبيعة ، **وفى الخامسة** : تعلم الأطفال آداب المرور ، وإشاراته وإذا كان الموضوع خاصا بابن المدينة ، وطفلها الذى يتنقل عبر شوارعها ، فهى أيضا ، تعلمه ، وتمنحه تصورا عن كيفية المرور بشوارع المدينة حينما ينزل إليها مع تجاربه الحياتية المستمرة ، **وفى السادسة** : تعلمنا ، وأطفالنا ، كيف نعرف الطيور من أصواتها ، والتعرف على طبيعة أداء تلك الأصوات .. وفى هذا إعلان لفكرة أن اللغة ، هى مجموعة من الأصوات ، حتى يمكن أن يتعرف الطفل على بدايات اللغة ، ونشوئها ، وعناصر تكونها ، **وفى الأغنية السابعة** : تتضمن كلماتها طرافة ، وعذوبة ورقة عالم الطفولة ، ورشاقة الطفل ، الذى هو أقرب إلى المعنويات ، منه إلى عالم الماديات . **وفى الثامنة** تربط أغنية الأطفال بالطبيعة ، وبعناصرها التى تضىء لنا الطريق ...

وفى التاسعة : تقدم الأغنية صورة موسيقية ، تشير إلى معلومات ، وتثير خيال الأطفال ، بما تحمل من صور التعامل مع الأشياء المحببة .. إنها صور جميلة ، وتستمد جمالها ، من موضوعاتها البسيطة الرقيقة الناعمة .. **وفى الأغنية العاشرة** : تتضمن صورها اللغوية مجموعة من الحيوانات الأليفة ، وتصور حياتها المنزلية الأليفة ، وتوضح لنا كيف تتجمل الحياة ، بمثل هذه الوداعة والألفة التى نعيشها من خلال تلك الحيوانات ، **وفى الأغنية الأخيرة** : مثال على كيفية تعليم الأطفال شعائر الدين الحنيف ؛ لأن الأغنية من أهم وسائل تلك المعرفة .. وهكذا ينتمى « أدب الطفل » حيث الأغنية والشعر ، والموسيقا ، والقصة ، والمسرحية والرواية . إلى الحياة فى موضوعاتها الأفضل الأجمل وفى أبهى أشكال تألقها ، وعنفوانها ، وإيجابياتها والموضوعات ، من ثم ، مناسبة ، وموصولة « بعالم الطفل » ومتصلة بالحياة ، وعناصرها الإيجابية ، وبمثل هذه الموضوعات يمكن أن يعيش الطفل ، واقعه ، ويسكن فى مستقبله ، ويشدو بماضيه .. فالجانب الإنسانى متوفر ، والحياة ماثلة ، والواقع معيش ، والحلم دائما فى إحساس ، ووعى ، وخيال الأطفال والموضوعات ، فوق هذا ، تدل على تجربة خاصة . ومن هنا يأتى تفرد هذا الاتجاه ، بموضوعاته الخاصة ؛ لأنه يحكى من خلال نماذج ، ورموز ، وشخصيات بالذات ، الأحلام ، والحياة الفرحة المليئة بالأمل ، والعمل ...

٢ – ومن حيث اللغة ، فتوصف بالطواعية ، والبساطة ، والقرب من مفاهيم الأطفال ، ومعجمهم لمرحلى .. وقيمة اللغة الأولى أنها تبث إيحاءات جميلة ، ودالة على رقة وعذوبة الطفل وهذا شىء مهم فى أغنيات ، وأناشيد الطفل واللغة ، فوق هذا ، ليست مجرد خلط فى التعبير ، ولكنها قدرة فى التعبير عن عوالم ، ومرئيات ، فيها الكثير من النماذج

والتموج والتماس ، والانصهار الذى يتولد عنه فى النهاية صورة الطفولة ، تتبدى من خلال هذه التعبيرات اللغوية كما أنها أى اللغة ، تدل على العناصر الشعرية ، التى توفر قدرا من الشاعرية ، والعاطفية للشعر ، ومع اليسر والسهولة تتدفق ناعمة الملمس ، هامسة الإيقاع معظم لغة الأغنيات ، ومصدر هذا كله ، أن اللغة هى التعبير الحقيقى عن الموضوع الذى تدور حوله الأغنية .. حتى لكأنك تحس بها ابتسامة فى فم الشعر ، وأزهار تتفتح أكمامها على وجه القصيدة وتعلن عن حفل بهيج من الألوان متضوع الشذى ، فتخضر عروق الكلمات ، وأوراق الورق نفسه ، وتبتل الحروف بالعطر .. عطر اللغة الذى ينبع من الجمال والفن ... حينئذ نجد اللغة فى أغنيات الطفل تمتلك عددا لا بأس به من وسائل التعبير ، والإيحاء ، تجعلك تمتلك أحاسيس متباينة من الجمال والطلاقة ، والإيقاع وكل ما نريده من المبدعين لأغنيات الطفولة ، وأناشيدها ، وشعرها أن يتولد لديهم إحساس بالجمال ، يستلهمونه . من كل كلمة أو حرف ، أو نقطة ؛ لأن التعبير الأدبى الخاص بالأطفال هو « تعبير للفن والأدب .

٣ – ومن حيث الإيقاع الموسيقى ، فهو مستمد من طبيعة الطفولة ، وحركتها الطليقة ، ووحداتها التفعيلية ، بسيطة التركيب وهى من تشكيلات : فعولن ، مفاعيلن ، فاعلاتن ، وهى الوحدات الأكثر اكتنازا بالموسيقا .. وهذا أمر حيوى ، بالنسبة لشعر وأغنيات ، وأناشيد الأطفال ؛ لأن الموسيقا وخفة روحها ، وبساطة تعبيراتها من العناصر الأصيلة فى الموسيقا ؛ ولأن بحورها ، ومعظمها من النوع التلقائى العفوى تتصف بعذوبة الجرس ، وتواتر الأنغام ، وجريانها فى سياق موسيقى منسجم .. فالأسلوب غنائى ، والكلمات ذات إيقاع ، والتعبيرات ، سهلة ، مألوفة ، وتتجلى طرافة الصياغة فيها ، حتى نحس بألفتها الطفولية ، ويغلب عليها بحور ، وأوزان موسقة مثل : المجزوءات ، والأرجاز ، والبسيط .. إلخ .

والحق . فإن هذا النشاط الغنائى ، والذى هو من أهم أنواع « أدب الطفل » هو نشاط تعبيرى ، لغوى ، موسيقى جميل ، يخرج بالطفل من عزلة مرحله ، إلى رحابة الحياة .. وهذا يدعونا إلى التعرف على نوع الأدب الغنائى ، ونوعية الموضوعات ، التى ينبغى أن تعرض من خلال هذا العمل الغنائى . حتى يمكن أن نقيم جسور تواصل بين الأطفال ، والحياة . إن الغنائية هى أول ما يمكن أن نقيم عليها « أدب الطفل » ، وهى أول ما يحتاجه المبدع حينما يخاطب « عالم الطفل » بالإبداع الأدبى .

ذلك مع الأخذ فى الاعتبار أن الجوهر الذى ينفرد به أدب الطفل عن « أدب الكبار » هو فى الغناء ، والموسيقا ، والرقص المصاحب وهو عدم قدرة « أدب الطفل » على التأثير دون هذه العناصر ، وإحداث مناخ عام ممتلئ بالحركة ، والإيقاع .

(ب) من أغانى الطفل الشعبية :

أولا – أثر الأغنية الشعبية :

للتجربة الأدبية ، والفنية فى حياة الطفل ، وعبر مراحل نموه ، وجوه مختلفة وأشكال متباينة .. لكنها جميعا تتفق فى إثارة خيال الطفولة ، وإكساب عالم الطفل ، توجهات إيجابية ، وتربوية صحيحة ، ونطالع وجها آخر لهذا الأدب وهو « الأغنية الشعبية » ولغة خطابها الطفولى ، وهى تجربة فنية ؛ لأنها صادرة عن إحساس فنى فى الدرجة الأولى ، وتجربة شعبية ؛ لأنها تضرب بجذور بعيدة ، فى وجدان الشعب .. وإذا صحت المقولة ، بأن الشعر ، والأدب بعامة ، هو الوتر الحساس ، الذى يتحرك بحركة الوجود ، والكون ، والحياة من حوله ، فإن الأغنية الشعبية . هى التى تفجر ينابيع الانتماء والولاء لهذه الحياة ، وهى التى تصوغ وجدان الشعب ، مع فنون أخرى تشكيلية وقولية ، وإيقاعية ، ومن ثم ، فإن تلك الأغنية ، تشكل فى وجدان الطفل ، قوى الانتماء ، والارتباط بالحياة ، وتفجر فيه ينابيع الإبداع والابتكار والعطاء .. فى هذا الإطار النفسى ، الوجدانى ، العقلى ، تحتل الأغنية الشعبية ، مكانا مؤثرا ، على حياة الطفل ، ومراحل نموه ، ودرجة وعيه عبر مستويات ارتباطه بمن حوله ، وعلاقاته بما يدور فى فلكه الاجتماعى ، والإنسانى ، فإذا كانت أغانى الشعب للطفل ، تمثل أرفع عطاء وجدانى شعبى ، فإننا – من خلال استعراض نماذج من تلك الأغانى – نستطيع أن نرصد حركة نمو الوجدان الإنسانى الفنى للطفل ، من خلال تطور الأغنية ، وارتباطها بحركة الحياة ، التى تموج بالحركة ؛ عمقا ، وطولا ، وعرضا . من هنا يعطينا هذا الرصد صورة للمستقبل فى إطار فن الأغنية الشعبية ، الذى استطاع أن يخاطب الطفل ، ويتسلل إليه من خلال لغة الخطاب تلك ؛ ليأخذ بيد الطفل ، وبين أحضان دفء الأمومة ، والأسرة والعائلة ، والمجتمع ، وذلك فى اتجاه التربية الصحيحة ، وتنمية الطفل اجتماعيا وحضاريا ، وثقافيا ، وقوميا ، ووطنيا ... إلخ .

إننا مع الأغنية الشعبية ، نستطيع – وتلك مهمة عظمى – أن نستخلص الحس الشعبى المتغلغل فى مجتمعنا ، وأن نعيد صياغة عواطفنا ومشاعرنا ونبلور رائحة الأحياء الشعبية التاريخية الفطرية ، ونضع هذا كله على مائدة تذوق الأطفال للفنون ، حتى يمكن لنا فى صورة أخرى ، أن نحصل منهم على سلوكيات ، تتميز بالأصالة ، والصدق ، وبإبداع يقترب بأطفالنا من القيم الفنية ، الإنسانية الرفيعة ، ويستطيع الطفل مع هذا كله ، أن يتنفس فى جو تربوى ، وتعليمى فى صورة معرفة سليمة ، أو توجه صحيح .. حيث جوهر العملية التربوية ، والتعليمية والثقافية ، هو محاولة ، صادقة من قبل المربين والآباء ، والمجتمع ؛ لربط الطفل بينابيعه الثرة بالفن الشعبى والخبرة الشعبية ، والتراث الشعبى ، والأطفال ، حينئذ ، يجدون أنفسهم جزءا من عالم متكامل ، ونسيج متحامل ، ومنظومة بشرية متداعية .. وعنصرا إيجابيا ، ومنتجا ، ومبتكرا ، وموهوبا ، وهذا كله فى سبيل المجتمع الحاضن ، والوطن الأم ، والدين المعتقد والقومية الموعودة ، والإنسانية الانتماء ، « الأغنية الشعبية » فوق هذا ، كله ، تمنح المكان ، والزمان ، والإنسان ، عند الطفل ،طعما خاصا وتكشف له عن عبقرية ، وخصوصية كل من ؛ المكان والزمان والإنسان .. وبرغم ما فى هذه الأغانى من بساطة ، وغنائية شفيفة ، وتركيب مسطح فإنها مثيرة بحق لخيال الأطفال ، وتحمل لهم ، قدرا كبيرا من الأمان ، وتعبر بصدق عن الحس الشعبى الكامن فى ضمير المجتمع تجاه الأطفال ، وتصور بانفعال صادق أمين ، عن علاقة الأمومة بالطفولة ، والأمنيات المدخرة ، التى تحملها كل أم ؛ ولهذا فهى تحمل لكل طفل أمانا مطلقا وتثير فيه خيالات حالمة ، وتعيد إليه الأنا المفقود بمعل ضعف الطفولة ، واحتياجها إلى الغير ، .. فالفن الشعبى بعامة ، والغناء بخاصة قادران على التعبير عن كل معنى ، من معانى الحياة ، كما أنهما يملآن عالم الطفولة بالبهجة ، والمتعة ، وبفيض من الخيال والجمال .. ويمكن إجمال ما تقوم به الأغنية الشعبية ، من دور تربوى ، وتعليمى بالنسبة للطفل ، وذلك فيما يلى :

١ – الأغنية الشعبية ، بالنسبة للطفل ، مصدر للمتعة ، وتنمية الروح الشعبية ، والاجتماعية ، وتغذيه بجوهر العلاقة ، بينه وبين من حوله ، وفى الوقت نفسه ، تؤكد على استمرارية ، وتواصل الأجيال ، والخبرات ، والأحاسيس ، وصفة الدوام الاجتماعى والفنى ، والأسرى ، الذى يربط بين الماضى ، والحاضر .

٢ – تنقل للطفل المتلقى ، أو المشارك : خبرات شعبه ، وتكشف له عن نقائه البدائى ، وصدق مشاعر من حوله ، فيزيده هذا حسا صادقا ، وتمنح الأمة ، والطفولة ، صفة

التعبير ، التى تبثق من الحافز الخلاق المبدع لدى الفرد [الأم مثلا] إلى الجماعة الشعبية فالأم حينما تبدع أغنية تلقائية عفوية ، إنما تقوم بدور الرافد المغذى لمسيرة الجماعة الشعبية ، ومدها بالخبرات الجمالية .

٣ – دور لجماعة الشعبية ، هو تذوق الإبداع الفردى ، وإعادة إبداعه مرة أخرى ، عن طريق الاعتراف بالأغنية ، على أنها تراث وإبداع هذه الجماعة الشعبية ، وهى لذلك تقوم بوصل الطفل بجماعته ، وإخصاب تلك العلاقة ، بمزيد من الاهتمام والتأكيد على الذات ، إلى أن يستمد الطفل كينونته من تلك الجماعة ، التى اعتبرته مددها البشرى عبر تلك المسيرة .

٤ – المعروف عن الأغنية الشعبية بخاصة ، والفن الشعبى بعامة أنه مجهول النسب إلى مبدعه ، أو قائله .. لكننا مع أغنيات الأطفال الشعبية ، لا نستطيع ، أن ننكر انتماءها إلى عالمها الخاص ، وهو الأمومة ، أو الجدات ، أو أفراد العائلة الصغيرة أو الكبيرة .. فالأم مهمومة ، وسعيدة ، ومتفتحة للحياة وتأتى الأغنية لصفلها ، معبرة عن عواطفها ، ومشاعرها تجاه الطفولة بعامة ، وطفلها بخاصة .. فالأغنية فرح قلبى تقيمه الأمومة للطفولة فى كل مكان ، وهى لهذا تصنع حبا اجتماعيا ، وتثرى العلاقات ، وتدفئ الأحضان ، حتى يشب الطفل ، صحيح الجسم والنفس معا .. وتضفى مع هذا جوا اجتماعيا ، وشعبيا على الذات ، والأنا ، والفرد ؛ ليتخلص من أنانيته ، ويحل محلها ولاؤه لأمته ، وإحساسه بجماعته ، وانتماؤه لها .

٥ – إن الأغنية الشعبية ، نبضة صادقة ، تكشف عن روح الشعوب والطفل حين يسمعها ، أو يشترك مع لداته ، فى التغنى بها إنما يجسد مع رفاقه ، كل المعانى الحبيسة بداخله .. ومن ثم تعبئ الأطفال ، وتهز مشاعرهم ، وتوقظ فيهم الشعور بروح الجماعة ، وفيها تصب الأم ، والطفل أجمل وأصدق المشاعر فيظل لطفل ، وهو يستمع ، أو حينما يلعب مغنيا مع الأطفال يتطهر ، ويسمو ، ويحلق فى آفاق رحبة ، فيتأكد فيه ضمير مجتمعه ويقبل على الحياة ، بروح سمحة ، ويخالط الجميع بضمير يقظ .

٦ – بساطة اللغة ، والتركيب ، وأداء الأم بطريقة تقارب عالم الطفل يساعد على النطق ، وحفظ الكثير من المفردات ، حتى إن الطفل فى كل مرحلة ، يستفيد كلمات ، وجملا ، ومعانى ، تشكل عنده خبرة لغوية وفنية ، فتكسبه المهارة اللغوية والإيقاعية المناسبة لكل مرحلة .

٧ – مثل هذه الأغانى الشعبية ، توفر قدرا كبيرا من التوافق النفسي والاجتماعى للطفل ، وتثير فيه أكبر قدر من النشاط اللغوى والاجتماعى ، كما أن هذه الأغانى ، تمثل محورا يدور حوله نشاط فنى متعدد النواحى والتأثيرات : مثل الإيقاع ، والغناء والترقيص ، واللعب ، والتعبير الجميل ، والحركة المصاحبة ... إلخ وفى هذا إمتاع للطفل ، وتهيئة له ، وتنمية لقدراته ، وتصحيح لمساره وتوجيه لسلوكه ... .

ثانيا – نماذج من أغنيات الطفل :

(أ) أغنيات مراحل النمو :

١ – لكل مرحلة من مراحل الطفولة أغنياتها ، وكلماتها الموقعة ، التى تصور المرحلة وتعبر عن خصوصية الطفل .. وأول أغنية ،يسمعها أو يغنيها ، هى أغنية الميلاد والأغانى بهذه المناسبة العزيزة ، والغالية ، هى أغانى احتفالية .. حيث يتم الاحتفال بهذه المناسبة ليلة السابع بعد ميلاد الطفل ، وفى هذه الليلة ، تقدم الهدايا إلى الأم .. ثم تأتى الأمهات ، ومعهن أطفالهن ويأخذ الجميع فى حلقات يغنون :

الصـــــالا عليـــه الصـــــالا عليـــه
يـــــارب يـا ربنـــــا تكبر ، وتبقى قدنا (أدنا)
حلقـــاتك برجـــالاتك حـلق دهب فـــى وداناتك

أو :

يا ام الصغير افرحى بغرباله دا السعد جــه لعــاية داره

ويشارك جميع أطفال الأهل ، والأصدقاء ، فى ترديد هذه الأغانى مما يثير خيالات جميلة ، لدى الأطفال ، عن هذا القادم إلى عالمهم الطفولى وتؤكد على العلاقة ، والمودة ، وتحمل الكثير من التمنيات للطفل ، وأمه . .

٢ – احتفال الختان : وبعد أسابيع من الميلاد ، تقام حفلة الطهارة (الختن) للمولود الذكر ، وفيها يجتمع الأهل والأصدقاء ، ومعهم الأطفال ومن أهم الأغنيات الاحتفالية بهذه المناسبة :

داری يــــا مــــزين داری سمعنى عياط الغـــالى يا عينى
داری يــــا مــــزين داری ورينى شقــاوة الغـــالــى

أو أغنية :

يـــــا ام المطـــــــاهر فى مقامه الطاهر لقى وإيدى سبع شمعات

يـــــا عـــريس يـــا صغير   علقـــــه تفـــوت ، ولا حـــد يمـــوت
لابس ومغـــــــــــــير   وهتشــــرب مـــرق الكتكـــــــــوت

ومعظم أغانى هذه المناسبة ،تدور حول الرجولة ، والعمر المديد ، والسند للأب والأسرة ، والأمل فى الأيام القادمة ، والاستبشار دائمًا .

٣ – أغانى المهد : وهى أغانى التهنين ، والملاغية ، والملاعبة ، والترقيص وهى بمثابة مناخ أمومى صميمى حميم ، فيها تخلو الأم إلى وليدها وطفلها تنيمه ، أو تلاعبه ، أو تلاغيه ، وذلك مثل :

لمـــا قالـــــوا دا غــلام   قلت شد ضهر أبوه وقام
وجـــابولى البيض مقشر   وعليـــــه السمن عـــام

وللبنت :

لمـــــا قـــــالوا دا بنيــــــه   قلت ياليلة هنيه .. الحبيبة جيه

وعند تهنين الطفل لينام ، تغنى الأم قائلة :

ننــا نـــــام ، ننــا نـــــام   وادبح لك جوزين حمام
مـا تخافش يا حمـــــــام   بضحك على لولا لما ينام

ومثل هذه الأغنيات التى تسبق النوم ، يكون تأثيرها العاطفى والروحى عظيمًا على الطفل ؛ لأنها تشعره بالأمان ، وتبث الحب فى كيانه فيمنحه هذا كله صحة نفسية ، يستمدها اطفل من هذا المناخ .

وتتميز معظم أغانى المهد ، بهذه الهمهمات ، التى تدل على سعادة الأم ، وملاغيتها لطفلها ، وكلمات التهنين ، تبدأ « بالنون » أو « الهاء » مثل (هو .. هو) أو (ننه .. ننه .. هو) .

أو :

نينا نـــام .. نينا نـــــام ..   وأنا أدبح لك جوزين حمام

وحينما يشتد انبهار الأم بطفلها ترقصه قائلة :

يـــا ولـــه .. يـــا ولــه ..   يـــا دوا للعـــين تطيبى[1]
يـــا محسنة يـــا محسن ســانه   والدوايـة دهب فى حزامه

ومن أغانى البنات وترقيصهن :

---

(١) استعنت فى معظم هذه الأغانى بالذاكرة ، وبالاستماع إلى البقايا لطيبة من الأمهات ...

لما قــالوا دى بنيه　　قلت الحبيبة جيه
تعجـن وتخبز لــيه　　وتملالى البيت ميه

٤ – وهناك وظائف تربوية ، وتعليمية تنهض بها الأغنية الشعبية تعلم الطفل كيف يقف أو يجلس ، أو يخطو خطوة إلى أمام ، وكيف يسير محاكيًا أمه التى تغنى له ، وتغريه بتقليدها ، فهى تلاعبه وتلامسه ، وتساعده ، وتمسك به من ذراعيه ، وترقصة قائلة

تــاتـا خطى العتبه　　تاتا حــبه حــبه

وتكررها مرات عديدة حتى يستجيب الطفل ، لدعوتها وحرصها أو تتى له مداعبة وملاغية ، وراسمة بالصوت الآمال فيه ، وتأخذ فى ترقيصه :

اللى يسقف بـابـا يكسيـه　　توب حرير يتمخطر فيـه
اللى يسقف بـابـا يكسيـه　　توب حرير يدلـــع فيه

(ب) **أغنيات لعب الأطفال :**

١ – **لعبة الجمال** : وفيها يركب الأطفال جمالهم ، ويستديرون فى حلقة ويأخذون فى ترديد مقاطع أغنية :

يـــا عـــم يـــا جمـــال　　جمـــــالك فــــين
علـــى القنطـــــــرة　　بتاكل إيه : حشيش ودره

أو **أغنية الخيل** :

عديتـــو خـيولكـــــم　　عدنـاهـــا
عديتـــو طـيوركـــــم　　عدنـاهـــا
كـــــم طـــــير ؟　　ميه إلا واحد

٢ – **لعبة الثعلب فات** : وتتم اللعبة فى جو من التخفى ويدور الأطفال فى حلقات وداخل الحلقة طفل يمسك بالعصا ، ثم يدور ، ويتركها خلف أحد الأطفال المشاركين بالحلقة فيتنبه ، ويأخذها ويلف ويدور هو الآخر ، والجميع يغنى ويردد :

الـثعلب فـــات　　وفى ديله سبع لفات

ومثل هذه اللعب تنمى فى الأطفال اليقظة ، والنشاط ، والتآلف والتعاون ، وتغريهم بالتساند ، وتقضى فيهم على العدوانية .

٣ – **لعبة الحيلة** (أى البنت الوحيدة) : وتدور بين الأطفال ، وطرفاها الأم والغراب ، الذى يكيد للأمهات ، بخطف بناتهن ، وتستمر الأغنية هكذا :

أبـــوح يـــا أبـــوح كلب العرب مدبوح
وأمـــه عليـــه بتنوح وتقـــول يـــا ولدى
يـــــــا لابـــس الـــــــــزردى
يـا طـــالع الشجره هـات لى معاك بقره
تحلـــب وتسقيـــنى بالملعقـــــة الصينى

وخلال هذه البداية ، تفاجأ الأم ، بعدم وجود ابنتها فتعرف أنها مكيدة من الغراب .. ومن هنا تتنكر فى شخصية بائعة (أساور وغوايش وحلى) وتسير منادية على بضاعتها : (الغوايش يا بنات ؛ والأمشاط والفلايات) وروح وهات يا أبو البنات وتلح البنات على الغراب ليشترى لهن من هذه البائعة فيوافق فى النهاية على أن يخفيهن خلفه ، وتأخذ كل واحدة تمد يدها لتقيس لها البائعة الغويشة التى تناسبها وهكذا إلى أن تصل إلى يد ابنتها ، فتأخذها ، وتدور الأحداث ممزوجة بالألوان الغنائية الشعبية والتى منها :

الغراب : ادينى الحيلة
الأم : مادى هالكش
الغراب : ادينى الحيلة
الأم : ومين يطبخ ليه
الغراب ادينى الحيلة
الأم : مادى هالكش
الغراب : ادينى الحيلة
الأم : ومين يطبخ ليه
الغراب : أنا أطبخ لك
الأم : ومين يعجن ليه
الغراب : أنا أعجن لك
الأم : ومين يغسل ليه
الغراب : أنا أغسل لك

وهكذا يبتدع الوجدان الشعبى والطفولى ، ألوانا من الفن القولى ، الذى يساعد على فهم الحياة ، وتربية الأطفال ، والتمتع باللعب ، وتنشيط الأطفال ، وترقيصهم ، وملاغيتهم فى مرحلة المهد ، وبث روح الجماعة الشعبية فى نفوسهم وخيالاتهم .؛

إذ بمثل هذه الأغنيات الطفولية ، التى تفيض على الأطفال حيوية عارمة ، ونضارة إيقاعية مما يجعلها تتدفق بالحسية ، وتقلب الرتابة عند جماعة الأطفال . فى الحارة ، أو القرية ، أو الأحياء البلدية ، والشعبية إلى حياة فوارة بالنشاط ، والإقبال على الحياة وتتحول كل الأشياء حولهم إلى هاجس بالقادم لواعد ، وذلك بسبب ما يلى :

١ – حيوية الكلمات ، وتوافقها الإيقاعى الموسيقى مع أشكال اللعب ، وينابيع المعرفة .

٢ – الخبرة المتاحة ، من خلال التجربة التى تطور من حقائقها الكلمات ، وتجلو عنها الأوزان .

٣ – والوظيفة الدرامية ، والكوميدية التى تؤديها هذه الألعاب ، هى تقديم تفسير اجتماعى لمرح الأطفال ، ومعرفتهم من خلال التعاون واللعب ، والمنظومة ، تقليلا للتأثيرات الفردية .

الفصل الرابع

أدب الطفل
فى إطار أدب الخرافة والأساطير والحكايا والسير وانعكاس هذا على الطفل

** فى أدب الخيال الممتد :

كلما كان الأدب أكثر إمعانا فى المطلق وأعمق إبحارا فى الصور والتكوينات اللغوية كان أقرب إلى الفن بتأثيراته المختلفة ... ولما كان المبدع أكثر قدرة على تفجير الشحنات الباطنة للشخصيات ، وتحويلها من كائنات واقعية إلى رموز تعبر فى مواقفها عن مستويات مختلفة فإنه أدق من يرسم صوره الفنية وشخصياته المحورية .. وإذا استطاع الأدب أن يكون معرضا تمتزج فيه نبضات الوجدان بتموجات المشاعر ، وبسبحات العقل ، كان أصدق فى التعبير عن الفن ، ورسم الحياة ، ومع أن أدب الأطفال ، لا يزيد غموضا بل كثافة فنية تمتع الطفل ، وتثير مشاعره وتفيض على عقله برؤىً من الخيال العذب الجميل .. كما أن العمل الأدبى ، إذا لم يصل إلى الطفل من خلال الإحساس والفهم ، يكون عملا ناقصا .. وإذا شحن أدب الطفل بالأفكار ، والتعبيرات الدقيقة وازدادت لذلك كثافته ، واحتاج فهمه وتذوقه إلى مجهود .. حيث أصبح فنا مركبا فهو حينئذ خارج عن الأدب الصالح تقديمه للأطفال .. وأدب الخرافات ، هو من نوع الأدب المثير والقادر على أن يتجاوز بالطفل عالمه ، ليمتعه بعوالم ممتعة ومبهجة .. ومن ثم كان اهتمامنا بعرضه على الأطفال ، وتتمثل أجناسه فيما يلى :

أولا : أدب الخرافة :

يمكن عتبار « أدب الخرافة » من قبيل الأدب الإرشادى الوعظى التوجيهى ، والناصح الأمين .. كما يمكن التعامل مع الحكايات الأدبية الجميلة بلغتها القوية الرصينة ، والتى تجرى على ألسنة الحيوانات ، على أنها نوع من الخرافة . ويكون من هذا القبيل كتاب « كليلة ودمنة » ، وما يحويه من قصص خرافى يجرى على ألسنة الحيوانات ، متضمنا الكثير من النصح والوعظ والإرشاد ، ومنتهيا بمثَل خلاصة التجربة ، والرؤية الفلسفية

لما تم سرده على لسان بطل الخرافة ، وهو الحيوان .. فالخرافة لهذا هى « عبارة عن حكاية حيوان تستهدف غاية أخلاقية » . وقيمة الخرافة ، أنها تصدر عن حيوان فتمنح السامع إحساسين : إحساسًا بالأفق الخيالى الذى تتحرك فى إطاره الأحداث ، وإحساسا بالقيمة المعنوية والفكرية ، التى تتضمنها الخرافة ... . هذا فضلا عن أن جريانها على لسان الحيوان يعطى لمبدعها حرية النقد والوعظ ، والتعبير ... ويمكن للأطفال ، أن يجدوا فى هذا الأدب الخرافى عناصر إيجابية فى بناء شخصيتهم ، وعقليتهم ، ووجدانهم وعواطفهم وأخيلتهم .. حيث هذا اللون يحقق المتعة والثراء اللغوى والفكرى ، والقدرة على التصرف ، وإثراء الخبرات والتجارب ، وينبغى لمزيد من الانتفاع بهذه الألوان الخرافية ، أن تقدم للأطفال ، فى شكل حكايات قصيرة ، وتتضمن عناصر تليلة وتنطوى على معان قريبة ، وتوجيهات تربوية ، تشى بها الدلالات القريبة ، التى توفرها العبارات والمواقف ، والأمثال ...

والكتاب الآخر الذى له شأن فى عالم أدب الخرافة . هو كتاب « ألف ليلة وليلة » . لكن كتاب الليالى يحتوى على نوعين من الحيوانات : حيوانات خرافية ، وذلك من حيث قدراتها الخارقة مثل : « الحصان الطائر » فى حكية « الجمال والبنات الثلاث » ، وحيوانات مألوفة .. لكنها رمز لبعض الخيالات التاريخية القديمة مثل : « الثور الذى يحمل الأرض على رأسه » ، « والطيور التى تغير مجرى الأحداث » ، كما حدث فى حكاية « قمر الزمان » و« الملكة بدور » ... أما حيوانات « كليلة ودمنة » فحقيقية ، وقد نستأنس بعضها ... المهم أن الحيوان والطير ، هما محور « أدب الخرافة » .

وفى مرحلة خاصة من مراحل نمو الأطفال ، وهى مرحلة ما قبل سن العاشرة تشتد رغبة الطفل فى هذه الخرافات ، التى تنقله إلى عوالم خيالية ... لكنها تمنحه المنطلق والسلوك السديد . وهذه الخرافات تستهوى الطفل إلى أن يتجاوز مراحل الطفولة ، وذلك حينما يتحول العمل الخيالى إلى رمز خصب مثير للقضايا ومشكلات السلوك ، حينما تنشط لدى الطفل ، ملكة ، أو قدرة المعرفة ، لهذا كان واجبا على المربين أن يقدموا هَذِهِ الْخرافات بدافع المعرفة وتكوين الفضائل والقيم ، وثراء خبرات وتجارب الطفولة . وعموما فإن أدب الخرافة يحقق للأطفال ما يلى :

١ – أدب الخرافة ، هو فن قصصى ، يحقق للطفل قدرات فنية قصصية ، وذلك لما يحتويه من مواد وعناصر قابلة للتقليد والمحاكاة ، وإعادة الصياغة اللغوية ، وقدرة الربط

بينهما ، وهو فى الوقت نفسه ، يثرى الأطفال لغويا وأسلوبيا وخياليا ، ويمنحهم القدرة على حسن التصرف .

٢ – نستطيع بهذا اللون أن نقدم لعالم الطفل كل ما يحتاج من معارف وحقائق ومعلومات ، ونزكى فيه الخير والتوجه نحو المثل الرفيعة ، والنماذج الفاضلة .

٣ – نرفع أمام الطفل من قدر الحيوانات والطيور ونسند إليها المثل والحكمة ... حيث الإنسان لا يقل عنها قدرا تجاه خبرات الحياة ، وتجارب التاريخ والأيام .

٤ – امتلاؤها بالإشارات التاريخية والاجتماعية والإنسانية التى تغذى الطفل بتصورات دقيقة عن الاشياء والحياة والمجتمع ، والعلاقات الإنسانية .

٥ – تتميز هذه الخرافات التى تجرى على ألسنة الحيوانات بمضمونها الاجتماعى العام والخاص ، وبالمضمون الفنى ، أو القضية التربوية والإنسانية العامة وبالترابط بين هذا كله ، ووضوح الغاية والهدف مما يحولها إلى عمل فنى متكامل يساعد الطفل على إدراك هذه المضامين ، وكأنه يدرك معنى من معانى الحياة ، ولونا من ألوانها المختلفة ..

٦ – إن التعامل مع هذا اللون من الأدب ، فيما بعد سن العاشرة ، يعطى للطفل رؤية صادقة عن الحياة .. حيث تنطوى على الخير وعلى الشر وعلى الصراع بينهما ، فإذا ما جعل الخير ينتصر فى النهاية ، كان لهذا الانتصار أسبابه الموضوعية المنطقية ، الصادرة عن الفهم العميق لعلاقات الناس والأشياء . وكلما أعمل الإنسان عقله وقلبه ، واستشار ، قلت عوامل هزيمته ، وفرص فشله كما أن هذا اللون يقوى – بالخبرة والتجربة – لدى الأطفال عزيمتهم ، وقدراتهم الابتكارية ، وذلك عندما يواجهون جوانب القبح والشر والضرر فيتخذون من المواقف ما يجنبهم الشر ويبعدهم عن الضار ، ويقربهم من الخير ... ففى هذا اللون الأدبى تربية وتوجيه وإرشاد ، وإتاحة فرص تكوين الخبرات وتقوية قوى التخيل الإيجابى .

ثانيا – الأدب الأسطورى :

وهو أدب يتميز بالرمزية ، ويكثف العواطف ، ويمنح الخيال قدرة على الانطلاق ، والتفوق على الواقع ... إنه أدب « ما لا وجود له فى الواقع » . والأدب الأسطورى غنى بالدلالات ، وبكل ما يجعل العقل والوجدان ، قادرين على التألق والتحليل والمتابعة .. وهو من هذه الناحية تمرين لعقلية الطفل ووجدانه .. ويستطيع الطفل ، عن طريق سماعه لألوان الأدب الأسطورى ، أن يختزن نموذجا أدبيا لا يعطى الفن والجمال الأدبيين

فحسب بل الرؤية الفنية لمراحل تطور الواقع من لدن وجوده الخرافي الحيالى إلى أن . أصبح واقعا حقيقيا له وظيفته ، ودوره فى الحياة ، والأدب حينئذ هو – أيضا – استعراضى جمالى للإيقاع اللغوى وجمال التركيبات ... . ويمكن التعرف على لون من هذا الأدب الأسطورى . فمثلا فى أسطورة إيزيس ، وذلك من خلال سردنا وشرحنا لها عندما نقدمها لأطفالنا كنموذج من نماذج الأدب التفسيرى لنشأة وتطور الحية والأشياء ، بدون تعمق ، وتعرض للمعتقدات والمقدسات ، إلا بما يؤكدها ، ويحافظ عليها – فهذه الأسطورة – مثلا – تفسر عادة التحنيط عند قدماء المصريين ، ونشأة الزرعة ، وعلاقة النيل بالأرض المصرية ، وتوضح الكثير من العادات والتقاليد للمصرية القديمة ، ودورة الحياة ، ومطابقتها لدورة الشمس ... إلى آخر هذه الظواهر والمعتقدات ، التى لا تفسر فقط بل إن الأسطورة – أيضا – تقدم وسائل للحفاظ على الحياة وعلاجها من الأمراض وعوامل الفناء ... حتى يمكن أن تستمر فى العطاء ، أى أن الأسطورة منهج شبيه ، فى تقديم المعرفة بالمنهج المدرسى ، يمنح الطفل العلم والمعرفة وأسلوب التعلم ، وهو منهج تربوى يغذى فينا العادات والتقاليد ، عن طريق توضيحها والتأكيد عليها – وإكسابها نوعا من التعقل والتفهم وتصور الواقع : تصورا مبنيا على التفسير والتمييز ومن خلالها يمكن التعرّف ، أو تعريف الأطفال منهج القدماء فى التفكير ، والسلوك وأثر هذا كله على المجتمع الآن ، حتى يمكن بها تدريب الأطفال على المقارنة ، واتخاذ المواقف الصحيحة من التراث ، وتكوين عادات النقد والوعى والإدراك لكل ما ينال ، وينقل إليهم عن الماضى ، وعن الأجداد .. ومعظم هذه الحكايات ، و [الحواديت] تدور حول الجان ، والسحرة ، والشطار ، والغول ... إلخ ، وحول شخصيات خارقة ، والحكاية قصيرة شكلا ، وتدور فى بلاد بعيدة ، وتتجاوز الزمان والمكان . وهذه الحكايات تؤدى بأسلوب نثرى ، وتتسم بالسذاجة ، ومعظم شخصياتها إما [جان] أثيرى غير منظور ، أو مارد جبار نكسب وده بجميل أو صنيع نقدمه له ... وكثيرا ما تدور أحداث الحكايات والحواديت ، حول استبدال أطفال من البشر بأطفال من الجان ... أو حول طفل رضيع تتركه أمه لسبب ما ثم يجد ما يرضعه من حيوان : ماعز أو كلبة ، أو قطة ، وتتطور الحادثة ليصبح الطفل شابا جميلا لأب صياد وأم فقيرة ..

وأخيرا يضعه الحظ أمام الأميرة بنت ملك البلاد .. والحكايات بهذا لشكل هى للمتعة وإثراء العواطف والأحاسيس لدى الأطفال ، ومدّهم بصور وتعبيرات ، مفاجآت ، ومواقف تتطلب المشاركة وحسن التصرف ... وتقديم الحلول المرغوبة .

وهناك أدوات تستعمل فى هذه الحكايات ومنها « طاقية الإخفاء » « وخاتم سليمان » « والعصا المسحورة » و« السرير الطائر » و« وبدلة التنكر » . وينبغى الاحتراس ونحن نحكى هذه الحكايات التى يستحسن أن تتم عن طريق الجدة أو الأم ، أو المدرسة ؛ حتى لا يتم الخلط بين احقيقة والخيال ؛ إذ ينبغى أن يكون الأطفال على مستويين : مستوى ما قبل السادسة ، والغرض حينئذ هو إمتاعهم ، وإحساسهم بدفء الأسرة أو المدرسة ، والوصول معهم إلى حالة من التخيل الوردى الجميل .. والمستوى الثانى : وهو الأطفال ما فوق السادسة ، ولغرض المطلوب تحقيقه ، يتمثل فى المتعة وحسن التصرف ، والمعرفة المتخيلة عن عالم الخرافة ، تفرقة بينه وبين عالم الحقيقة ، ومدهم بأساليب تصويرية رامزة – وبأثر من هذا كله ، تصبح « الحكاية » أو « الحدوتة » نوعا من المحاكاة والتقليد ، وسرد لأحداث متخيلة ، فهى لهذا مؤلفة من قبل مؤلف مجهول ، شأن الليالى ، وكتابها ألف ليلة وليلة » وبنفس المواد والعناصر التراثية والفنية ، يمكن إبداعها ... لكن عن طريق مبدع يهوى الكتابة للأطفال ، ويعشق هذا النوع من الفن الشعبى الساذج لجميل الممتع لأطفالنا ... والمبهر فى سلوبه والقادر على جذبهم ، وشد انتباههم ، وبث الإعجاب فيهم .. وكما استطاع الأقدمون ، والمبدعون المجهولون منهم على وجه الخصوص ، تقديم ألوان من الكتابات الخرافية ، فإن المعاصرين قادرون على تقديم ألوان غنية بالخيال ، وتجسيد الإنسان فى صور قادرة على الحركة والعطاء .

ثالثا – أدب السير الشعبية :

وهو أدب المعارك والنضال ، والبطولات الفردية والشعبية ، وأدب التاريخ الذى كتبه أبطالنا الشعبيون ، بدمائهم وشجاعتهم وبسالتهم ، وكتبته الشعوب بدماء أبنائها ، وأدب الانتماء الوطنى والقومى ، والدينى والقيمى . ويرجع تدوين هذا الأدب ، الذى أبدعه الفنان الشعبى ، شاعرا أو ناثرا ، أو تشكيليا ، إلى « أن رجال الإبداع الفنى بتناولهم لهذه السير ، يستطيعون التحرر من قيود التاريخ الضاغطة ، التى تلزمهم بأحداث دونت كرصيد لحركات الحكومات والملوك ، لا لتحرك الشعوب عبر تاريخها الطويل » . وأدب السير الشعبية لهذا هو الذى يشتمل على المأثورات المروية أو التى كتبها الأديب المؤرخ الشعبى الذى عبر وصور ضمير وأحاسيس شعبه ، وانطلق يوحد الأمة العربية ، عن طريق إيجاد تاريخ شعبى لها يعبر عن ضميرها القومى ، ويبرز أبطالها . والطفل مع هذا الأدب ، والاستماع إلى سير زعماء وأبطال أمته العربية يتلقى جرعات من الانتماء

والارتباط بأمته ، ونؤكد فى شخصيته معانى الأمة والقومية كما نقدم له ألوانا من البطولات وزخما من المواقف العظيمة التى تزخر بها السير الشعبية ، والأحداث لعظيمة التى عاشتها الأمة كما يشع بين يديه بأسلوب عفوى جذاب التاريخ الشعبى لأمته العربية ابتداء من أيامها الباكرة حتى الآن ، ويتعرف من ثم على سيرة المهلهل ، وعنترة ، وأبو زيد الهلالى سلامة ، ودياب ابن فرسه المعروف « بابن غانم » ، « والسلطان حسن » « والأمير على » . كذلك نعرفه بشخصيات مثل « أيوب المصرى » ، « وذات الهمة » « والظاهر بيبرس » ، « وعلى الزيبق » « وسيف بن ذى يزن » ، وأدهم الشرقاوى ، وسير زعمائه المصلحين والوطنيين ، والعلماء والمفكرين ... . إلى آخر هذا لكم الهائل من حملة مشاعل الأدب والسياسة والفكر والحضارة ... والطفل لهذا يكون أكثر احتفالا بتاريخه القومى وانحيازا لوطنه وأمته ، وأقرب إلى النموذج الذى يسعى إلى التمثل به ... . والأخذ عنه ، والسعى فى سبيل القرب منه .

من ثم سنعتبر كل الألوان الأدبية ، التى تنتمى لعالم الحيوان ، أو هذا الذى يجرى على السنة عالم النبات ، والطيور ، والحيوان ، أو الذى يمثل الجان والبطولة الفردية أهم محاورها أدبا خرافيا خياليا . يحاول منشؤه ومبدعه أوراويه أن يقدم للأطفال ألوانا من الفن المؤسس عل الخيال والابتكار . ويمكن أن يمنحنا هذا الأدب كثيرا من المفاهيم التى تنعكس على الطفل ، وتتمثل تلك المفاهيم وانعكاساتها فيما يلى :

١ – إن هذا الأدب يقترب من ذهن الطفل ووجدانه ويعيد صياغة الموروث ، بما يجعل الطفل أكثر استعدادا لتفهمه ، وتذوقه وتعقل الكثير من رموزه ... ومن ثم يساعد هذا اللون من الأدب الطفل فى تكوين شخصيته بجانبيها الإبداعى الخيالى ، والعقلانى الفكرى .

٢ – يتميز هذا الأدب بثرائه اللغوى ، وتعدد مفردات اللغة ومترادفاتها . وهو ثراء ناشئ عن حرية التناول ، والتحرك فى إطار الزمان والمكان ، وهذا بدوره ينعكس على الطفل ... حيث إن اللغة عنده تبدأ فى أن تصاغ بمستويات مختلفة ... كما أن الطفل فيما فوق العاشرة ، لا يقف عاجزا أمام الوصول إلى أى مستوى من مستويات الدلالات أو مستويات التعبير باللغة ... حيث يختار المستوى المناسب لموقفه اللغوى ، ويبدأ فى التفرقة العقلية الوجدانية بين الحقيقة والمجاز .

٣ – وأدب الخرافة ، حينما يدور فى عالم الحيوان ، ويجرى على ألسنة الحيوانات ، إنما يرمز إلى ما فى الواقع الإنسانى والاجتماعى من سلبيات وإيجابيات . ومن ثم فإن

الطفل يستطيع أن يميز الرمز ودلالته ويستطيع – أيضا – أن يستخدم تلك الرموز فى الدلالة على معانى الظلم ، والأنانية والجشع ، أو الحب والتسامح والإيثار والتعاون ، أى أنه يحسن التوظيف اللغوى .

٤ – هذا اللون من الأدب يقدم فى الأساس المتعة ، والاستمتاع بما فى قصصه من مغامرات وخرافات وآفاق ممتدة .. والأطفال مع هذه المتعة سوف يميزون الحقائق ، ويعيدون صياغة الأشياء ويفرقون بين الخيال والحقيقة ، ويتأكد لديهم أنهم يستمتعون أو يبدعون صيغا أدبية جميلة وممتعة ، فيساعد هذا على بناء عالمهم الفكرى والفنى .

٥ – إن هذا الأدب ، بمنطلقاته الخيالية ، مثير للخيال وحافز للهمم ، ومنشط للفكر ، والقدرات الإبداعية والابتكارية ... لكن ينبغى أن تقدم للطفل هذه الجرعات الأدبية الخيالية على أساس من خبراته وما حصل من معارف وقدرات ، وعلى أساس من مرحلته الزمنية ... لأن أدب الخيال يتجاوب دائما مع المخزون الوفير من الخبرات ، والقدرات

٦ – ومع كل ما فى هذا الأدب من خيال وتجاوز للحكايات الشعبية التى تظل وفية للواقع ، ليستطيع الطفل أن يقبض على بعض الأشياء القابلة للتصديق ، والمغمورة فى الواقع .

٧ – هذه الألوان لا تخلو من صراع .. فى طرف منه يقف الشر وفى الطرف الآخر يقف الخير ، وفى النهاية ينتصر الخير ... وفى هذا كله ترسيخ للتقاليد الإنسانية الرفيعة وتأكيد على معالم الخير كما أننا نجد فى هذا تنويرا لتجارب الطفل الحياتية ، وصقلا لخبراته ، وإثراء لقدراته وتعميقا لمفاهيمه ، كل فى الإطار ، الذى تسمح به مرحلته الزمنية النامية ، وبما لا تتداخل المفاهيم ، والقدرات معه حتى يمكن إحداث التطور .

٨ – للكلمات فى « أدب الخيال الخرافى » مذاق خاص ، وللأساليب طعم يحس به الأطفال عندما يتعاملون مع أدب من هذا النوع ... بشرط اتصافه بالصدق والأصالة ... ثم وقع هذا الخيال الملح على عقل ووجدان الطفل وما فى هذا كله من تنمية للحس الجمالى وتكثيف للمشاعر القابلة للتعامل مع الحياة . ومن ثم صياغة الشخصية الإيجابية .

٩ – هذا الأدب ، يترقرق شفافية ، وإخلاصا ومحبة للبطولة والفردية ، والابتكار وحسن التخلص ، وهو لهذا قادر على النفاذ إلى شخصية الطفل ، ليصلح من بنيتها

الأساسية فى اتجاه الحياة والثقة والإخلاص والتفانى ، وتنمو من ثم إرادة التحدى والتغيير والتقدم ، ولهذا كان أدب الخرافة أقرب إلى التأثيرية منه إلى التعبيرية وقوانين القص .

١٠ - إننا بمثل هذا الأدب - لو نجحنا فى وصله بوجدان وأخيلة وأحاسيس أطفالنا - نستطيع أن نقدم صورة رائعة لماضينا ومن ثم نجعل أطفالنا يحلمون بمستقبلنا ، كما يمكن لنا بهذا الأدب أن نمحو القتامة التى تعلو صورة الحياة بسبب افتقاد الحب بين الأطفال ، والضياع الذى يمزق معظمهم ، وانهيار بعض الأسر التى تنفى بهذا سعادة الطفولة ، كما يمكن مقاومة الإعلام الغربى والغزو الثقافى والفكرى المتمثل فى كل المشهيات التى تطرحها المجتمعات الاستهلاكية والإباحية ... فأدب الخرافة هذا ينمى - لو أحسن توجيهه - الإحساس بالذات وبقيم الحياة السخية بالعطاء ، ويقوى الرفض والتمرد على كل ما هو سلبى ، وينمى فى الطفل ، عناصر التخيل الإيجابى .

١١ - يؤدى هذا اللون من الأدب ، خبرات متضمنة ؛ ولذلك ينبغى أن توجه طرق التدريس والوسائل ، وتكنولوجيا التذوق الأدبى نحو تأكيد هذه الخبرات ، وإثارة الانفعال والاقتناع حولها ، وفى عقول ، ووجدان الأطفال .

١٢ - هذا الأدب فضلا عما ذكرت . فإنه يحيل الأشياء فى وجدان الطفل إلى رموز تشع بالمعانى ، والخيال الجميل .. فإطلالة الشمس من فوق الجبال ، والبيوت ، ومن وراء الأفق البعيد ، والحيوانات الأليفة ، تتحول إلى قطيع ينعم بالحرية ، والطيور وهى تبنى الأعشاش كأنها الحياة ، والأمل ، والسعادة ، والأفراح وهكذا يحول الأدب الخرافى ، كل شيء إلى طاقة مفعمة بالحياة ، والأمل ، والمعانى .

١٣ - المبدع لهذا الأدب ، يستطيع أن يستوعب بقدرة فائقة ، ورؤية معاصرة ، تراث الآباء والأجداد ، ليستدعيه بقيمه ، وتقاليده ، وشموخه فيجعل الأطفال يعيشون الحلم القومى ، ويستعذبون فنونهم الأصيلة ، ويلمسون نعومة الحياة ويرون الجمال عن طريق التصور الخيالى لكل ما أبدعه الفنان العربى والمبدع - حينئذ - يتحول من عالم مثير ؛ ليجعل منه قوة دافعة خلف مراحل نمو الطفل المتداخلة .

الفصل الخامس

الكتابات الإبداعية بين الإبداع والقراءة

(أ) الإبداع : مجالاته وأهدافه وعلاقته بأدب الطفل :

إذا كنا حريصين على إيصال أعمال أدبية رفيعة المستوى إلى أطفالنا . فحرصنا أكبر ، عندما نستكبهم أدبا جميلا صادقا فى التعبير عن عالمهم ، وأن نساعدهم فى أن يبدعوا كتابات قصصية ، ومسرحية ، ووصفية ، وإنشائية ، وتجارب ذاتية ، وتراجم عن عظماء ومصلحين ومفكرين ؛ لأننا حينئذ نثرى عالم « أدب الطفل » من ناحية ، ونقوى فى أطفالنا الميل إلى الكتابة الإبداعية ، لنحقق من هذا كله رؤية تنبؤية مستقبلية فى اتجاه مواطن مثقف قادر على التفكير السليم ، وعلى المشاركة الإيجابية ، ويرتفع بالمسئوليات التى ينهض بها إلى مستوى الهواية والانتماء ، والقدرة على الإبداع والابتكار كما نحصل فى الوقت نفسه على إبداع أدبى يمنح الدارسين مجالا خصبا صادق الدلالة على أصحابه ، كى يقدموا لنا رؤية علمية ونفسية وتربوية للتصنيف التربوى والتعليمى ، ومن ثم تقديم مناهج مناسبة ،وانفرز الجيد الصحيح للمتعلمين ، والإمساك بعناصر إصلاح اللغة ، وبيان مقومات تطورها تطورا يقوم على ما يقدمه هؤلاء الأطفال من تداعيات وتشكيلات لغوية وما يفرضه التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى السائد ، باعتبار الأطفال هم ركيزة أى مجتمع ، وأهم مظاهر تطوره وأكثر عناصره استجابة للتطور ، وتعبيرا عنه وأكثر القوى اختزانا واستجابة ، وتلقيا وتقبلا للغة وللعادات والتقاليد .. وأبرز هؤلاء جميعا فى الإفصاح عن الاحتياجات الملحة ، والحاجات الضرورية . والكتابات الإبداعية ... الذاتية تنتمى فى حقيقتها إلى الأدب ، الذى هو صورة الحياة والمجتمع ، وضمير الإنسان .. حيث المطلوب من الطفل أن يسجل خواطره ، وعلينا أن نساعده فى التعبير عنها بأسلوب فنى لغوى أصيل ، وأن نظل قابضين على بذور الهواية والدربة . والاستعداد إلى أن يصل إلى مقدرة تفجير اللغة وحسن التعامل معها ، وتوظيفها التوظيف الأدبى الجمالى الأمثل ، ليتمكن من عرض الحياة التى يحياها والمجتمع الذى يعيشه ، والمشاعر التى تفيض على سلوكه فى صور أدبية جميلة وصادقة الدلالة على صاحبها ومبدعها ، والكون الذى أبدعها من أجله ومثل هذه الإبداعات أو الكتابات ، تعتبر من

أهم أنماط النشاط اللغوى لدى الطفل ، وتدعم صلاته بمجتمعه ، وبنوعى النشاط المختلفة ، وتربطه بكل ما حوله . ودون هذا النشاط الإبداعى ، لا تقوم بين الطفل ، وواقعه الاجتماعى صلات فعالة منتجة ومثمرة لكل ما هو مفيد لصالح الطرفين ... فالكتابات الإبداعية من ناحية عامل أساسى من عوامل وضوح الرؤية الفردية والاجتماعية ، وجزء حيوى فى اتصال الأفراد بمجتمعهم وثقافته ، ومن ناحية أخرى أحد من أدوات التربية النفسية والعقلية إذ تصحح النفس بأسلوب ومنهج التعبير عن عواطفها ومشاعرها .. وكلما كان الطفل أقدر فى التعبير الأدبى عن ذاته ، كان أصح نفسا وأقدر على مواجهة مواقف الحياة وتفاعلاتها .

وبذلك يحل مشكلاتها ، ويتصدى لمعوقاتها ... والكتابات – أيضا – من أهم وسائل التعليم وأدواته ، إذ يعتمد تحقيق الكفاءة بين المتعلم والحقائق المراد أن يتعلمها على مقدرته الإبداعية ، وقدرته على التصور ، والتصوير . والطفل القادر على الكتابة ، قادر فى الوقت نفسه على فهم ما ينقله إليه غيره ، وإفهام غيره حديثا وكتابة .. وفهمه هذا يترتب عليه حسن استخدام المفهوم .. وتوظيف التوجه وهذا ما يحققه الإبداع الأدبى فى أحد أوسع . ويمكن النظر إلى أهمية الإبداع ضمن كتابات الأطفال لتحقيق الغايات والأهداف التعليمية وذلك فيما يلى :

١ – إن الإبداع ، دليل لغوى وجمالى على تحقيق أهداف العملية التعليمة والتربوية ... حيث الاستخدام الأمثل للغة فى تكوينات وتشكيلات لغوية جميلة ، ومن ثم يحقق الأهداف اللغوية والفنية المنوط بها المنهج ، ويعمل على وضع المعلومات فى مواقفها الوظيفية .

٢ – وهذه الكتابات تدعم الارتباط الوثيق لما يبدعه وما يعيشه مجتمعه ، وتقوى روابطه الفكرية ، وتعد مظهرا لنشاط أدبى يؤكد المقدرة الفكرية لقطاع عريض من قطاعات المجتمع ، وهو قطاع الطفولة مما يحقق توجهات المنهج نحو تنمية الأطفال فكريا وعقلانيا .. وبالتالى ربطهم بالحقائق العلمية التى تكتشفها مرحلتهم ، مما يكتسبهم قدرة على إصدار الحكم والتبصر بما يفيد ، ونقد ما يعرض عليهم ، فتتأكد الحقائق التى يحرص عليها المنهج فى إطار من الفعاليات التى يسعى المنهج لتحقيقها فى المتعلمين الصغار ، حيث الكتابات الإبداعية تدعم النزوع العلمى .

٣ – والكتابات الإبداعية ، تقوى الذات لأنها تعبر عنها ،وتدعم الثقة فى النفس ، وتنمى الطفل اجتماعيا وثقافيا ... وهذا يحقق أهدافا منهجية تسعى إلى تزويد الأطفال المتعلمين بخبرات تؤهلهم للقيادة ، والنهوض بالأعمال ، وتحقيق أهداف لمجتمع فى

أفراده ، وإعدادهم للمواقف الحيوية المختلفة ... والظروف المتشابكة ، وتكتشف فيهم الاستعدادات .

٤ – إن هذا اللون من الكتابات الإبداعية يكون المقصود منه التعبير عن الأفكار والعواطف والخواطر النفسية ، ونقلها إلى الآخرين بطريقة جميلة .. حيث اللغة المختارة ، والصناعة اللغوية الفنية ، والصور الجميلة ، والأفكار الإنسانية السهلة .. وفى هذا تأكيد على أهداف المنهج لتحقيق الابتكار ، ولمحاولة اكتساب مهارات عن طريق الكتابة ، والكشف المستمر للأفكار وتكوين البنية السليمة للمجتمع ...

وفى إطار الكتابات التى يقدمها لنا الأطفال ويمكن لنا عن طريقها تقويمهم .. نستطيع التعرف على نوعين من الكتابة :

١ – كتابة تعبيرية إنشائية ، ويكون الغرض من هذه الكتابة التعبير عن المجتمع بالمقالات ، والقصص والروايات والتمثيليات والتراجم ، ونماذج فنية من نظم الشعر ، وتدبيج الخطب السياسية والاجتماعية والاحتفالية ... ومثل هذه الكتابات تساعد على تنمية الطفل اجتماعيا ولغويا وثقافيا ، وتستثمره كاتبا مفكرا وعالما مكتشفا ، ومواطنا نشطا فى الميدان الاجتماعى .

٢ – وهناك الكتابة الإبداعية ، ويكون الغرض منها التعبير عن الأفكار ، والخواطر النفسية وتصوير المشاعر والعواطف ، والبوح بما يعتمل بداخل الأطفال . ومثل هذه الكتابات ، تقوى الذات ، وتغرس فى الطفل حب الجمال ، وتذوقه ، وتجعل منه مواطنا حساسا متفاعلا ومتأثرا ومؤثرا ، وهذان النوعان ضروريان للأطفال ... فالأول ينهض بالطفل اجتماعيا وماديا وثقافيا . والثانى ، يمكنه من أن تكون لفرديته وذاتيته التأثير الإيجابى المطلوب ، وأن يؤثر فى الحياة والمجتمع ، والنشاط لعام ، بأفكاره ، وعواطفه ، وشخصيته ، ورؤيته المسلحة بالصفاء والنقاء ، ودقة الإحساس ، ولهذا كله .. كان ضروريا تدريب الأطفال على النوعين .

(ب) الكتابة الإبداعية والقراءة :

وحتى يمكن أن يستفيد الطفل المصرى من برنامج دعوة « القراءة » الذى يعمل على نشر القراءة بين أفراد المجتمع المصرى بعامة وبين الأطفال بخاصة ، على اعتبار أنهم البنية الأساسية للمجتمع ، والصوت القادم ، والمستقبل الواعد ، فهم حينئذ القيادة السياسية والاجتماعية والفنية والعلمية والفكرية ، كما أنهم المنظومة ومفرداتها على كل المستويات :

لذلك فالأمر يتطلب عدالة اجتماعية تعيد التوازن العادل بين عالم الصغار : إن لم نستطع تحقيقه بين عالم الكبار وذلك بتقديم وجبة مغذية لكل طفل قارىء يتردد على مراكز القراءة ، لأننى لا أستطيع تصور طفل يهوى القراءة ، وهو فى الوقت نفسه يعانى الجوع والحرمان ، ويشعر بالمرارة بسبب ضيق ذات اليد الذى تعيشه الأبوة المصرية ، وفى ظل مجتمع ملايينُ أطفاله يعانون « الأمراض » ، « والأنيميا » ، والقلة تعيش رخاء يأتيها من ثراء الآباء الذين معظم ثرائهم يتم بطرق غير مشروعة ، أو بسبب فرص تتاح لهم ولا تتاح لغيرهم ، لذا يجب على المجتمع أن يعيد التوازن بين الجميع وذلك بتقديم جوائز القراءة ، وتعطى من يتردد بصفة مستمرة على مراكز القراءة المتاحة للجميع .. وهذه تحقق إقبالا متزايدا على نظام القراءة ، وتمكن الطفل من الحصول على وجبة تهيئ له عقلا صحيحا قادرا عى الفهم والاستيعاب ، وإحساسا مفعما بمشاعر الرضا فيقبل على الحياة والمجتمع والقراءة بشغف وشوق وحنين دائم .. وهذا كله فى استطاعة المؤسسات التربوية ، والثقافية ، والاجتماعية ، بعامة . وفى استطاعة أى مجتمع يرغب فى رفع المعاناة عن أطفاله ، ويضاف إلى هذا العدل بين الأطفال ، أن نحقق الوسائل التى تحقق مساحة أوسع من الإقبال على برامج القراءة للجميع ، وتتمثل فيمايلى :

١ – نشر المكتبات الصغيرة المتنوعة ، المحدودة التكاليف التى يستطيع كل طفل تكوينها ، مع الحرص على إهداء بعضها لمن يطلبها منهم ، تأكيدا على علاقته بمجتمعه ، ونمو شخصيته ، وهذه المكتبات البسيطة المتنوعة ، والتى تصبح فى متناول كل طفل تأخذ فى النمو والتزايد والتنوع مع كل مرحلة من مراحل عمر الطفل ، وتصميمها بحيث لا تشغل فراغا كبيرا فى مسكنه .. وهذه يمكن اعتبارها مكتبة الطفل المنزلية .

٢ – إعادة الحياة إلى مكتبة الفصل على أن تحتوى على الكتب والمجلات ، وأن تبلغ من التنوع والكثرة ما يتيح لكل طفل وتلميذ أن يجد ما يميل إليه ويحبه من المجلات والكتب ، ولا يستطيع شراءه ويمكن للأطفال أن يديروا مكتبتهم تلك بجهودهم ، وتحت إشراف معلمهم ، وتنتشر هذه المكتبات فى الفصول ، وتتنوع بتنوع المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ... وتقوم المدرسة بالتعاون مع جهاز البحوث التربوية فى كل إدارة تعليمية بعمل بحوث ، لتقديم الدراسات المستنيرة حول وسائل تشجيع الاستمرار فى القراءة الحرة والمطالعة واستثمار هذا كله فى إيجاد علاقة بين القراءة والتفوق الدراسى ، تأكيدا على فائدة القراءة . من ثم تصبح القراءة إحدى وسائل التقدم .

٣ – إعادة فترات القراءة الحرة مع تقديم بعض الموسيقا الخفيفة ،أو التمثيليات ، التى تتخلل فترة القراءة ، والتى تكون غالبا قصة أو رواية قابلة للمشاهدة بعد قراءتها . وأحيانا تكون القراءة لقصة أو رواية قابلة للتمسرح ، أو التمثيل . على أن تعرض ، بعد قراءتها ثم تقديم تعليق بسيط عن الأصل ، والتمثيل يشارك فيه الأطفال بالمناقشة والتعليق .

٤ – إعادة مكتبة الحى بفروعها المنتشرة فى نواحى الشوارع والحوارى ، والتى تصل إلى الأطفال من : ٣–٦ ، وهذه المكتبات المنتشرة محمولة على عربات متحركة . وتسمى بالمكتبات المتحركة أو الباحثة عن قراء . وفى ظل هذه المكتبة المنتشرة تتكون جماعات القراءة الحرة ، وتتألف من أطفال أو تلاميذ يتنافسون فيما بينهم على من يكون القارئ الأول ، أو على الجوائز التشجيعية .

٥ – إقامة معارض للكتب تنتشر فى الأحياء وتقام حولها المناقشات والندوات التى يقيمها الأطفال أنفسهم إدارة ومناقشات وإلقاء ..

٦ – إعداد لوحة جميلة تعلن أسماء من حققوا قراءة أكثر أو أشمل أو أعمق ، أو أن يسجل عليها الطفل الكتب التى قرأها ، ويمكن أن تتعدد تلك اللوحات وتكون بشكل جذاب ولافت للنظر .

٧ – وفى كل الأحوال فإن على المجتمع أن يمكن الطفل من الحصول على إحتياجاته الثقافية ومواده الإعلامية بأسعار زهيدة ، وأن تشجع المدارس الجميع على القراءة تشجيعا واعترافا ، وذلك بمنح الأطفال والتلاميذ درجات تضاف لموادهم فى نهاية العام الدراسى ..

وفى كل الأحوال فإن الاندماج فى جو القراءة – لا شك – ينبغى أن نحققه ، لأن الطفل الذى ينشأ فى أسرة قارئة ومجتمع قارئ سيكون له أكبر الأثر فى نشر القراءة وإقبال الأطفال عليها .. وإذا كانت القراءة موجهة حافلة بالصور الجميلة ، والمواقف الرائعة ، والتعابير المؤثرة . وكل هذا من شأنه أن يجمل ويحسن طباع الأطفال ، ويهذب سلوكهم . ويعمل على ترقية أذواقهم ؛ لأن الصور الأدبية الجميلة ستترك الأثر الطيب فى نفوس الأطفال القارئين .. كما تعرض القراءة على الطفل نماذج جميلة من المقولات ، والأفعال ، يهتدى بها الطفل فى حياته . ولن يتحقق شىء من هذا إلا مع الأدب الجميل الصادق ، والذى يترك أطيب الأثر فى النفوس ؛ لأن مثل هذا الأدب الجميل هو فى الحقيقة تعبير فنى جميل عن معاناة الشخصية الإنسانية بعامة ، والشخصية القابعة فى عالم الطفولة بخاصة .. حيث المقدرة المحدودة والضعيفة للطفل والتى لا يستطيع معها أن يعبر عن خواطفه تجاه المواقف الخاصة حيال الطبيعة أو الكون أو المجتمع .. فليس هناك

انفصال بين الأدب وكونه تعبيرا جميلا ، وبين كونه أداة اعتراف وبوح : ودلالة على الحاجات والرغبات .

(جـ) بين أدب الخرافة ، والكتابة الإبداعية لدى الأطفال :

أدب الخرافة فن جميل ؛ لأنه يشد انتباهك بما يحمله بين صوره وتعبيراته وتشكيلاته من إبهار وإمتاع ، وهذا الفن يحيرك بجماله وامتداد الأفق الذى تتحرك فى إطاره الأحداث ، وبالعمق الذى يجذبك إليه فى حنو والتفاف ونجاح . هذا الفن بخصائصه الخيالية والمتعالية عن الزمان والمكان يأتى من أنك تحاول سبر أغواره فلا تخرج إلا بجرعات مكثفة من الخيال ، والقدرة على الامتداد والتجاوز ، ونجاح هذا الفن بأدبياته ، وأشكاله الموزعة بين «الأساطير» «وحكايات الحيوانات» وقصص « ألف ليلة وليلة » وللموروثات الشعبية يعود إلى قوة تأثيره فى جميع من يتلقى فنونه وأشكاله ، وفى نفس هذا الأدب نجد الصور والتراكيب الخيالية أو المثيرة للخيال أو التجربة الوجدانية بنزوعها الخيالى ، كما نجد الرمز المشع بالخيال المفعم بالتأثيرات المختلفة ، والتناول الذكى للواقع ، والإسقاط التفاف لكل ما هو جميل وفاضل ودافع نحو التربية والسلوك، والحلول والقدرات التى تحترم كل المعوقات، والتفاؤل والأمل اللذان يخترقان بالضوء الباهر كل ظلام ، وبالثقة والبطولة الإنسانيتين . وبذلك ينفتح الأفق ، لنلتقى مع الظاهر المرئى متدثرا فى دثار الغيبيات ، وما وراء المدركات . ومثل هذا العالم المثير يكون أكثر اقترابا من عالم الطفولة وملامسة لمقوماته وعناصره الإنسانية والذاتية حيث الاقتراب من عالم الخيال لدى الأطفال وأفكارهم ومتعهم الحسية والوجدانية . ويستطيع هذا العلم الخرافى المثير أن يكشف عن أساليب الأطفال وطرقهم فى إدراك العالم وتعميق أسراره من حولهم ،وتقديم الخبرات فى مواقف باهرة .

وفوق إدراكهم بالبصيرة المتخيلة .. ليس هناك من وسيلة أدبية تجعلنا أكثر إحساسا بعالم الأطفال الوردى البديع سوى عالم الخرافة والأسطورة والحكايات .. من ثم يصبح هذا العالم الأدبى قادرا على التأثير والمحاكاة ، وقادرا على صنع أجواء خيالية ، يمتح منها الطفل أجمل صوره ، وتصوراته ، وأخيلته وتخيلاته .. ومن هذا كله تتشكل المواد الخام التى تساعد أطفال ما فوق التاسعة على الكتابة الإبداعية وعلى توفير مخزون من الصور الخيالية التى تساعد على تفجير قدرات الطفل فى الكتابة الأدبية وتساعده — أيضا — على ابتكار الحلول المناسبة لفنونه القصصية ، وحكاياته الشعبية . من هنا كان الربط بين أدب الخرافة والأساطير والكتابات الإبداعية ، وتنميتها لدى الأطفال مؤسسا

على علاقة حميمة وصميمة بين الفنان والطفولة .. وهذا يدفعنا دفعا نحو تنمية الحاسة الأدبية الإبداعية لدى أطفالنا وندعو الدارسين لجلاء الكثير من أدب الحكايات والسير الشعبية ، على أننى من ناحية أخرى أقرر أن القدرات الهائلة ، والخيال الممتد ، والتجاوز المثير – وهو ما نجده فى هذا الأدب – يتسلل إلى عقول الكبار والصغار ووجدانهم معا ليصنع رافدا متجددا يغذى ملكات الكتابة والإبداع والتفكير بعناصر ومقومات تنضج وتصقل وتثرى هذه الملكات .. وبفضل هذا البِشْر الذى يتكون داخلنا تتألق كتاباتنا وتتعمق ، وتتأكد أصالتها ومصداقيتها وجمالها الفنى ، وصدقها النفسى .. وتتمدد بداخلنا عوالم متخيلة تراها قادرة على تقديم العنصر الخيالى وتبوح بكل ما نود التعبير عنه .

وهى تؤكد وتلح على أن تتعلم الإبداع .. فالطفل – بعيدا عن عجزه المرحلى والظاهرى – هو قلب يغفو بين لفائفه ونياطه شاعر أو أديب، أو عالم أو مفكر ، ودائما يعيش فى أعماقه فنان يفيض فنا ، وآماله وأحلامه تنبض بالشوق إلى المجهول ، وكلماته محفور فيها الصدق والبساطة والأصالة . ولحظاته النقية هى وقفة للبوح والتعبير عن ذاته ، ومطالبه الروحية والعطفية وكل تصرفاته وأعماله وعطايا طفولته ومضة حب يجمع فى نواحيها الحب والمودة ، والتناقضات المحببة . وإذا كان الطفل يغفو فى قلب الفنان الأديب الشاعر ، فإن الفنان يتسدد برهافة وعذوبة بداخله .. فبين المبدع الفنان والطفل علاقات وقدرات تكمن فى الكشف عنها وتوجيهها نحو تنمية القدرة الإبداعية عند الأطفال وها هو الشاعر يعبر عن هذه العلاقة ويصور عطاءها ، ويمنحنا وقفة نتأمل فيها لقاء الطفل بالفنان :

الطفل اللاهى هو قلبى أهواه وأرعاه
أطلق حريته يمضى بى ما تشاء هواه
دنيا أحلامى تفتحها ، كالآفاق يداه
وبجناحيها السحريين أحلق نحو رؤاه

فلا شىء يعيد الثقة ، والأمان لأطفالنا ، إلا الحب والتربية الصحيحة ، وأن نغنى لهم ، ومعهم ، وتنطلق أناشيدنا الوطنية ، والقومية ، معبرة عن سعادتنا ، وحلمنا ، وشوقنا نحو المستقبل والواقع أنه من المستحيل قبول هذه الآمال نحو الأطفال دون أن نحقق لهم قدرا كبيرا من العدل والمساواة والرعاية الإجتماعية والصحية والنفسية ، ودون أن نشعر أطفالنا بأنهم جميعًا أمام عواطفنا سواء ، وأن المهد الذى نهزه بيدنا لن يكتمل الاستمتاع به إلا عندما تُقَدَّم إليه باليد الأخرى كوب لبن وعندما تتاح فرص متساوية لجميع أطفالنا ...

الفصل السادس

النثر .. وأدب الطفل

أولا – فى النثر العربى :

إذا أردنا إنصافًا ، كان صدر الإسلام ، هو الينبوع ، والمدد ، الذى تغذى على موائده ، النثر العربى .. فهو الرافد الأصيل الذى منح النثر البناء والتصوير ، وطرائق التفكير ، واستطاع بهذا أن يتحمل مسئوليات الإبداع النوعى ، الذى تنوع فى إطار رحابة وسعة أفق الإبداع وقد تطور هذا الأدب كما ونوعا ، وأطل علينا من خلال أدباء عظام أمثال : عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وكتاب ومفكرى المذاهب الفلسفية ، والكلامية .. إلى أن وصلنا ، بعد صراعات بين اللفظ وجماليات التشكيل ، والمعنى ، واهتمامات المفكرين .. لكن مع العصر الحديث ،تكامل له بناؤه ، فأصبح جنسًا أدبيًا حاملا لرسالة التفكير العربى ، وإبداعات الوجدان وهذا بعينه هو المستوى الذى وصل إليه دفعة واحدة على أيدى رواد ، تنقلوا به بين اتجاهات عديدة ، تضافرت جميعا فى النهاية ؛ لتصنع من النثر العربى رسالة للحياة ، ومنهجًا للتفكير وفنًا للإمتاع ، وبين هؤلاء الذين قاموا بدور ريادى فى تطوير النثر الحديث ، يحتل « مصطفى لطفى المنفلوطى » ، مكانًا بارزًا إذ ليس كافيا ، أن يكون الكاتب موهوبًا .. بل يجب أن يكون ذا حظ موفور من العبقرية الإبداعية ، وصاحب رسالة تنويرية وهذا ما لمسناه فى أدب « مصطفى لطفى المنفلوطى » الذى تفتحت طفولة أدباء وكتاب ، ومفكرى مرحلة ما بعد الحرب الثانية على صوره ، وأخيلته ، ومفرداته ، وأساليبه التى غمرت القلب والوجدان بعطر إنسانى ، تتفتح عنه براعم الكلمات وقد نهلوا من ثره ، واغترفوا فكرا اجتماعيًا يحث على الرحمة والتعاطف بين البشر ، واستمتعوا بفن ، وبمقدرة على الإبداع انعكست عليهم ، وعلى كتابتهم ،فيما بعد ونكاد ننسى ، أن « المنفلوطى » فنان يرسم بالكلمات ، لوحاته اللغوية البهيجة ، والحزينة ؛ لأنك تحس بالحياة تضج بشقيها الحزين والمبهج خلال الشخصيات ..

وأدب المنفلوطى صالح ؛ لأن نقدمه لأطفالنا ففيه كل عناصر ، ومقومات تربيتهم ، جماليا ، ولغويا ، وإنسانيًا كما أنه ملىء بالانطباعات ، وتحليلات للطبيعة ، وتصوير عقلى وعاطفى لمآسى الحياة ، وظلم الإنسان .. من ثم فهو حافل بنشاط عقلى ووجدانى يتعمق

الوجود ، ويتصور العلاقات ، بذهن قادر على التحليل .. والنثر بعامة ، من أهم الألوان الأدبية ، التى ينبغى أن تعرض على أطفلنا ،فى أشكاله وأنواعه المختلفة . والمقال ، والكتابات الفنية ، والصحفية بخاصة حيث تتم تنشئة عقل الطفل ، وتدريبه على التحليل وحسن إبداء الآراء ، وتكوين وجهات النظر .. وإذا كان الشعر ، والأناشيد ، والتمثيليات ، تحقق للطفل مددًا غزيرًا من التنوير الفنى الأدبى ، وتطلعه ، على ألوان موسيقية تغذى وجدانه ، فيرق حسه ويدق فهمه وتمتلىء نفسه بالصدق والمحبة ، والتسامح .. فإن النثر (مقالات ،ودراسات بسيطة ، وكتابات صحفية) يساعد على تكوين الاتجاهات ، والتفكير الموضوعى ، ويمنح الطفل قدرة على الإبداع اللغوى ، الذى يصبح فيما بعد جزءا من تفكيره ، ويبث فى حياته ، خصائص ومقومات المواطن الصحيح حيث العقلانية ، تسود تلك الحياة .. وتنميها مع عذوبة ورقة وودعة . حيث الطفل الناشئ بحاجة إلى مثل هذا النثر الذى ينتعش فى الوجدان ، معنى الإنسانية ، وفى القلب معنى الرحمة .

ثانيا : صورة الطفل فى النثر الحديث

– **من كتابات المنفلوطى :**

« لى وحيد فى السابعة من عمره ، لا أستطيع – لحبى إياه وافتنانى به – أن أتركه من بعدى غنيا ، لأنى فقير ، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس ، لأنى أرجو بفضل الله وعونه وحكمته وإحسانه ، أن أترك له ثروة من العقل والأدب ، هى عندى خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب .

وأحب أن ينشأ معتمدا على نفسه فى تحصيل رزقه وتكوين حياته ، لا على أى شىء آخر حتى على الثروة التى يتركها له أبوه ، ومن نشأ هذا المنشأ : وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذى يصنعه بيده ، نشأ عروفا ، عيوفا مترفعا لا يتطلع إلى ما فى يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان .

أحب أن ينشأ رجلا ، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل ، وقلما يحمل العامل إلا بسائق من الضرورة ودافع من الحاجة . وفرق بين الغنى الذى يعمل تنمية ثروته وتعظيم شأنها شرَهًا وفضولا ، وبين الفقير الذى يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

أحب أن يعيش فردا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك فى ميدان الحياة ، يصارع العيش ويطلبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروى ويجرب ويختبر ، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة وينهض أخرى ، ويخطئ حينا ويصيب أحيانا ، فمن لا يخطئ لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم له شئون حياته . تلك الحياة التى تصفو بالمعاناة .

ذلك خير له من أن يجلس فى شرفة من شرف قصره ، مطلا على العاملين والمجاهدين ، يمتع نظره بمرآهم ، كأنما يشاهد رواية تمثيلية فى أحد ملاعب التمثيل .

أحب أن يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء وشقاء الأشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ، ليشكر الله على عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم .

أما الغنى الذى لم يذق طعم الفقر فى حياته فقلّما يشعر بآلام الناس ومصائبهم ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم . فإن حاول يوما أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب فعل ذلك متفضلا ممتنا لا راحما ولا متألما .

والألم هو الينبوع الذى تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان فى الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنسانى ، والجامعة التى تجمع بين طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها ، فمن حُرِمَهَ حُرِمَ كل فضيلة من فضائل النفس ، وكل مكرمة من مكرماتها وأصبح بالصخرة الصلدة شبه منه بالإنسان الناطق .

أحب أن يجوع ، ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ، ليستعذب طعم الرى ، ويتعب ، ليشعر ببرد الراحة ويسهر لينام ملء جفونه ، أى أننى أحب له السعادة الحقيقية التى لا سعادة فى الدنيا سواها وما السعادة فى الدنيا إلا لمحات كلمحات البرق تخفق حينا بعد حين فى ظلمات الشقاء .

فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها . وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم فلا يزالون ينعمون فيها ويتقلبون فى جنباتها حتى يستنفدوها ، فسيتولى على عقولهم مرض السآمة والضجر ، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم المتعب من التعب ، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسى المحروم من عذاب الحرمان ، وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات فردية لا تتفق مع الطبيعة البشرية ،

ولا تدخل تحت حكمها تفريجا لكربتهم ، وتنفيسا عن أنفسهم ، وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم فى ملاعب القمار ومجالس الشراب ، ومواقف الرهان ، إلا جماعة الفارين من سجون السآمة والملل ، يعالجون الداء بالدواء ، ويفرون من الموت .

أحب أن يكون غنيا بالمعنى الحقيقى ، لا بالمعنى الاصطلاحى ، أى يكون مستغنيا عن غيره لا كثير المال والثراء ، وما سمى المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه ، وهو اعتبار خطأ ما فى ذلك ريب ، فإن أكثر الناس فقرا إلى المال وأشدهم ولعا بإحرازه ، وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائلهم فى سبيله هم الأغنياء أصحاب المال والثراء ، وإن كان فى الدنيا شىء يسمى قناعة واعتدالا فهو فى جانب الفقراء المقلّين ، أكثر منه فى جانب الأغنياء المكثرين ، ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر فى يده فإذا هو فى نظره احياة نفسها ، يجمعه ولا يدرى ماذا يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه .

ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلا عن كثيره ، وإذا بلغ المرء فى حياته العقلية إلى درجة أن تنقلب فى نظره حقائق الكون ، وتتغير نواميسه فيرى الرءوس أذنابا والأذناب رءوسًا ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل فقل على عقله السلام .

لا أكره أن ينشأ ولدى غنيا ، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكنى أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر ، أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتدادًا كبيرا ، ويقدره فوق قدره ، ويعتبره الكمال الإنسانى كله ، فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ، وألا يجد من حوله من عشرائه وخلطائه مرآة يرى فيها هفته وعيوبه ، لأن عشراء الأغنياء متملقون مداهنون ، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم .

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة لا تفهم من شئون الحياة غير المادة ، ولا تعنى بشىء سواها ، فيصبح رجلا قاسيا صلبا ، ميت النفس والعواطف لا يرحم بائسا ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثى لأمة ، ولا يبكى على وطن . ولا يشترك فى شأن من الشئون العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه — راضيا عن نفسه ، مغتبطا بخطئه — أسقطت السماء على الأرض أم بقيت فى مكانها .

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب ويزدرى المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا فيصبح عار ّمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة التى لا تزول ، ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قرارتها ، لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزنا ، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم فى الحياة ، بل لاحق لهم فى الوجود .

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هى التى تليق بمقامه ومنزلته . ومن اشترط الغنى فى زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شىء سواه ، فيسقط فى زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه إن ولد له ألا يجد بين أوقاته ساعة يتولى فيها النظر فى تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيرا فى أيدى الخدم ، وكبيرا فى أيدى عشراء السوء فيصبح نكبته الكبرى فى حياته ، وعاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليه أن يقضى أيامه ولياليه مروعا ومذعورا خافق القلب ، تقتله الخسارة إن خسر ، ويصعقه قوت الربح إن فاته ، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار ، ونزول الأسهم وتغلبات الأسواق ، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية ، والجوائح الأرضية .

وما حُزْن الفقير الذى أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله ، بأشد من حزن الغنى الشحيح على الدرهم الذى نقص من مليونه أو الذى كان يؤمل أن يتم به مليون فلم يتح له . وما ليلة البائس المسكين الذى يتصايح أولاده من حوله جوعا ، ولا يجد ما يسد به رمقهم بأطول من ليلة الغنى الذى يسقط إليه بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، أو سهما من أسهمه قد نزل . وحدّثنى من رأى بعينه من جن وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيرا عن حوادث المنتحرين والمعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التى لا تفقرهم ، ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق ، وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة فى الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه أن يصبح واحدا من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم فى حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه ، فأندب حظى فى قبرى وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لى فيها ولا ولد » .

ثالثا : تعقيبات

(أ) بين النثر والشعر :

يستطيع مبدع الأعمال الأدبية ، أن يثرى ميدان الطفولة بأنواع تندرج تحت جنسين أدبيين رئيسين ، وهما : النثر والشعر وتحت مظلة هذا الإبداع ، وتنامى واعه الأدبية المتشعبة عن « الأنشودة » و« الأغنية » و« الحكى » و« القص » و« السرد » و« الأوبريتات » ينبغى فهم الإبداع للأطفال على أنه التزام وأن هذا الالتزام جزء من عملية الإبداع للأطفال . وبهذا المفهوم يتمكن المبدع من محاولة التقريب بين الإبداع الفنى والأدبى الذى يحدث حال كون الفنان المبدع صاحب رسالة نحو الطفولة ، وبين الحلم الفنى الذى يأتى حول كون الفنان مندفعا فى مسارات لا نهائية . من ثم ينبغى التفرقة بين الجنسين الأدبيين ، تفرقة تقوم على النقاط التالية :

(أ) الشعر فن الكلمة المشتقة من الإحساس والمتوجهة إلى المطلق .

(ب) أما النثر فهو فن الكلمة المشتقة من الضمير اليقظ المتوجهة إلى إنسان مخاطب برسالة فكرية أو إنسانية ذات خصوصية .

(جـ) كلا الجنسين يحمل لغة تواصل بين المبدع والمتلقى . لكن رسالة النثر أوضح ، وجماله فى هذا الوضوح ، ورسالة الشعر أكثر حفاوة بالغموض .. وجمال الشعر فى هذا الغموض .

(ب) التحليل الجمالى والفكرى والتوجهات التربوية :

هذه تطلعات وآمال جاءت كأنها قوانين مبررة ، ومعللة بعللها التى تؤكد صحتها وثاقب نظرة صاحبها ، وتمرسه بالحياة ، وخبرته بشئونها ، فضلا عما أطلعته قراءته عليه من تجارب الآخرين وخبراتهم ، وبخاصة الأدباء من أمثاله ، الذين صاغوا الحكمة والمثل ، وأكدوا فى عباراتهم الأدبية نظراتهم ورؤاهم ، فنفذت آدابهم وحكمهم إلى القلوب نفوذ السهام وأصابت كبد الحقيقة ، ووجدت كلماتهم الآذان المصغية التى تفرغ ما تسمع فى القلوب مباشرة لتضمن لكلامهم كافة جوانب المعقولية ، أو أكثرها ، إلى ما له من أخذ الصورة الأدبية وجمال التعبير البليغ !

حقيقة هذا ما يخرج به قارئ نص المنفلوطى السابق .

إنه يصور عاطفة أب حان على ولده ، فى غير انزلاق إلى التدليل المفسد ، بصير بما يصلح شأنه ، دونما اشتداد عليه ، إو إعنات له أو إجهاد . هو يتطلع إلى أن يكون

سعيدا به فى كبره ، كما هش له ، وفرح به فى صغره ، ويرغب أن يكون نموذجا طيبا ، وأن يمثل طرازا عظيما من الرجال ، يطمح كل ذى عقل أن يمثله أو أن يمثله ابنه ليكون امتدادا مشرفا له من بعده ، يجد من يسعد به كبيرا فى حياته ويباهى به غيره ويغتبط بما يسمع من ثناء الناس عليه ، وإعجابهم به . ذكره أنه سيكون آنئذ عنوان الحياة الصحيحة ، وواحدًا ممن يتأسى الناس بهم ، ويطمعون أن يكون أبناؤهم على شاكلتهم . وإذا أعدت فحص كلام المنفلوطى السابق رأيته ود أن يرى ابنه معتمدا على نفسه فى شأنه ، خفيفا إلى العمل مسرعا إلى ميدانه ، منطلقه فى ذلك أداء الواجب ، وتحقيق معاش كريم للنفس لا يبتغى وراء ذلك شيئا . هو يود أن يكون ابنه معايشا للناس واحدا منهم ، يمر بتجارتهم ليستفيد منها . وشخص هذه حاله لا شك أنه سيكون غير متعال ، مدركا قيمة ما هو فيه من نعمة ساقها الله إليه بعد أن بذل جهدا فى تحصيلها ، راحما بؤس البؤساء مشفقا على ضعف الضعفاء . إنه يشفق على ابنه من أن يفسده التّرف والغنى ، إن هو أحرز ذلك على حساب اكتساب الفضائل ؛ وتقدير العلم وأهله ، والأدب وذويه . إنه إن صار شأنه هكذا فسيكون مبعث ألم لوالده ، بعد أن يكون هو نفسه قد انزلق إلى الهاوية ، حيث يصير حبيس دوامة المال ، وتتبع مصادره رغبة فى الازدياد منه وتجنب ما ينقص كميته لديه فيظل واجفا مرتجفا ، متحسبا طول الوقت ، حريصا على ثروته ، ضنينا بها ، على أنه قد لا يدرك لذلك سببا معقولا لديه أو مبررًا يرجع إليه نهمه بهذه الكثرة الكاثرة من المال . وبينما هو فى هذا الحرص الدائب على الثروة والضن بها إذ بنازلة ، قد لا تؤثر قليلا فى مركزه المالى — تدهمه ، فيصير لها صريعا . إن المنفلوطى مشفق أن يكون ابنه من صرعى المال وضحاياه ، وممن قتلتهم الرفاهية وليونة العيش ، وغضارته ، فيغدون لا يرون للحياة طعما ، ولا للوقت قيمة ، بل يمر بهم بطيئا متثاقلا ، فما يكون منهم إلا أن يحاولوا قطعه فى الفساد والإفساد ومخالطة رفقاء السوء ، وقرناء الشقاء ، وإن بدوا على غير حقيقتهم .وقرناء الأغنياء المترفين وصحبة المتبطلين ، والملتصقون بهم وجلساؤهم يغلب عليهم الملق والرياء ، وإظهار العيوب وكأنها حسنات ؛ فتكون رؤاهم وآراؤهم هى الطامة الكبرى ، وإن لبست ثوبا براقا موشّى بجميل التصاوير وبراق الألوان . ومثل تلك النهاية السيئة يخشى المنفلوطى أن يصير إليها مثل ابنه ، إن أترفَ واستغنى ثنى ظاهريا ، مجردًا صاحبه من الأخلاقيات والآداب واحترام ثمرات العقول والأفكار . إنه يخشى أن يكون كذلك فيكون كالحجر تبلدا ، وخلوا من الإنسانية والرفق

بمن يَصْلَوْن لهيب الحياة ، ويكدحون لغاية نبيلة ، لا تقارن بها غايته من الحياة ؛ إذ هو آنئذ لا يعدو أن يكون جامعا للمال حارسا له لا يدرك له وظيفة ، ولا يعرف القيمة الحقيقية له . فالمال إن أدى بصاحبه إلى أن يهمل القيم ويرفعه على الفضائل والمثل ، فيغدو كل شيء مُقيَّمًا به ، وترتبط أقدار الناس لديه بما أحرزه منه — فإنه يغدو نقمة ، ويصير حائلا دون أن يرى صاحبه الرأى السديد فى الأشياء ، أو فى كثير منها على الأقل ، والمال عندما يلهى عن أداء واجب أو الاعتناء بما لا مندوحة للمرء أن يعتنى به ، وبخاصة الولد ، فإنه يغدو غير ذى قيمة ، ويصبح عديم الجدوى والأثر . فلقد تسوء تربية الولد يعهد به إلى المربين والخدم ، فإذا ما شب عن الطوق وورث هذا المال العريض فنادرٌ أن لا يعبث به ويبدده ذات الشمال وذات اليمين ، وينفقه على خلطاء السوء فيقض مضجع أبيه فى قبره ، وقد كان قبل مؤرقا مسهدا فى حياته لانشغاله بتثميره ماله وتكثيره ، ويكون له بئس الخلف . فلا حبذا مال أودى به إلى مثل ذلك .

إنها عاطفة الأبوة الحقة ، التى ترى أن المنفلوطى كان تحت تأثير قوى منها وهو يمنح من فكره وضميره الأدبى ، ومسئوليته الأبوية وهو يكتب هذه العبارات المعبرة ، ويصور لنا آماله بكلمات نابضة ، متدفقة من داخله يحوطها الإشفاق من المستقبل الذى قد يحمل فى طياته ما لا يحب الأب أن يراه متحققا فى ابنه ، ويحدوها الأمل بل وربما يسبقها ، لأن تتحقق للابن ما يطمح أب حكيم كالمنفلوطى أن يتحقق له ليكون مثال الإنسان الصالح لأن تندفع به عجلة الحياة فى اتجاهها الصحيح .

ولا يخفى على القارئ ما ضمنه المنفلوطى كلامه من تصوير عميق الصورة الكلية ، كما فى الفقرات الرابعة والخامسة والسادسة ... ولك أن تنظر إلى عبارته : « وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم فى ملاعب القمار ومجالس الشراب ... إلخ » فسترى أنها تنقل لك صورة من حياة المتهتكين من بناء الطبقة المترفة ، وهى حَرِيَّة أن تبعث فى نفسك الاشمئزاز منهم والرثاء لهم ، والإشفاق ، بل الحذر من أن ينضم إلى ناديهم منضم جديد ، وما ظنك بنفسك إن كان هذا الجديد ابنا لك ؟ !

ولك أن تنظر إلى الفقرة السابعة ، فتعيد قراءة هذه العبارة : « ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها ، حتى يكثر فى يده ، فإذا هو فى نظره الحياة نفسها ، يجمعها ولا يدرى ماذا يريد منه ، ويعبده وهى لا يرجو ثوابه ،

ويخشى عقابه ... إنها تبعث إلى جانب الرثاء على السخرية والهزء آخر الأمر بمن هذا حاله ، فيقبح فى النفس أن تؤول إلى هذا المصير ، أو أن تتيح للابن أن يكون معه على موعد ! إنه يضع بين يديه كنوزا ويقدم له غذاء روحيا .

ولا يغيب عنك ما تتضمن من صور بلاغية ، استخدمت بقدر وبدقة ، وقد جاءت الألفاظ مختارةمناسبة مجال الحكمة الذى يندرج تحته هذا النص ، كما راعى الأديب أن تكون العبارة سلسلة ، تجمع بين الطول والقصر لتناسب تدفق عاطفة الأبوة ، وكثرة ما تمليه من وصايا ، وما ترغب فيه من آمال ، كما تناسب طول النفس والإلحاح على الفكرة وكثرة الخبرات التى تولد الحكم وخلاصة النظريات . انظر إلى طول العبارة : « والألم هو الينبوع الذى تنفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان فى الأرض » ، وانظر إلى قصرها فى قوله : « أحب أن يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ... إلخ . ويرحم المسكين رحمة الحميم » – لتجد أنها تناسب فى تلاحقها وقصرها كونها توجيهات متتالية ، وإن كانت فى غير صور الأمر المباشر ، وكونها رغبات وآمالا ، كأنها تصطرع داخل الكاتب طامحة فى التجسد السريع فى واقع الحياة ، وهنا يناسبه تركيز الجملة وقصرها ، وتلاحق الواحدة منها بعد الأخرى .

وقد استعان الشاعر ببعض الصور البديعية كالطباق ، كما توسل كثيرا بالإطناب الذى ربما جره إلى المبالغة ، كما عول على الترادف أيضا .

ولنا أخيرا أن نبلور صورة الابن التى يطمح المنفلوطى بنظراته الأبوية أن يكون عليها الأبناء:

١ – أن يكون رجلا معتمدا على النفس قوى الإرادة .

٢ – أن يعيش مشقات الحياة ليتمكن من التغلب عليها ، وليدرك قيمة النفوذ من مشكلاتها ، وليعرف مدى ما يقاسيه البشر من حوله .

٣ – أن يدرك قيمة المال الحقيقية ووظيفته فى الحياة ، حيث هو وسيلة لا غاية ، يعمل على إسعاد المرء فى غير إسراف ، أو إنفاق لا مبرر له من عقل أو دين .

٤ – أن قيمة المرء فى أن يقدس القيم ، ويحترم العلوم ، وكل ما يفرزه العقل من أدب وحكمة ، وإنجاز مبتكر ، وأن تلك القيمة تظل حاضرة له لدى الناس إذا ما ورث الأبناء حب العلم والأدب واحترام القيم والمثل .

ثالثا : التوجهات التربوية العامة :

كل أدب نتوجه به إلى الطفل ، نقصد من ورائه إحداث نوع من التناغم ، وإثارة الخيال ، وتحقيق المتعة والسعادة . وفى كل الأحوال فإن هذا الأدب ينطوى على توجهات

تربوية ، وأسباب قوية فى التنشئة السليمة ، وعوامل مساعدة لخدمة بناء الشخصية ، وتقوية جوانب حيوية فى إطار علاقة المتلقى بمن حوله وما يكتنف الوجود الاجتماعى من نشاط ومعطيات ... وتتمثل المعطيات التربوية كما يحس بها المنفلوطى فى النواحى التالية :

١ – إعداد الأبناء إعدادا قويا يتأسس على الثقة بالنفس والارتباط بالحياة من منطلق العمل والإنتاج ، وتحمل المسئوليات .

٢ – يحاول الكاتب أن يتلمس الطريق إلى بناء شخصية ابنه وذلك عن طريق دفعه إلى نهر الحياة المتجدد ليستفيد الخبرة والتجربة ، ودعم الشخصية المستقلة ، والقدرة على مواجهة المواقف ، وتبنى الإيجابيات .

٣ – إن النشأة القويمة المستقيمة التى تنبنى على العصامية ومواجهة الحياة بالعلم وبسلاح الاعتماد على النفس وممارسة العمل هى مما يكسب المجتمع بنية أساسية سليمة يصح بها المجتمع ، ويتأسيس على أسس صحيحة قوية .

٤ – الكاتب وهو يحمل رسالته إلى ابنه ، يتبنى لغة المفهوم التربوى الذى يراه مناسبا فى تربية هذا الابن ، كأنه يطالب الآباء بوقفة متأملة صادرة عن حس فنى أدبى تربوى يحاول بها اكتشاف الواقع والمتوقع ، ليجنب ابنه مهاوى الاحتكاك العشوائى بمعترك الحياة .. إذًا ينبغى على كل أب أن يقف هذه الوقفة حتى تتواصل الأجيال تدافع الخبرة والتجربة الممتحنتين بالواقع والمرشدتين بحب الآباء ، وصدق مشاعرهم تجاه الأبناء .

٥ – ويميز هذه الكتابات ، أنها صادرة عن أبوة مخلصة صادقة ، وإبداع أدبى أصيل . وقد ضمن هذان العنصران لتلك الكلمات أن تتسلل برفق قوى إلى العقول ، وأن تحمل رسالة الأدب والفن فى إطار تربوى أو خطاب تربوى فى أفق فنى وأدبى ، الشىء الذى ضمن لها الخلود والتأثير والفعاليات التربوية الإيجابية .

٦ – ومثل هذه الكتابات ، ذات الخطاب التربوى الموجه إلى الأطفال ، إنما تمتلك المقدرة على تصوير الحياة ، وتتمتع بقدرات إبداعية فائقة لتقديم لوحات زاهية حميمة مترعة بصدق المشاعر ، وتصوغ من الحياة تجارب وخبرات ؛ لتتحول إلى وعى عقلى وحس قلبى يملكه الطفل ، وهو يخوض غمرات الحياة .

الفصل السابع

أدب الطفل بين الماضى والواقع والمتوقع

أولا – أدب الطفل فى رؤية أدبية :

١ – نحو عدالة لجميع أطفالنا :

إن السرور والسعادة ، والفرح الغامر ، والبهجة الناضرة ، والجو المتألق والتعبيرات الخلاقة المثيرة لأنبل العواطف ، وأرق المشاعر ، وأدق الأحاسيس ، واللفتات الذكية ، تلك التى يمنحها الأدب الرفيع الذى يقدم للأطفال ، فيغذى أرواحهم ، ويثرى خيالهم ، ويخلق بهم فى أجواء من البهجة ، والانشراح والتفاؤل والحيوية الخالصة ، والدفء الذى يدغدغ الأجسام . كل هذا لا يقل أهمية ، ولا تأثيرا عن غذاء الجسم ، ولا عما نقدمه لأطفالنا من كوب لبن ، أو بيضة فى الصباح ، أو وجبة ساخنة ظهرا ، أو بسكويت مع شاى وحليب عصرا ، أو عشاء وردى مساء ، أو نوم هنىء طوال الليل ، حتى الصباح ليحظى بفطور من صنع « الأم » وبمواد تراعى فيها التغذية الصحيحة ، هذا إن كان أى طفل مصرى فى القاعدة العريضة يمكن أن يحصل على واحد على ألف مما ذكرت . وهنا سيتحول « أدب الطفل » وبما يمكن أن نقدمه لأطفالنا من فنون وموسيقى ، إلى قبض الريح . فما دمنا لا نستطيع أن نحدث عدالة توزيع بين أطفالنا .. حيث الملايين محرومة ، القلة تعيش فى رخاء مما يجلبه لهم الآباء من ترف ، فوق مستوى الطفل ، ليصبح بهـا الترف خطرا على أمن الوطن والأمة والتربية ، فحصّنوا المجتمع ضد هذا الخطر وذلك بإقامة عدالة ، تشمل الطعام والكساء ، وتشمل إلى جانبهما التعليم ، وفرص الحياة الهادئة الآمنة ، ليعيش جميع الأطفال سعداء ، فيسعدوا بما يقدم لهم من فن وأدب ويثمر فيهم النظام التعليمى والتربوى الذى يعتبر الفن والأدب من أهم وسائله ، كما يمكن بهذا العدل أن نفتح أمام الطفل طريقا واسعة إلى الله ، فيشب ، وقد عرف الطريق إلى الفضائل ؛ لأنه عرف الله فى العدل والخير والعطف ومن هنا سيسعد الطفل فى حياته ، ورغباته ، واحتياجاته ، وقدراته ، وتدرجه فى الحياة العامة ، انطلاقا من الوعاء الاجتماعى الأول ، وهو الأسرة – وانطلاقا من هذا كله ، فإننا مطالبون – أيضا – برؤية شاملة لنظم التعليم المعمول بها فى بلادنا .. حيث المناهج مختلفة ، والأسس

التى تقوم عليها هذه المناهج متباينة ، فهناك مدارس للغات ، ومدارس للتعليم الخاص ، ومدارس القلة .. وكل واحدة من تلك المدارس قد تختلف عن الأخرى قوة وضعفا من حيث الانتماء القومى والوطنى ، والتحصيل المعرفى الكمى أو الكيفى ، والمستقبل الواعد لكل طفل بالنسبة للطفل الآخر .. وهكذا نجد فى النهاية أنفسنا أمام شعب مختلف فى كل شىء ، فآراؤه مختلفة ، ومواقفه متباينة ، وحسه الوطنى والقومى والدينى متأثر ، ويتصف بالهلامية .. والشخصية نفسها مسلوبة الإرادة .

والأمل كبير فى أن يثمر الفن والأدب ، بأن نحقق العدل بين أطفالنا . وذلك ابتداء من البيت ، وانطلاقا من مدرسة واحدة لكل الطبقات والمستويات ، ومرورا بمجتمع لا يبخل على أطفاله ، بحقهم فى حياة أفضل وطفولة تستمد وجودها الاجتماعى من رعاية المجتمع لها ، وعيشة أسعد ، وتلمذة أهنأ ، وذلك بتقديم خدمات تشمل الصحة ، والطعام والكساء .. وخلال مراحل النمو حتى عتبات الشباب .

٢ – أدب الطفل ، الماضى والواقع :

ربما كان من أهم خصوصيات أدب الطفل فى الماضى والحاضر ، قيمه على المتعة الكثيرة ، والمعرفة القليلة ، واهتمامه بالجانب التربوى على حساب الجهد الفنى الجمالى .. وأوضح الظواهر فى هذا الوضع هى ظاهرة الحفظ والتلقى الكمى للأدب ، وهذا شىء مفيد للأطفال الذين يقبلون ، على حياة تمتلىء بالأنشطة اللغوية والاجتماعية ، لكنه يقلل من فرص عمل القدرات التحليلية والنقدية .. ومثل هذا اللون من النتائج طبيعى ، لأن الأدب وما يصاحبه من تذوق كمى سيوفر مع المستقبل فرصا أفضل للنقد والتحليل ، وهو أمر حيوى لبناء الإنسان . وإذا راجعنا أدب الطفل من لدن اعتباره نصا أدبيا ، ينطوى على الخصوصية أو الحكمة والإرشاد ، والإمتاع – كما هو حادث فى التراث العربى والدينى حتى فى معظم ما تطرحه الأقلام المتخصصة فى أدب الطفل حاليا ، وواقعيا – وجدنا أن هذا الكم من الأدب الذى يمكن اعتباره أدبا للطفل ، فى هذا الأدب الذى تطرحه القوى الإبداعية الآن قائم فى الأساس على الروح العربى والإسلامى .. وفى معظم المطروح الآن ، يقوم على التأثر ، والاحتذاء بالروح الغربية ، ويأخذ من مصبات الثقافات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية ، وقد يتم التأثير بما هو مطروح عالميا من قبل الأخطبوط الصهيونى الذى يقوم بزرع ثقافات تعمل على تدمير الثقافات الوطنية .. وتقويض البنى الاجتماعية .

هذا يجعلنا أمام أدب للطفل العربى يستمد جذوره من المجموعة التراثية فى ميدان الأدب والدين . وأخيرا يستمد هذا الأدب بناءه الفنى المعاصر من روافد تتغذى معظمها مما هو مطروح فى السوق العالمى ، تجاوزا للمحلية والبيئية .. مع أن الأصل البديهى ، هو التزام البيئة المحلية ، وربط « أدب الطفل العربى المصرى » بواقعنا كأساس لأى تطور نحو بناء أدب للطفل ، خالص من أى انحراف ثقافى غربى .. من أجل هذا كان التراث الأدبى لعالم الطفل تراثا مؤصلا من جانب ، وتغريبيا بفعل جوانب أخرى .. فأما التأصيل التراثى ، فقد تم على يد فريق من أدبائنا الكبار أصحاب الضمير القومى ، والدينى ، وفى مقدمتهم رعيل الطهطاوى والنديم ، ومصطفى كامل ، واشيخ محمد عبده ، وشوقى والهراوى ومحمد فريد أبو حديد ، وسعيد العريان ، ولكيلانى ، وسليمان العيسى ، وعبد التواب يوسف . وأما المزج بين التراث والتغريب فقد تم على يد مجموعة من المثقفين الشعراء والأدباء الذين أطلعتهم الأرض المصرية المتعطشة لمدد يأتيها من تاريخها ومن علاقاتها الحضارية والثقافية « الغرب —عربية » وهؤلاء منتشرون فى عالمنا العربى ، فى تونس وسوريا ، والجزائر والعراق ، ولبنان ، والسودان ، ثم أخيرا هناك من يحمل جنين الثقافة المتغربة ، وينشر بقصد أو دونه أعمالا تمجد الغربى ، والفردى ... واليهودى ، على حساب الشخصية القومية .. وهذا الأدب ينتشر فيما تنشره المدارس الأجنبية ، والمكتبات المشبوهة .. وهذا الواقع مما يتطلب وقفة أدبية تعيد لأدب الطفل كامل نزوعه القومى والوطنى والدينى والتعليمى ، المغمور بالتحليل النقدى . وهذا ما نتوقعه من المبدعين والدارسين المخلصين .

٣ – أدب الطفل ورؤية مستقبلية :

بادئ ذى بدء ، فإننا أمام ظواهر لافتة لنظر الباحث فى أدب الأطفال ، ينبغى بلورتها ، حتى يمكن البدء منها ، وهذه الظواهر تتمثل فيما يلى :

(أ) أدب الطفل مع التراث الأدبى ، والدينى ، كان أدبا إيجابيا فى اتجاه القيم والفضائل ، وقد وصل إلى الطفل بمعظم مضامينه التوجيهية والإرشادية ، وفى الكثير منه للامتاع والمؤانسة . لكن اللافت للنظر هو أنه أدب استماع وحافظة ، وتقل فيه دواعى التحليل ، وقدرات النقد والعمل على أن يكون الطفل مبدعا مبتكرا .. فهو فيه مقلد ومردد وحافظ .

(ب) التنكر – أحيانا – مع الآتى والوقع ، للثقافة الوطنية والكلف بالمظهر على حساب الجوهر ، وتسلل الثقافات الأجنبية تحت مظلة التعاون والاحتكاك الثقافيين ، والخوف من اتهامنا بالمحلية ، والعزلة والتقوقع ، خاصة أن الإنسان الغربى قد أخذ يكتسح العالم بثقافاته إثر سقوط المعسكر السوفييتى ، والانهيار الكامل لمخططات الأمة العربية فى أزمة الخليج ؛ لهذا أصبح كل شىء ممهدا ومفتوحا للقادم الغازى .

(جـ) ضعف العلاقة بين « أدب الطفل » والمجالات الأخرى ويتطلب ذلك تقوية العلاقة بينه وبين التعلم ، مما يتطلب تغييرا ثقافيا منشودا . فليس المهم ، هو كم الأدب المقدم للطفل ، أو كم الخدمات الفنية والأدبية وما يحدث عنه من تراكمات كمية .

لكن المهم هو طريقة تقديم أدب الطفل لطفل عربى مؤمن ومتدين .. وحيث يجب أن نبدأ من الطفل نفسه ، واهتماماته ، وحاجاته ، وعلاقاته التاريخية والاجتماعية والقومية والوطنية والإنسانية ، لنصعد به درجات إلى أن نصل به ومعه إلى المسئولية الملقاة على عاتق مواطن ، نجحنا فى تأديبه وتهذيبه وتربيته وتعليمه .

(د) أدب الطفل ، تسوده الفردية ، والهواية الشخصية ، ولم يحتل مكانته حتى الآن ، كأدب تشرف على إبداعه وطبعه ونشره مؤسسة ذات رسالة موصولة بالثقافة الوطنية وواضحة الانتماء لتراثنا ، ومجدنا القومى ، وطموحنا فى التقدم والإحساس بأهمية التحرر من ربقة الصهيونية ، والثقافة الغربية ، وأدب « السوبر مان » ، والمغامرات الفجة .

وهكذا ، وبأثر من هذه النماذج ، لا يمكن تقديم مضمون إيجابى فى طار النشيد أو الأغنية ... ولما كان « أدب الطفل » هو الكلام الذى يبدعه أصحابه ، ليناسب مراحل الأطفال وعقليتهم خلال تلك المراحل .. فإن الأناشيد والأغانى تناسب الأطفال فى كل المراحل ، عن طريق الاستماع – وهذا كثير – أو عن طريق القراءة ، أو الإنشاد الجماعى والأغنية الجماعية ... فأدب الأغنية والنشيد ، من التعبيرات الموسقة ذات الإيقاع فى جوهر الكلام ، ولهذا كان صالحا للتعامل مع الطفل فى أية مرحلة من مراحل نموه عن طريق السماع خلال الطفولة الباكرة جدا ، والمشاركة ، مع طفولة الحضانة ، ولإنشاء هذه المرحلة الأخيرة ، مرحلة الخيال البطولى ، وأن يبدع للبطولات الفردية ، وللإعجاب بالزعماء المصلحين ، والعباقرة الموهوبين ، وتعبيرهم باللغة وجمالياتها عن العواطف الصادقة والمشاعر النقية والتوجهات الصحيحة والصفات النبيلة ، والقضايا ؛ لتحقيق

روح المثابرة وحب الأوطان ، والعمل على إنهاض الأمة والانفعال الصادق فى اتجاه النموذج واثال المفقود وتنمية روح الجماعة وخدمة المجموع ، كما تعمل الأناشيد والأغانى على تغذية الفرد بشعلة من الحماس المتدفق ، وأن يظهر ذاته أولا بأول . هذا ومن التهيئة لمتاحة ، أن نعمل من مراحل الطفولة الباكرة ، على أن يكون هنا لك اهتمام بأناشيد مناسة ، يتعلمها الأطفال ، ويرددونها فى المناسبات الخاصة أو العامة ، كما يتعملون أغانى ، يتغنين بها فى مناسبات الأعياد والحصاد وأمثالها أو عند احتفال بلاده بأعيادها وهو خارج الوطن ؛ لأنها حينئذ – لغة التخاطب والتفاهم والإحساس بالانتماء للوطن فى الغربة . وعند الاغتراب النفسى قد يجد المواطن الذى نشأ على حب وطنه فى هذه الأناشيد والأغانى سلوى وعزاء ومشاركة ... وكثير منا لا يمتلك هذا الرصيد . وإذا طلب منا كممثلين لشعبنا المصرى ، والعربى أن نتغنى بأناشيدنا القومية أو الوطنية ، أو نردد أغنياتنا الشعبية الجماعية ، أصبنا بالذهول ، أو أحجمنا بسبب الخجل ، أو لأننا – وهذا هو الأكثر – لا نحفظ ، ولم نتعود . فمراحل الطفولة – إذن – هامة فى تدريبنا على الأناشيد والأغنيات حفظا وتلحينا ، وإلقاء ، وكسرا لأطواق الخجل التى تستبد بنا ، ونحن نواجه غيرنا حينما ننتمى إلى أمتنا ، وتنمى ذاتنا حينما يطلب منا استعادة أمجادنا القومية والوطنية وجماليات التعبير عن الوجدان وننمى القومى والوطنى وذلك بأنشودة نرددها أو أغنية نتغنى بها ..

ويمكن للأناشيد والأغنيات أن تلعب دورا رئيسا فى تكوين الوجدانيات التالية ، والتى بتنمية الإحساس الجمالى بها ، يصبح لها أبعد الأثر مثل :

(أ) الوطنيات :

وهى ترسخ حب الوطن فى النفوس ، ويتأكد هذا الحب عن طريق الوجدانيات كثيرا . وللبراوى الشاعر الغنائى دور كبير فى إبداع هذه الألوان التى يمكن أن يتغنى بها الأطفال حبا لنوطن ، وتضحية فى سبيله ، واعتزازا بكل أمجاده ومقدساته ، وذلك مثل قوله :

يا ابن مصر ، يا عريق النسب
قد دعـا داعى العلا فاستجب
واطو فى الجـد بساط اللعب
واطلب العـــزة تحت العلـــم

وهو من الشعراء ، الذين أبدعوا ، فى سبيل تنمية الحس المصرى وربط أبناء الوطن بوطنهم وذلك حينما قال :

لنا مجـد على الدنيا تعـالى　　بناه الله يــوم بنى الجبالا
رسمنــاه برايتنـــا هـلالا　　وننشرها على الدنيا سلاما

ثم يختم نشيده بالتأكيد على عزة الوطن ، باعتزاز أهله ، وذلك حينما ختم نشيده بقوله :

فيا بن النيل هـز لـواء مصرا　　وهيئ فى النجوم لـه مقرا
وأطلـع بالهلال عليه فجـرا　　وعش فى ظله العالى إماما

ويؤكد شاعرنا الهراوى » على الوطنية ، حينما يشيع الحب والرفق بين أفراد الأسرة لمسكنهم ، ودارهم التى يأوون إليها ، ليستدفئوا جميعا بالحياة فيها ، ولينعموا بإلفهم ، وتوادهم وتراحمهم ، تهيئة لحب الوطن وتعميقه فى نفوسهم – وذلك مثل قوله :

تحيـــــة يــا دارى　　تحيــــة الاكبــــار
آوى إليـــــك كمـــا　　يطيب لى قـــرارى
مـــا بين أمـــى وأبـــى　　وإخـــوتى الأبـــرار
فيــا مهـــاد راحتى　　من عمـــل النهـــار
وملتقـــى أحبتـــــى　　وصحبتى الأخيـــــار
ومكتـبى وملعـــبى　　بـــين أخ وجــــــار
يــا وطنــى مصغـــرا　　ووطنـى فخــــارى
فى القلب أنت صورة　　دائمـــــة التذكـــار

أو على لسان فتاة عصرية :

أنـــا فتـــاة إنمـــا　　لى همـــة الرجـــال
أروح للخبـــــــاز　　والقصـــاب والبقـــال
أشترى بنفسى حـاجتى　　منجـــزة أعمـــــالى
أحملهـــا علـى يـدى　　فـى الطـــرق لا أبالى
ولا أرى ضــــرورة　　تدعـــو إلى حَمّـــال
فـى ذلك انتقـــــاء　　حاجاتى وحفظ مـــالى
مـــاذا يشـين سمعتـى　　إنْ سِرت فى كمال ؟

(ب) الأناشيد والأغاني في إطار أنشطة الحياة :

والهراوى الشاعر ، قد خاض بشعر الطفولة ، وأناشيدها وأغانيها معترك الحياة ، وبلّ ريشته الغنائية ، في مضمارها ومباهجها ، وأنشطتها المختلفة ، رغبة في تربية الأطفال وتنمية أذواقهم ، وحواسهم ، وقدراتهم ، تأكيدا على معنى الحياة في نفوسهم .. وهكذا يدأب هذا الشاعر الطموح ، من خلال ما يكتب من أناشيد وأغاني في بناء الأطفال بناء سليما يتفق ومطالب الحياة ، التي تتجمل بكل ما يقدم في نهرها المتجدد من خبرة أو معرفة أو قدرة ، أو مشاركة فعالة ، يقوم بها الآن الأطفال ، وتصبح دستورا للعمل في مستقبل الوطن . وهو يبدأ بالتعلم ، أي أن الطفل يبدأ معارفه عن الحياة بالتعلم ، ويقدم نموذجا فنيا لمنهج تعلم « حروف الهجاء » وذلك بمثل قوله :

أ . ب

ألــف يـــــاء يعنــــى : أب
هـــو فى قلبى مـــلء القـلب

أ . م

ألــف ميـــم يعنـــى : أم
أدعـــــو أمى مـــلء : الفـم

ع . م

عـين ميـــم يعنــى : عــمّ
لِيَـــدَىْ عمى فضـــلٌ جــمّ

ومن ذلك أيضا :

دال ألـــــف راء : دار
غـاب القـــط لعـب الفـــار
حـــاء سيـ ـن نون : حسن
سلم الوطـــن يحيـا الوطـــن

إنه يربط الحرف الهجائى بكلمة ، تتعمق أحاسيس الأطفال ، وهنا يقود منهجه على التعلم بأسلوب الميل القلبى عند الطفل ، وهو أسلوب يرمى إلى ربط الكلمة بحروفها ، وبما يختزنه الطفل عنها من معان جميلة تثبيتا لشكلها ومدلولها ، وبدءا بكلمات تكون فى مجموعها مخزونا من المعجم الجليل والجميل ، وأساسا لبناء أخلاق تنبنى عليه ثقافة الطفل وخبراته .

١ – ويهتم الشاعر ، من خلال أناشيده ، بتكوين عادات وتقاليد تصل بالعلم والتعليم ، وتقوى روح الانتماء والتوجهات الإيجابية ؛ وذلك عن طريق ربط التلميذ بمدرسته ودعم علاقته الروحية والعاطفية بها ، حتى يستطيع ، أن يتعلم فى ظل نظام مدرسى أقرب إلى دور العبادات منه إلى مجرد مكان لتلقى المعرفة . والمدرسة حينئذ هى بمثابة البيت الذى يضم أفراد الأسرة ، لا مجرد مجموعة من التلاميذ مع أساتذتهم كما يربط بين تحصيل المعرفة ، وتعلم الحقائق ، واحترام المعلم وتبجيله ، وتوقيره ؛ لأنه دون هذا لن يثمر العلم ، ولن تؤتى المعرفة ثمارها .. وهو تأكيد على قول شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وهكذا راح الشاعر يحبب كل شىء فى المدرسة إلى نفوس التلاميذ :

نحن فتية نطلب الأدبْ
كل واحد يحمل الكتب
نبتغى بها أرفعَ الرتبْ
مصر أمنا حقها وجبْ
تُرْبُ أرضها يُنْبِتُ العجبْ
ماء نيلها سائل الذهبْ
بين أمنا والعُلاَ نسبْ

ثم يربط بوعى عصرى ، وبإدراك ذكى – العلاقة بين النظر والتطبيق وذلك عندما يربط بين التعلم للمعرفة ، والتعلم لامتهان مهنة من مهن الحياة .. حيث لا تمايز ، ولا فرق بين المعارف والمهن فكلها فى خدمة الحياة ، ورفع شأنها .. وذلك ، بخلق توجهات مهنية حرفية من ثم كان أكثر تقدما وذا رؤية تربوية بصيرة ، حينما ربط بين التلمذة صباحا والمهنة مساء بقوله :

أنـا فى الصبح تلميذ وبعـد الظهـر نجّارُ
فلى قلـم وقرطـاس وإزميـــل ومنشارُ
وعلمى إن يكن شرفا فما فى صنعتى عارُ
فللعلمـــاء مرتبـة وللصّنّـــاع مقدارُ

٢ – وقد اهتم الشاعر النشيدى بمنجزات العصر ، فدعا إلى تعلم الآلة الكاتبة حيث تمثل آلية من آليات الحضارة ، ووسيلة من وسائل الإنجاز السريع والدقيق لخدمة شئون الحياة ، ومن ثم كان اهتمامه بأن يتعلم الأطفال مهنا ، وأن يستعملوا آليات العصر ، وإنجازه فى مجال السيارات ، والطائرات وكل منجزات العصر .

ومن قوله عن الآلة الكاتبة :

وآلـــة كاتبـة من اختراع العَصْرِ
لهـا شريط طـابع يغنـى غَنَـاء الحِبْرِ
يُخرج من أوراقها من نسخـة لعشرِ
أحرفهـا سـلكية تنبض عـند النقـرِ
وكل حـرف رسُمه مبيّـــين فـى زِرِّ
يـرن فيهـا جـرس عند انتهـاء السطر

ثم تتوالى النماذج التى تدعو إلى أسلوب للتعليم يتميز بالسهولة والإدراك الصحيح لقيمة العلم مثل :

ألف يـــاء تـــاء ثـاء
هيـا نقـرأ يا هيفـاء
ألـــف أبتـــى
يـــاء بلـــدى
بيدى بيـدى أبنى بلدى

* * *

جـاء الـدال يـا أطفـــال
قـال : سلاما ردت مـامـا
ذال راء زاى ســـين

سوف نكون المنتصرين

ذال ذهبـــوا   راء رسبـــوا

زاى زارا   عمى الـــدارا

حيينــــــاه   صافحنــــاه

قلنا : أهـلا يـا عمـــاه

من كل هذه النماذج للشعراء الغنائيين ، الذين يكتبون للطفل ولعالمه ، أو هؤلاء الذين يحاولون على درب الإبداع لعالم الطفل ، نقف على حقيقة واحدة ، وهى قضية الصلة بين الأدب بخصوصياته ، وضرورة اللقاء بينه وبين عالم الطفل خلال رؤية ية تستقطب كل ماله صلة بعالم الطفل ، لتضيئه وتنيره ، وتبعث فيه الحيوية ، فصلة الأدب بالطفل ، هى الرابطة القوية التى تربط هذا الطفل بالحياة ، وتمده بالمواد الثقافية والتعليمية والحضارية ، وتعمق فيه أسس الوجود ، وتدفعه نحو التقدم ، وتجعلنا – وهذا شىء مهم جدًا – نحصل على قيادات مستقبلية نظيفة ، وواعدة بالحرية والعدل والتقدم ، ومؤسسة تكون جزءا من صرحنا التعليمى والتربوى ، وتكون حاملة للغة الخطاب ، الذى نتحدث به ، ونحن نخطط لمناهجنا التعليمية ذات الانتماء القومى ، والدينى ، والوطنى ، والمعرفى الموضوعى ، والتى تستهدف خلق مواطن مصرى عربى مؤمن منحاز للتقدم ، وآخذ بأسباب العلم والحياة وفضائلها ، وقيم تراثه ، وجوانبه الإيجابية المشرقة ، ومخلص فى أداء وظيفته فى إطار حياة مصرية عربية متدينة . من هنا نستطيع أن نلم بالخطوط العامة ، التى ينبغى أن يكون عليها أدب الطفل مع المستقبل الواعد .. ويمكن بلورة هذه الخطوط العامة فى النواحى التالية :

(أ) أدب الطفل ، هو فى الأساس مادة خصبة لبناء قوى الإبداع والابتكار والموهبة لدى الطفل ، كما أنه يفجر الطاقات الكامنة لدى الأطفال تمهيدا لإعادة صيغة القدرة النقدية والتحليلية التى ينبغى أن يبدأ الطفل فى التسلح بها ، وهو يواجه الحياة . ويتم هذا عن طريق القصص ، والحكايات ، وسير العظماء ، والتأمل الواعى الذى تتضمنه الأشعار والغنائيات ، وبحيث يكون الأدب فى معظمه أدبا تحليليا إبداعيا ابتكاريا يهتم بالمواقف الوجدانية والعاطفية التى تحتاج إلى تفكير إنسانى ، وحل يرضى النزوع الإنسانى ، وينمى القدرة العاطفية المصاحبة للتفكير العقلانى الموضوعى ، بحيث لا نفصل بين الحل الذى يحتمه العقل ، والحلول التى تدعم هذا الحل ، من جهة العاطفة والوجدان والانتماء الإنسانى ، النازع إلى الخير ، واعتبار الإنسان هو المصدر للخير والتقدم .

(ب) اعتبار « أدب الطفل » أهم وسيلة من وسائل التعليم .. بل هو الركيزة الأولى التى ترتكز عليها مناهجه فى المدرسة الابتدائية بحيث تصبح عناصره متلائمة مع مرحلة الانطلاق فى خططنا التربوية ، ومناهجنا التعليمية .. حتى يمكن أن يكون التعليم بحقائقه مدركات يتم إدراكها عقليا وتذوقيا ، وذلك عن طريقة الحس الوجدانى الداخلى .. وبحيث لا تتم أية عملية تعليمية إلا فى إطار من التذوق القابض عليها فى ظل سيطرة العقل ، وهضمه لها ، ليصبح التعليم لدى الطفل ، مجموعة من المفاهيم والحقائق المستساغة والمتذوقة ، المشمولة برعاية الإحساس ، وتنمية الوجدان لها .

(جـ) اعتبار أدب الأطفال وعاء للثقافة الوطنية والقومية ومنطلقا لخلق الشخصية المصرية والعربية الجادة ، والتى تسعى فى خدمة الوطن والأمة ، ومعبرا عن تجربة الإنسان المصرى والعربى ، ومتخذا بطولاته من الواقع ، الذى ينحاز دائما للشخصية والحياة والتاريخ بكل العناصر الإيجابية المختزنة فى الضمير المصرى والعربى والبيئى ، وذلك رفضا لشخصيات « جيمس بوند » حتى لا يمتهن « أدب الطفل » عندنا ، ويكون فى خدمة الثقافات المشوهة .

(د) لانتقال بأدب الطفل ، من عناصره الخالية المثالية التى تفرض الحلول من الخارج ، وتستقدم من عالم الخوارق أبطالا يصنعون المعجزات ويدهشون بسبب مغامراتهم لأطفال .. فيظل الطفل فى حالة ترقب لينكشف المجهول عن مارد أو فارس ممشوق الحسام ، أو جبار يعبر البحار ، ليقدم هؤلاء الحلول ، ويقضوا على كل شىء تمى لمح البصر .. وذلك بالتركيز على الفعل الإنسانى القادر فى حدود الإمكانات، والذكى فى إطار القدرات البشرية المتاحة : وتصوير الحياة على أنها صراع ، يتطلب توظيف التفكير البشرى ، والإرادة والتصميم لكن دون رعونة ، أو اندفاع .

(هـ) أدب الطفل ، يحمل رسالة هامة ، قوامها تدريب الحواس على مدركاتها ، وتبادل الوظائف بين تلك الحواس . وتنشيطها من خلال حاستى الاستماع والرؤية .

ومن ثم ينبغى التركيز على أدب الاستماع ، والرؤية البصرية وأدب القول ، وذلك بالتبادل بينها وبين أدب المعقولات والمدركات الشمية والتذوقية ، واللمسية .. وقد يتعاون المسرح بفنونه وأدواته ، مع هذا ، مع الفنون القصصية والشعر والموسيقا والغناء .. إلى آخر هذه الأنواع التى تغذى الحواس والوجدانات والمعقولات ، بعناصرها الإيجابية

ومقوماتها الإداركية ، وحتى تنمو القدرة الحسية فى اتجاه أداء وظائفها أداء سليما صحيحا ، ينعكس أثره على تربية الطفل ، وإعداده إعدادا أفضل للحياة العلحة ..

(و) تصبح الدعوة إلى أدب الطفل ، الذى يتلاءم ومتغيرات المستقبل ، بمفهومه الواسع العريض ، كأدب يتميز بعناصره الخلاقة ، الدافعة للإبداع والابتكار ، وفى الوقت نفسه ، يسهم فى بناء الطفل ، الذى هو أهم بنية اجتماعية ، وفى بناء الحياة المصرية والعربية ، والتى يعتبر الطفل أهم ركائزها ، وأدب ناهض ، ينهض بالمجتمع وبعناصره الحضارية ، ابتداء بالطفل الذى هو العنصر الأساسى فى بناء مجتمع متحضر ، وصاحب تقاليد وعادات كريمة وراسخة .. ولهذا يتحتم أساسا أن يعاد النظر فى تشكيل مؤسسات الطفل المصرى العربى ، بحيث تساير القادم من الحياة ، وتخدم قضية ربط « أدب الطفل » بحقوق الطفل فى التعليم والعدالة كما تربط الطفل بالكيان السياسى الاجتماعى والاقتصادى ، وذلك عن طريق أصحاب الرسالة الحقيقية – لا الموظفين – والأدباء والفنانين والمثقفين أصحاب الرؤية الفنية الإنسانية والذين هم – أصلا – القادرون على حمل تبعات هذه الرسالة ، التى إن أصلحناها ، وأصلحنا الأدب الذى يحمل ستها ، ضمنا مجتمعا قادرا على فرز قياداته الخالية من عيوب الحكم المستبد .

* * *

ثانيا – أدب الطفل بين الحاجة والفن

قد يظن ظان أن الطفل فى جميع مراحل نموه الطفولى هو ذلك الكائن البسيط السهل المسطح الأعماق ، والقريب الغور ، والهش فى تجاربه وخبرته ، ومجموع ما حصل من معارف وثقافات .. لكن التعامل مع هذا الطفل فى سياق اجتماعى وأدبى ومعرفى سيؤكد على أن جوهر الحياة قد تشكل وتوحد وصب فى الكيان الطفولى .. من ثم يصبح التعامل مع عالم الطفولة من خلال الحياة بعامة ، والعالم الأدبى بخاصة ، مغامرة واكتشافا ، وفى كثير من الأحايين ضربا من الحدس والتخمين ، وقبض الريح . وقد نخطئ معهم كثيرا ، حينما نتصور أنه بإمكاننا أن نفرض عليهم كل ما نريد .. بل علينا أن نتعامل معهم بذكاء وبمنهج تربوى يرفض أن نلقنهم المدارك والمعارف والمهارات والقيم عن طريق الأوامر أو المحرمات أو الممنوعات ، بل عن طريق القدوة الحسنة ، وألوان الأدب ، وأشكاله المختلفة التى تحمل خصوصية

التأثير والتوجيه غير المباشرين .. فالطفل أكثر تعقيدا مما نتصور ، وهو يمتلك حساسية مفرطة وعليك أن تتنبه لكل ذلك ، لأنك إن حاولت يوما أن تحاوره ، وتجلس إليه وتخالطه فى مشاعره ، وإحساساته ، وتعبيراته وأسلوبه ولغته الفواحة يعطر طفولى جميل فستتعرف على شخصية تحتاج منك إلى إبحار خاص ، لتبحر فى عالمها ، وأعماقها الغامضة ، وتموجاتها الداخلية ، وزخمها العاطفى والخيالى الذاهب فى كل الدنيا .. فالطفل مثل الجدول الهادئ الذى يجرى فى رقة وعذوبة ، ويتدفق سلاسة وعفوية لكنه يخفى عالما مترعا بالأسرار والأعماق ، وانطلاقا من هذا كله ، تستطيع أن تسأل نفسك : كيف يتخيل هذا الكائن ؟ كيف يفكر ؟ كيف ينظر لمن حوله ؟ وما حوله ؟ كيف يحس وكيف يتذوق ويطرب ويعبر ؟ وكيف يحتفظ هذا الكائن – بالرغم من كل الظروف السيئة الصعبة ، والإحباط الواقع عليه وعلى من يحيطون به – بالأمل متمكنا فى نفسه وبالحلم مشعا بداخله وبالتوجه نحو المستقبل قائما بذاته . فالطفولة رمز للبراءة والطهارة والنقاء والأحلام والآمال ، وشوق دائم ونزوع حالم بالمستقبل ، وبكل ما يحقق الازدهار ، ويشى بالسعادة والسرور . ولهذا كله كان على المتعامل إبدعا وكتابة للأطفال أن يكون هاويا وموهوبا وصاحب ملكة أدبية ، يتعامل بها مع عالم الطفل . وهؤلاء الأطفال يمثلون الإنسانية أصدق تمثيل ، وهم يرقصون فى مرح وحبور على الدرجات الأولى من سلم الحياة الإنسانية ، وبداية الصعود على مدرجها الاجتماعى والثقافى والحضارى والسياسى .. وعلى هذا كانت صورة الطفولة فى أدب الطفل هى صورة الإنسانية فى مناشطها المختلفة والمتنوعة ، « وعالم الطفل » مبدأ راسخ فى أدب الطفولة بحيث يصبح هذا الأدب له طابع فنى ، وفكرى يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة الطفولة وثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل ، كما يصبح الأدب – أيضا – ذا رؤية نفسية ومرحلية لتطور الطفل جسمانيًا ، وعقليًا ، ونموًا تاريخيًا ، وبذلك نستطيع أن نشكل من مجموع « أدب الطفل » امتدادًا فنيًا لبيان مراحل النمو ، وطبيعة المرحلة التى يمكن أن يكون عليها الطفل ، وتتفق ومقوماته . وبهذا يمكن أن نؤرخ بأدب الطفل لمراحل نمو الطفل من ناحية ، وأن نؤكد على الأدب بتقاليده الفنية ، التى تثرى كل عمل يقدم للطفل ، بما يجعله غير منفصل عن الطفولة من ناحية أخرى .

فعملية إبداع للطفل هى كشف صيغة للطفولة تتسق وتتوازن لتمنحنا رؤية علمية نحو عالم الطفل ؛ ولهذا يكون الإبداع هضما وتمثلا لكل ما يحفل به هذا العالم الطفولى

من توجهات وخصوصيات ، وما يتفق مع المتغيرات التى تفرزها مراحل النمو التى هى قبض المبـدع فى كل مـا يبدع ، ويمكن النظر إلى أدب الطفل من مستويات مختلفة ، تتضح فيما يلى :

أولا : مستوى تثقيفى ، حيث التراث الأدبى القديم والحديث يمد القائمين على تعليم الأطفال ، وتربيتهم ، بحصيلة وافرة من الخبرات الأدبية ، والتجارب الإنسانية ، الأمر الذى يساعد على رفع مستوى الأداء التربوى والتعليمى .

ثانيا : مستوى إبداعى ، وهو إبداع يقوم به الكبار الموهوبون ، يتقـصون به إلى الأطفال ، وتتحقق فيه شروط الطفولة وتوجهاتها واحتياجاتها الإدراكية .

ثالثا : مستوى إبداعى يقوم به الأطفال أنفسهم ، وهو إبداعى يعمل على تنميته لدى الأطفال والآباء والأمهات والجدات والمعلمين والمربين ، وذلك بأثر من الجماليات التى تثيرها الأعمال الأدبية ، بأدائها وإيقاعاتها وأفكارها ، وبذلك نتوجه بالذوق نحو الملكة الإبداعية .

رابعا : وفى كل المستويات ، تصبح اللغة اللفظية بجمـها وأساليبها ومفرداتها المجنحة ، وصورها الفنية المعبرة اللبنة الأساسية فى البناء الأدبى والفنى والجمالى وفى إطار « أدب الأطفال » يمكن أن تتبلور لغة أدبية تعرف بلغة الأساليب والتعبيرات التربوية ويمكن تعرفها من خلال الخصائص التالية :

١ – تعتمد هذه اللغة على ما تفرزه الألسنية التربوية والنفسية والاجتماعية من دلالات وإشارات وقيم فنية وجمالية ذات صلة بعالم الطفل .

٢ – ينبغى أن يفهم أصلا أن مراحل نمو الطفل ليست مراحل منقسمة انقساما خاضعا لتحديد صارم . بل كل مرحلة تتميز باستمرارية التطور فيها . لكى بما يجعل كل مرحلة نمو تتسم بسمات لغوية تكشيف عن طبيعة تلك المراحل ، وتسوغ مثل هذا التقسيم ، وأبرز ما تعرف به المرحلة الأولى من مراحل النمو فى مجال لغة الإبداع ، أنها لغة الدلالة المعجمية الحقيقية ، وتقل بها لغة المجاز ، كما أنها مرحلة استقبال ما يفرزه المجتمع المحيط من كلمات وتعبيرات ، يستطيع الطفل بها أن يجسد معارفه ، وأنماط حياته من خلال تلك اللغة ، وهى فى الوقت نفسه ، هى لغة الاقتراب من عالم الجمالى ، وفى المراحل المتأخرة من مراحل نمو الأطفال تكون لغة الحوار ، والاحتكاك العقلى

والثقافى بينه وبين البيئة المعيشية ، والحياة المحيطة ، والمجتمع المتنامى ، أساسًا للغة الإبداع الأدبى عند تأسيس أعمال أدبية ذات أبنية درامية خاصة .

٣ – أن تساعد الأطفال كى يستثمروها فى مناسباتهم وأعيادهم ، وتجمعاتهم ، وإحياء المواسم التى يحبونها مثل أعياد الطفولة ، أو شم النسيم « أعياد الربيع » .

٤ – أن تكون سهلة فى لغتها ، جميلة فى أسلوبها سلسة فى جملها ، عذبة فى موسيقاها ،خفيفة فى إيقاعاتها ، جميلة فى أدائها ... وأن تتضمن أفكارًا ومعانى محببة إلى الطفل

٥ – ويحسن أن تكون هذه الأشعار ، وتلك الأناشيد فى خدمة التجمعات المحببة للأطفال مثل تجمع الفلاحين وهم يجنون ثمار ومحصول حقولهم ، وتجمع الصيادين ، والعمال والبحارة ، والمحاربين ، والتجار وأصحاب الحرف التى ينبغى أن تكون لهم أناشيدهم ، ومواويلهم ، وأشعارهم ، ليستطيع الأطفال مشاركتهم وجدانيا عن طريق هذه الأناشيد ، وحتى يستطيعوا أن يمزجوا بينها فى مسرحياتهم وتمثيلياتهم .

٦ – أن تعمل هذه الأشعار والأناشيد على إثارة العواطف ، وما يتصل بالنواحى القومية والوطنية والدينية والإنسانية حتى تستطيع مخاطبة وجدان الأطفال ، وتوحيد ما بينهم ، وتقوية صلتهم بالعالم المحيط بهم وأن تكون قادرة على حمل رسالة عظيمة ، يحس بها الأطفال ، ليستشعروها ، وهم مستغرقون فى التغنى بكلمات الشعر ، أو النشيد ، معمقة فيهم روح التقدم والانتصار .

٧ – أن تكون تلك الأناشيد والأشعار متجاوبة مع الأحداث والمناسبات التى تحقق للطفل ارتباطا وثيقا بقيمه ، ودينه ، وأرضه ، ومن ثم ينبغى أن تختار له أجمل الأناشيد .

٨ – أن تفيض صور الشعر بالعذوبة ، والرقة والوداعة فى المواقف المناسبة ، وأن تتدفق الكلمات ، وتقوى وتعلو الموسيقا مثيرة وحاثة ، ودافعة وصاعدة ، لتحقيق الحماس أو قوة الارتباط ، وتنمية الانتماء .

فالفن القولى الذى يقدم للأطفال بمستوياته الشعرية والأدبية هو فى الحقيقة تعبير إنسانى عن نزعة جمالية ، وتوجه نحو السلام لأن السلام هو واحة الأطفال ، وأنشودتهم ومن يتأمل تاريخ الإنسان ، سيجد أن السلام رفيق الحياة والسعادة ، والانطلاق فى حياة الأطفال ، وهو رمز الثقة فى عودة الأب ، وبسمة الأم ، والتفاف الأسرة حول طعامهم فى حبور وانشراح وتفاؤل ، وحنو وشوق نحو الغد .. فالسلام حتمية ، وضرورة حيوية ،

وامتياز بشرى للأطفال بخاصة .. من هنا كان الشاعر حريصا على أن يقيم عالمه الشعرى خلال قصيدته على دعائم حياة هادئة ترفرف بأجنحة السلام ، وكان شعره ، صدى لنزعة السلام التى تتملك الشعراء وهم يغنون للأطفال .. حيث السلام هو قضية الأطفال الأولى ؛ لأنه يمتعهم بالأبوة والأمومة ويجلب لهم الخير المتمثل فى الوطن الحر ، وكوب اللبن الساخن و « البسكويت » و « الشيكولاته » . كما أن السلام البشرى والسلام مع الطبيعة والكون ، والسلام الذى هو حدائق أحلام الطفولة ، هو منهج للعودة إلى صفاء الطبيعة البشرية ، ورد الاعتبار إلى ليالى وأمسيات الأسرة حول الدفء العائلى ، وفى مواجهة الحياة التى امتلأت بالصراعات ، وأطفأ وهجها الجفاف القلبى والعقلى معا والتقنيات التى حولت العالم إلى صراعات وحروب مدمرة ، فالقصيدة دعوة إلى مساندة الأطفال فى دعوتهم فى اتجاه مجتمع يخلو من الحروب ، ويحفظ عليهم أبوتهم ، وحياة البسمة والدفء والحنان حتى لا يخترق سقف الأمان الذى يظل مواهبهم وطاقاتهم وقدراتهم وإبداعاتهم .. وطبيعى جدا مع هذا العالم المظلل بالسلام أن تبرز ظواهر الإبداع والابتكار ، والانتماء والتفوق والتراحم والتساند والتواد بين أفراد المجتمع وطبقاته ، فيعم السلام الاجتماعى الطالع من واقع السلام الذى نصنعه لأطفالنا ، الذى يقود واقعهم على مزيج من السلام والجمال والأمان ..

فالطفولة موظفة هنا لإبراز الرؤية الفنية ، تجاه الواقع المرير الذى تعيشه أمتنا فى الشتات الفلسطينى ، والاستلاب الذى فرضته الصهيونية على الوجود العربى .. والأمة التى تفقد أطفالها ، وتتوهم « بالحمل الكاذب » أنها قادرة على الإنجاب ، هى أمة قد فقدت التعامل مع المستقبل .. حيث الوجود تنفيه عصابة الحكام المرتزقة التى تتاجر فى كل شىء حتى فى أحلامنا التى هى فى الواقع أطفالنا الذين فقدنا فيهم حتى مجرد أن نلوذ بهم ، وأن ندفن وجودنا فى ولادة جديدة ، لهذا كان الشاعر متشائما . فالوجود العربى ليس له نسق ، ولا طفولة ، وهذا معناه الانهيار .. من ثم كانت الدعوة إلى شاعر يعيد الأمل إلينا ، فى مستقبل أفضل وذلك حتما يحق لنا أن نعيش حلمنا الوطنى والقومى والإنسانى ، وذلك خلال ولادة متجددة تحمل إلينا طفلنا الغائب العائد إلى أرض الوطن ، والأمة .

الفصل الثامن

أدب الطفل ومقومات فن تدريسه

أولا : عناصر تربية الذوق لدى الطفل :

نحن نطمح إلى تقديم صورة ، عن عملية التذوق ، التى تتم وتتكون على مهل ، وأهم أطرافها : المتلقى والعمل الفنى المراد تذوقه والمعلم – إن وجد – وهى عملية عريضة شاملة ، وتنمو على مراحل متعاقبة ، وتلتقى فى هذه العملية ، ذائقة تنمو ، وصورة فنية وأدبية تتوالى ، وتتقافز طليقة إلى الوجدان ثم النهج التعليمى ، والبناء الفنى المراد استصحابه .. فمع اهتمامنا بالجانب المعرفى لدى الطفل ينبغى التأكيد على الترابط الموجود بين مختلف فروع المعرفة والفن ؛ لأن الكون كله شامل للحياة بكل جوانبها وإذا كانت الحياة مصدرا للمعرفة ، وموطنا للحقيقة ، وقوانينها فإن هذه المعرفة لا تتحق إلا إذا أدركنا الحيـة ، وتعمقناها ونقلنا إلى أطفالنا هذا الإحساس بالحياة وعلمناهم أن الحياة أجزاء ، كما هو ظاهر لنا .. ولكن هذه الأجزاء تشكل كلا واحدًا ، لا ينفصل عن المجتمع ، أى النشاط الإنسانى أو الوجود فى صورته الكلية .. وهكذا تكون الحياة فى أفقها الأوسع مصدرا لـلخبرة والمعرفة وتتأكد المعرفة بتوالى ممارساتنا مع الحياة بكل أبعادها .. وقد يكون فى اتصال الطفل بالعالم والكون والحياة ما يثرى خبراته وتجاربه ومعارفه ، وقد يتحصل على المعرفة الجمالية والخبرة الفنية فى إطار هذا الاتصال وقد لا يكون هذا الهدف الجمالى مقصودا لكنه فى الواقع واحد من أهداف اتصال الطفل بعالمه وكونه المحيط .. فاتصال الطفل بالطبيعة الحية ، أو الصامتة ، وتعمق الحياة حوله ، واستعراض الموجودات فى إطار حركة الوجود يمنحه المعرفة واستيعاب ما يحيط به .. أما عملية لتذوق ، وتكوّن الذائقة الفنية ، فقد يأتى ويتحقق عرضا ؛ لأنه – حينئذ – غير مقصود ، أو إذا كان مقصودا فإن الطبيعة لا تمنحه مباشرة وإنما خلال عملية تركيبية معقدة لا تقدر عليها سوى الكبار ، ممن يحسنون التذوق ، ولانت ذائقتهم واستعدت ومرنت على هذا اللون من التعامل مع مصادر الجمال المعنوى .. أما إذا نقلنا الطبيعة بريشة فنان مبدع إلى اللوحة وأخذنا مضامين الحياة إلى مرسم أو عبرنا عنها بالموسيقا والشعر ، والأدب . فإن الذى أمامنا حينئذ . هو الفن بأسمى معانيه ، واتصال الطفل

بالطبيعة على هذه الصورة هو اتصال بالفن الذى هو مصدر أصيل للجمال – فالفن موطن الجمال ومن ثم مصدر التذوق والخبرة الجمالية والتجارب الروحية الثرية بكل المعانى الإنسانية والعاطفية – والفنان القادر على نقل الطبيعة من الواقع المادى ، إلى الواقع الفنى ، هو فنان يقدم لنا جمال الطبيعة ، فى صورة من الألوان أو الكلمات ، أو الألحان وهذا النقل فى حد ذاته ، تخليص للجمال كمصدر لتنمية التذوق والإحساس من الكثافة التى تمتلئ بها الطبيعة على أرض الواقع ؛ ولذلك فإن دراسة « أدب الطفل » ينبغى أن تتخذ مظهرا للمتعة الوجدانية والكشف عما يتضمنه الأدب من متع عقلية ، وروحية بالدرجة الأولى كما تتضمن دراسة أدب الطفل اكتشافا ابتكاريا ونشاطا إبداعيا فالعملية الفنية الجمالية التذوقية ، تقوم على الطبيعة ، حينما تمتد إليها يدفنان مبدع ليصعد بها درجة فى مجال التعبير بالفن ، ثم عملية فنية تتوسل باللون أو الكلمة أو اللحن ثم المتلقى المتذوق الحساس ؛ لنجد أنفسنا مع ذائقة فنية تنمو وتتربى فى أحضان تمن الذى هو نقل وإبداع وابتكار فى أصوله الأولى .. حتى إن كل شىء شائه أو قبيح المنظر ، أو مبعثر الأجزاء . يصبح جميلا بالفن ومثيرا للتذوق ، والإحساس .. وهكذا ينبغى أن تبدأ عملية تدريسنا فن « أدب الطفل » من كونه فنا ذا قيمة جمالية ، وأنه بهذه الصورة مصدر للمعرفة والخبرة الجماليتين واتصال الطفل بالطبيعة والكون عن طريق الصورة الأدبية يحقق لنا علاقات بين المتلقى ، والمادة الأدبية الجمالية ، أساسها التنمية الذوقية ، والروحية وإنبات أحاسيس جيدة التوصيل لكل ما هو جميل . ويمكن إجمال هذا كله فى النقاط التالية :

١ – الطبيعة مصدر للمعرفة ، والمنفعة ، والمشاهدة ، ومجال للكشف ومعمل لاكتشاف قوانين الوجود وآليات فك طلاسمه وعلينا ونحن نقوم بتعريف الأطفال على الطبيعة ، أن نبدأ معهم بتوضيح قيمتها فى استمرار حياتنا وتنمية إيماننا بالله خالقها والتعرف على مواطن الجمال بها ، وأن ينمو لدى أطفالنا ، فى كل مرة تصور جديد عن الطبيعة ومواطن الجمال بها .

٢ – حينما يعاد تشكيل الطبيعة وصياغتها صياغة فنية ، بيد فنان مبدع ، أو أديب يمتلك الخبرة اللغوية الجمالية فإن الطبيعة أصبحت بهذا فنا يرتفع عن كونه منفعة أو معرفة مادية أو مصدرا للخبرة الحياتية ؛ وإنما هو فوق ذلك فن يتأسس على مقومات فنية ، وعناصر هى أجزاء متكاملة للعمل الفنى ، وحامل لروح الفن وكلما قترب الطفل من عالم الفن ، وأنواعه الأدبية ، وتوثقت صلته بأنواع الأدب ، كان أكثر تعمقا وإحساسا

وتذوقًا ، وستطاع أن يكتسب ذائقة أدبية جمالية ، تنمو بنمو علاقته بالإبدع الأدبى ، ويتحقق له بذلك ذوق لغوى وأسلوبى ، وروحى وبهذا تتغير النظرة إلى قيمة الفنون القولية باعتبار كونها قادرة على تقديم الجمال الفنى فى شكل من أشكال اللغة فى صورها المتعددة بدءا بالمفردة ، ومرورا بالأسلوب والصورة وانتهاء إلى جمالية الفكرة أو المعنى المتضمن كل تلك المراحل وهو دليل رقى الوجدان لدى الطفل ؛ لأنه نتاج الخيال الصادق الإيجابى الرشيد ، والقريحة الإبداعية الأصيلة ، وهذان شرطان أصيلان فى إبداع الأدب القادر على تنمية التذوق لدى المتلقى – الطفل – وإيصال رسالة الفن إليه وتربية حسه وذوقه . ومن هنا تبدأ عملية تذوقية ، أكثر غنى وامتلاء تتشكل بداخل طفلنا العزيز ، الذى يستجيب بذوقه لما يمكننا اكتشافه وإبداعه من خلال اللغة ونقف منه على مقولته : « إننى أحب هذه القصيدة وسأحاول أن أقدم شيئًا مثلها » لكن مع إحساس غامض بأن العمل الإبداعى أكبر منه ، وبأن هذا السر الإبداعى يبدو أول وهلة من مقدوره ، فإنه يبقى فى النهاية بعيدا عن قدراته الإبداعية الغضة وهنا سيدرك أن ملكاته قد أخذت فى الإفصاح عن نفسها وأنه فى طريقه إلى الإبداع الحقيقى المؤسس على تذوق مايتلقاه وبيان الفرق بين الحدس الذى يقود إلى الفن . ومن ثم إلى وجه من وجوه الحقيقة والعواطف المسطحة التى تطلق نزوات النفس تجاه ما هو جميل وإذا جعلنا العلاقة بين مبدع « أدب » ومتذوق هذا الأدب بخاصة والفنون بعامة علاقة إبداعية فإننا قد كشفنا عن السر لذى لابد أن يوقظ حسا ، ويوحى بمعنى ، ويشير برؤية جديدة ، وأن تقود تلك العلاقة العمل كله إلى مزيد من الإبداع ثم التذوق .

و إذا كان الفن ، موطنا للجمال ، والجمال مصيدة التذوق ، كانت العملية التعليمية فى إطار تنمية الذوق والحس الأدبى عملية تتسم بالتعقيد والتركيب ، الذى يسمح بملاحظة دقيقة لكل مراحلها ويصبح معلم أدب الطفل تجاه هذه المسئوليات متميزا ومختارا وفوق ذلك موهوبا وصاحب هواية ورسالة وقضية ثقافية .

٣ – كل ما يتصل بعملية الإبداع الأدبى ، أو الإبداع عند المتلقى – باعتبار المتلقى مبدعا – وذلك ممثلا فى عناصر اللغة ، والأساليب والأداء والتسمع الدقيق وكتابته ووضعه فى كتاب ، وتداوله ينبغى أن يمر بعملية إبداعية ؛ ليستطيع الطفل معايشة هذا الجو الذى يكسبه مرانا على الإبداع ويختزن فيه القدرة على التذوق فاللغة تصبح ذات خصوصية ، والأسلوب أكثر تصويرا وتعبيرا والأداء فيه متسع لكل الحروف والأصوات والحركات المختلفة والأذن أكثر رهافة والكتابة أكثر أناقة وصحة وجمالا . ويكون الأدب

الذى يقدم للأطفال أكثر نعومة ، وتوظيفا للفن التشكيلى وأكثر تداولا بين قرائه والمعلم الذى يقوم بتعليم الأدب وخلق اتجاهات ذوقية لدى الأطفال أكثر نضارة . وإنسانية ، وثقافة ، واهتماما بمظهره .

٤ – كلما اتسعت دائرة التعامل مع الأطفال ، وتنوعت صلاتهم بالأدب كان أقرب إلى تحقيق رسالة الذوق والإبداع ؛ ولهذا يمكن للقائمين على « أدب الطفل » أن ينوعوا فى قنواته ، بدءا بالسبورة ثم الكتاب . والإذاعة المدرسية ، والعامة المرئية ، والمسموعة والمسرح ، والسينما ، والبيت ، والشارع .. وفى كل الأحوال فإن الإلقاء والأداء المصحوب بالموسيقا قادر على بث حميًا التذوق الهادئ الرائع بين المتلقين من الأطفال ، وفى هذا نشر للأدب ، وخلق ذوق عام بين الصغار والكبار ، وتمكين معلم « أدب الطفل » من أن يؤدى دوره ، على خير قيام ، وأحسن أداء .

ثانيا : أسس تدريس « أدب الطفل » :

يرتبط تدريس « أدب الطفل » بعدة محاور بعضها راجع إلى الأدب نفسه ، والبعض راجع إلى الطفل ، والآخر متعلق بالمعلم ، وفى كل الأحوال ، فإن المناخ العام الاجتماعى والثقافى ، والحضارى مسئول أيضًا ؛ لأننا حينما نقدم مادة أدبية قرائية أو جمالية تذوقية ، أو حوارية ، أو حكائية ، فإن المتلقى وهو الطفل ينبغى أن يفرض شروطه ، نحن نختار هذه المادة . وهذه الشروط ، تفرض نفسها ، على المعلم ، والمناخ العام والإبداع ، وظروف الزمان والمكان ، ومراحل نمو الطفل ، وطفل القرية أو المدينة . الخ هذه النوعيات والخصوصيات ، وعموما ، فإن ما ينبغى تداركه نحو عالم الطفل الأدبى ، وأسس تدريس مادته الأدبية ، هو ملاحظة هذه المقومات التى تتمثل فيما يلى :

١ – ينبغى أن تتحقق المادة الأدبية المختارة ، إشباعًا لحاجات الطفل ، المخاطب بهذه المادة فى مرحلة خاصة من مراحل نموه .

٢ – وهذا الإشباع للحاجات لدى الطفل ، لاتقلل من تحقيق خبرة جمالية أو لغوية ، أو معنوية ، ويتأسس عليها الاختيار الأدبى .

٣ – وأن تتم دراسة الأدب فى إطار من إثارة المشاعر والعواطف والتأكيد على المتع الحسية ، والمعنوية ، وفى صور أدبية متكاملة ، وتستدعى إحساسا واحدًا ، وتنمو بأثر من وحدات كلية ، وتتجه بالطفل دوما ، نحو الأجمل ، والأعدل والأفضل .

٤ – ليس الهدف من تدريس الأدب بعامة ، وأدب الطفل بخاصة هو المنفعة – وإن كانت محققة – بل المتعة وإحداث نوع من التناغم ، والتوازن فى عواطف الطفل ، وخلق مسارات افضل لمشاعره ، وعواطفه حثا على أن يثير الخيال والابتكار والإبداع .

٥ – أن تُصوِّر المادة الأدبية المختارة همًّا طفوليا ، أوحسا مشتركا أو رغبة اجتماعية يعيشها عالم الطفل ، ويفضل أن تكون تلك المادة نشيدا أو أغنية أو مسرحية وفى كل مرة تتضمن خبرة وحلولا وإمتاعا .

٦ – ينبغى البدء مع المراحل الأولى بالقصص الحكائى : ثم التمثيلى ثم القصص الاجتماعى . فالأناشيد والأغانى ثم المسرحيات ويمكن بلورة هذا فى أولويات فنية وأدبية تبدأ على النحو التالى :

١ – الأغنيات الجماعية المصاحبة للموسيقا الخفيفة ، واجو المرح والأداء الحلو ، وسهولة التعبيرات والجمل ، وتقافز الكلمات ، وموسقتها .

٢ – القصص التمثيلى – لا المسرحى – والذى يدور حول حيواناتهم الأليفة أو زهورهم المفضلة أو هواياتهم الجميلة المحببة .

٣ – الشعر الخفيف بمعانيه الجميلة من التراث ، أو الإبداع المعاصر ثم يأخذ الشكل بوظيفته الجمالية والإيقاعية واللغوية ، ثم المضمون بقيمه الروحية والعاطفية ، والفكرية يتطوران من البساطة إلى القصيدة الشاملة والناضجة شكلا ومضمونا ، وإيقاعا وأسلوبا .

٤ – المسرحيات التاريخية والدرامية والرمزية الصافية والواضحة وضوح الجمع بين الرمز وحسن توظيفه وتحريكه .

٥ – ينبغى الإيمان ، بأن أقصر الطرق إلى الأدب ، والفنون هو الشعر والمسرح .. فعلى معلم أدب الطفل » الاهتمام بدراسة هذين الجنسين الأدبيين حتى يمكن للطفل أن يستوعب فى ظلهما وبأثر منهما فنونًا أخرى وأن يكون هذا مدخله إلى فنون تشكيلية وملائمة .. والمعلم ، حينئذ مطالب بأن يتعامل مع « أدب الطفل » بمنهج شمولى تكاملى وبوصفه وحدة متكاملة .

٦ – ينبغى التأكيد من قبل المعلم – دائما – بأن الفن بعامة ، وأدب الطفل بخاصة مطلب أسسى فى نشأة وتكوين مسارات الطفل وأنهما الفن والأدب عنصران حيويان فى البنية الأساسية لوجدان وعقل الطفل ، وأنه ينبغى مراعاة هذا الدور لهما عند القيام بتدريسهما ، أو تقديمها لأطفالنا ، حتى يمكن تحقيق ما يهدف إليه تدريس « أدب

الطفل » من أنه يمارس وظيفته الأصيلة نحو تزويد الطفل بثراء فى الخبرات وإشباع الحاجات .

ثالثا : مراحل النمو وعلاقتها بأدب الطفل ، وتدريسه :

تجمع الدراسات النفسية ، ودراسات الطفولة على أن الأطفال يمرون بمراحل تنمو بهم ، وتنمى قدراتهم ، وتسلم فى نهاية هذه المراحل ، إلى عتبات الشباب . وتبدأ مراحل نمو الطفل ، كما هو مشاهد ، بالمرحلة الأولى ، وهى :

أولا : مرحلة المهد ، والتى تبدأ من اللحظة الجنينية — حتى سن ثلاث سنوات . وفى هذه المرحلة ، تكفى أغنيات الأم ، وهز المهد بطريقة إيقاعية ، وحكيات الجدة ، وحواديتها الخيالية ، وقصص الحيوانات ، التى تتجمع ، وتتعاون وتتساند لتقدم العون للآخرين ، ويقوم كل حيوان أو طير بتقديم ما يقدر عليه .. وقد تستغنى الأم بشريط التسجيل ليحل محلها ، أو محل الجدة .. لكن هذا البديل ليس مقبولا دائما .. حيث الطفل بحاجة إلى أدب دافىء : أى أغنيات وحكايات وحواديت بين أحضان الأمهات ، والجدات مصحوبة بموسيقى ورقص وكل ما هو حسن . ويمكن تدريس هذا اللون الأدبى لمعلمى « أدب الطفل » وذلك على النحو التالى :

١ — الوحدة التى يدور حولها الدرس : « أغنيات ماما زمنها جيه » ، « قصة أرنوب » ، حكاية من حكايات : « افتح يا سمسم » ، حدوتة من حواديت المغامرات

٢ — تذاع الأغنية ، أو الحكاية على الطالبات ، ثم تبدأ كل واحدة تردد مقاطع واحدا واحدا ، ثم يبدأ المعلم فى توجيه أسئلة عن مضمون وتوجهات هذه الأعمال ، لاستخلاص أهم الأفكار وشرح المعانى وبلورة الاتجاهات التربوية ، التى تستهدفها الأغنية ، أو الحكاية .

٣ — تبدأ الطالبات ، فى تقديم ألوان أدبية ، على غرار تلك الأعمال ليمرن على إبداع مثل هذه المواد ، وقد تدخل ضمن موضوعات التعبير ، التى يطالبن بالكتابة فيها ، وذلك مع حفظ عدد كاف من أغنيات ، وحكايات ، وقصص تدور حول معانى الأمومة ، والطفولة والإخوة ، والأطفال ، مع اهتمام ببساطة كلماتها ، وعروبتها مستعملة فى بيئات طفولة هذه المرحلة ، والبعد عن الإسفاف فى المبنى والمعنى .

٤ — ينبغى الاستعانة ، بوسائل تساعد على بلورة ، وتنمية الوظائف الأساسية للمادة الأدبية .. فالأغنية ، أو الحكاية ، تحاول تقديم متعة ، وحاجة إلى طفل هذ المرحلة ..

والمعلم مطالب ، بتحقيق هذا عن طريق وسائل تستطيع تجسيد وإبراز هذه التوجهات ، والمساعدة في إيصالها ، وتحديد مفهومها وهذه المعينات ، قد تكون سمعية ، أو بصرية ، والمقصود منها في هذه المرحلة هو إثراء خبرة الطفل الأولى ، وتوضيح المعانى المقصودة ، وإيصال الأثر المطلوب ، كما أن هذه المعينات تقدم البديل أحيانا ، وتضيف الكثير للخبرة المباشرة ، ووجودها مصاحب ، للعملية التعليمية حول تدريس « أدب الطفل » إنما يقصد من ورائه إحداث نوع من البديل المباشر المعين ؛ ليظل الطفل ، والمعلم ، في حالة اتصال بمضمون الأدب . وبالرغم من أن هذه الوسائل المعينة ، فعالة ، في تحقيق أهداف الأدب إلا أنها لا تتسم بالمرونة ، التى تتسم بها العلاقة الثلاثية بين الطفل والمادة الأدبية ، والمعلم ، ولا يمكن أن تتضمن – هذه المعينات – على خصائص العلاقة الإنسانية الإبداعية ، التى تضمنها العلاقة الإبداعية ، بين متلق متذوق ، وأدب صادق أصيل ، ومعلم موهوب ، وموصول فى توجهاته ، بعالم الطفل .. من ثم ينبغى إدراك أن هذه الوسائل مجرد معينات ، لإحداث نوع من البديل .

ثانيا : مرحلة الطفولة المبكرة ، وهى تبدأ من : (٣ – ٦) ؛ أى سن دخول المدرسة ، وفى هذه المرحلة ، يبتعد الطفل عن إطار الوالدين ، والأسرة قليلا ، ويبدأ فى التعرف على المجتمع حوله ، والكون المحيط ، والطبيعة الممتدة ، ويأخذ فى تكوين صداقات ، وينمو بداخله غريزة حب الاستطلاع ، والتعرف على ما وراء النهر ، أو البيوت فى أطراف المدينة ، أو ما وراء السماء ، وما تحت الأرض ، ويأخذ فى إثارة الأسئلة ، طلبا للإجابة ، وبدءا للتأمل الذاتى ، والخارجى الذى سيستمر معه إلى النهاية ، وهو لهذا يحيل إلى الأدب فى إطاره الجماعى ، وإلى القصص الخرافى ، والحكايات الشعبية والحواديث (الفلوكلورية) لكن فى إطار البيئة ، وواقعها .

ويمكن لطفل هذه المرحلة ، أن يتعرف ، ويتقن مفردات لغته العربية خلال أغنيات ، وأشعار عربية سليمة ، وذلك مثل « حوارات الأزهار » أو « الطيور » ، أو « الحيوانات الأليفة » .. حيث تجرى اللغة طيعة جميلة ، صحيحة متدفقة ، وسأضرب مثلا بحوار يدور بين فتيات الريف الوادع الجميل ، والحمام الزاجل ، وكانت هذه الأغنية مشهورة فى ريفنا ، قريبا من « بلقاس » عاصمة البرارى تقول الأغنية :

الفتيات : أيها الطائر أهلا .. بمحياك وسهلا .. فقت كل الطير شكلا .. زانه ذاك الهديل .

الطائر : أمُكنٌ استودعتنى ... شوقها إذ ودعتنى . وكتاب حملتنى .. لفظه يَشْفِى العَلِيلَ .

الفتيات : أقر يا خير الحمام ... أمنا منا السلام ... ذاك أقصى ما يرام ... وبه تم الجميل .

الطائر : سأطير .. وأطير .. وأشدو للسلام الجميل .

ويمكن اتخاذ هذه الأنشودة ، محور الدرس فى « أدب الطفل » يقوم به مُعلِّم طالبات أقسام الطفولة ،ورعاية الأطفال ، وذلك على النحو التالى :

١ - بيان أهمية اللغة ، والمضمون الإنسانى ، والجمالى ، والقيمى للأنشودة ، ومن أجل هذا ينبغى التأكيد على النقاط التالية :

(أ) تجنب ربط الأنشودة بقاعدة نغوية ، أو نحوية .. بل ينبغى الاقتصار على النطق السليم الجميل ، وتدريب الطالبات على ذلك .

(ب) تزويد الأطفال ، الذين سنقوم بتنمية الذوق الأدبى عندهم ، عن طريق المعلمين ، أن تزودهم ، بما يحتاجون إليه ؛ لمساعدتهم على النطق الصحيح ، والتذوق السليم ، والأداء الجيد ، والإيقاع المضبوط .

(جـ) الإقلال ، قدر الإمكان من الإشارة إلى المعلومات ، ويكتفى ببعض المعارف التى تساعد على التذوق ، واكتساب الخبرة ، وتحسن من الأداء والتوظيف المناسب ، مع الإقلال من المناقشات التى تضعف من تأثير الفن ، وتفسد على الأطفال ، تذوقهم الشعر ، وتجنب المناقشات اللغوية والفكرية واللفظية المملة ، والابتعاد عن كل ما يجعل هذه الأنشودة ، وغيرها ومثيلاتها من الشعر ، وسيلة لبث المواعظ والتوجيه لمباشر الممل ، والمفسد لقيمة الجمال ، التى موطنها وغايتها النص .

٢ - بيان أن هذه الدراسة ، توظيف للأدب ، وتنمية للأذواق ، وتهيئة الطفل لاستقبال الأدب ، بوجدان وقلب ، مفعمين بحب الجمال ؛ ولهذا ، تصبح تنمية القدرات التذوقية ، لدى طفل هذه المرحلة ، هو انعكاسا أمينا ، وصادقا ، لما عليه البيئة ، والمجتمع العام والخاص من ثقافة ، وحضارة ، مع إضافة ما تتوسل به البيئة من معينات وفى هذا المجال ينبغى التأكيد على النواحى الآتية :

(أ) إثارة المهارات اللغوية ، والقدرة على تصوير بعض المواقف ، فى إطار التعبير عن الذات فى اتجاه الثقافة السائدة ، والجماليات المعروفة .

(ب) الاستفادة من كل المثيرات المصاحبة ، لتدريس هذه الوحدة الغنائية .

(جـ) تعديل سلوك الأطفال الإبداعى ، وإكسابهم اتجاهات نحو الجمال ، وتنمية تفاعله الوجـانى ، مع الفنون الأخرى خلال العرض الدراسى ، وفى إطار من التفاعل مع البيئة ثقافيا و« فلوكلوريا » .. وعلى « المعلم » أن يطرح مجموعة من الأسئلة على طلابه ؛ كى يستفيدوا منها عند قيامهم بدور معلم « أدب الطفل » وتدور هذه الأسئلة فى الأطر الآتية :

١ – العوامل المشجعة على الإبداع ، وتندرج تحتها مثل هذه الأسئلة التى تكشف عن العوامل الكامنة مثل :

س ١ : كيف توجه القدرة الإبداعية عند طفلك ؟

س ٢ : إلى أى مدى يعتبر التعليم والتربية الجيدة دافعا إلى الإبداع ؟

س ٣ : ما أنواع الدوافع التى تعينك على الأخذ بيد الطفل نحو التذوق ؟

٢ – العوامل النافية للإبداع ، أو المعوقة لعمليات التذوق الجمالى ، ومن ثم القدرة على الإبداع ، ويمكن تخيص تلك العوامل فيما يلى :

(أ) ضعف العملية التربوية والتعليمية فى أفقها الأوسع ، وبخاصة الموجهة للأطفال ؛ ولذلك لا نستطيع كشف القدرات الإبداعية والتذوقية لدى الأطفال ، والتعليم حينئذ ، لا يشجع على كشف المواهب .

(ب) دفع الأطفال ، إلى التقليد ، والمحاكاة ، وحب الظهور ، بدلا من الاعتزاز بالشخصية ، والقدرة على الحضور المؤثر ، فى المواقف ، والمشكلات .

(جـ) الميل إلى الهروب السلبى ، وعدم الميل إلى القراءة ، والمطالعة وسماع القصص الخيالى ، والتشتت الناشىء عن عدم تجديد هدف أى عملية فكرية ، أو وجدانية ، أو تعليمية ، وما ينشأ عن هذا كله من فقدان الثقة . ويمكن الكشف عن هذه العوامل النافية للإبداع ، والقدرة على التذوق وذلك بواسطة الأسئلة التالية :

س ١ : ماذا تحب من درس القراءة .. ؟

س ٢ : لماذا لا توجه أسئلتك إلى معلمك ؟

س ٣ : ما الذى تفضله ، وأنت فى حصة الأناشيد ؟

س ٤ : أيهما تفضل ، التفوق دون مشقة ، أم النجاح بمشقة . ولماذا ؟

س ٥ : هل يسعدك التصفيق لك . أم مساعدة الآخرين دون علم أحد .. ولماذا ؟

س ٦ : أيهما تفضل زيارة عمك للتمتع بثمار حديقته أم الذهاب إلى المكتبة للقراءة . ولماذا ؟

س ٧ : هل تكون مسرورا ، عند الانتهاء من رسم لوحة ، أو كتابة خطاب إلى صديق . ولماذا ؟

وفى هذه المرحلة ، ينبغى التركيز على مثيرات الخيال ، وتوجيه الطفل نحو إثـ ـة عواطفه ، وخياله تجاه الأشياء المحيطة ، والتعاون معه فى الرد على كل تساؤلاته ،وتوجيهها توجيها يتفق ، والكشف عن قدراته الإبداعية ، وتقديم نماذج أدبية ، تساعده على التذوق ، والتغنى بها ، ومساعدته فى تلحينها ، وترديدها فردا ، أو مع جماعته ، ولخصوصية هـه المرحلة : (٣ – ٦) فإن على معلمى « أدب الطفل » أن يبثوا بين الأطفال ، النزوع الفنى ، والأدبى وأن يعيدوا صياغة الأطفال اللغوية ، فى صياغات إيقاعية ، وفنية . وأن يكشفو عن ميولهم الإنسانية ، واتجاههم نحو الحيوانات الأليفة ، والطيور ، والكائنات الصغيرة ، والأزهار ، والأشجار ليؤكدوا على هذه الميول ، ويبلوروها ؛ لأنها مؤشر ، على شخصية الطفل الإبداعية ، والفنية ، والأدبية ، وميله إلى الابتكار .

ثالثا : مرحلة الطفولة من (٦ – ١٠) ، وهى مرحلة تشد انتباه الطفل إلى ما وراء الأشياء ، وتذهب به إلى آفاق فسيحة من الخيال ، وتعمق له الظاهر ، وتدعوه إلى كشف الباطن الخفى .

وفى هذه المرحلة ، يحاول الطفل التركيب ، والتجميع ، وتفسير كل الظو مر وعقله ، مرحلتئذ ، أقرب إلى الخيال ، واصطناع الحلول الخرافية للمشكلات ، ودور ما يتمثل فى تقديم ، أدب يشبع خياله ، ونهم وجدانه نحو الرؤى الحالمة ، مع أخذه بمنهج عقلانى يمجد الفعل الإنسانى ، بديلا لغيبية الحل الخرافى والاتجاه به عبر أدب قصصى ، وإبداعى ، وغنائى للسير فى مسار الأدب الخيالى ، تحقيقا للمتعة ، وإثراء لمعواطف ، والأحاسيس وتقوية للخيال ، ووصولا إلى معرفة عقلية ، يكشف عنها هذ الأدب الخيالى ؛ حتى يكون طريقا إليها ، وفى خدمتها ، وتحقيقها أو إلى قيمة فنية جمالية ، أو أخلاقية .. المهم أن يكون هذا النوع من الأدب الخيالى ، وسيلة لا غاية .. أما الغاية ، فهى تقوية الإرادة ، والفعل ، وإثراء المرحلة بالخبرة ، وتزويد الشخصية بالمعرفة ، وإشباع الحاجة ، وبث الفضيلة ، مع قوة التصور الذى ننميه ، لدى كل مرحلة ، من مراحل عرض الدرس الأدبى ..

والمعلم حينئذ يستطيع اختيار قطعة أدبية ، تساعد على تقوية الخيال ، وتمنح الطفل فرصة للتذوق ، أو أن يختار قصة تتميز بخيالها الحر ، وبقدرة البطل على التجاوز ، والامتداد فى المجهول ثم يعود حاملا ثمار مغامراته ، خيرا ، واكتشافا علميا نافعا .

رابعا : مرحلة الطفولة من : (١٠ - ١٤) ، وهى المرحلة التى تتحدد فيها معالم الشخصية ، وتستفيد من الروافد المغذية القادمة من التربية والتعليم ، والأسرة ، والمجتمع ، والنظام الاجتماعى وفلسفته السائدة ، ومن المناخ العام الثقافى والحضارى والاقتصادى ، والسياسى ، وتظهر فى هذه المرحلة ، النزوع نحو الفردية (الأنا) وحب السيطرة ، وشدة التملك ، وحب الظهور ، ولذا فإن الأدب الذى يقدمه المعلم ليكون ملائما لهذه المرحلة . بكل تعقيداتها ، وتركيبها ، هو أدب البطولات : الشعرية ، والقصصية ، والمسرحية ، وهو الأدب الملتزم بقضايا الحرية ، والدفاع عن الأوطان والمعتقدات ، والتغنى بالأبطال الحقيقيين ، ومع هذا اللون ، يمكن الاهتمام بالأدب الاجتماعى ، والإنسانى ، وفى التاريخ القديم ، والمعاصر ، والمشكلات الحضارية والاجتماعية الحديثة ، معين خصب لإرواء ظمأ أطفال هذه السن ، وينبغى لمن يعمل فى تدريس مادة الأدب لأطفال هذه المرحلة الاهتمام بما يلى :

١ - توجيه النزوع إلى السيطرة وحب المقاتلة ، إلى الحوار العقلانى الهادف ، والدعوة إلى السلام باعتباره قاعدة الحياة العامة ، إلا إذا هدد الوطن ، أو الأمة ، أو المعتقد فلا بديل للسلام ، إلا الشجاعة والإقدام ، والبسالة فى سبيل الأوطان : والشعوب ، والمعتقدات .

٢ - توجيه مرحلة المغامرة ، والبطولة ، التى يعيشها أطفال هذه المرحلة ، نحو التفوق ، والخدمة العامة ، والانخراط فى معسكر العمل والإنتاج ، وتعلم فنون الدفاع عن الأوطان .

إننا بالفن ، وبالشعر خاصة ، نحمل الطفل على البوح لنا بكل ما يعانيه ، ويحس به ، وحينئذ ، نكون أكثر إنصافا له وقدرة على حل مشكلاته ، وفى سبيل هذا ينبغى أن ننوع له فى التجارب الشعرية ، ونأخذ بيده نحو شعر الطبيعة ، وشعر الحب العفيف ، وشعر الانتماء للوطن وشعر التسامح الدينى ، وشعر الإيمان .. وشعر الحماسة فى اتجاه المثل الأعلى ، وأن ننوع له أيضا فى الفن القصصى فنختار له ، قصصا اجتماعيا ، وآخر إنسانيا ، وتاريخيا كما لا نحرمه من الأساطير ، التى تفسر نشأة العلوم وتوضح اجتهاد البشرية ، لتفسير الكون ، واللحاق بالعلم واكتشافاته ، والحدوتة ، والحكاية ، التى يسترجع عن طريقها طعم الحياة الشعبية ، التى عاشها ، ويعيشها مجتمعه الصغير والكبير .

وفى هذه المرحلة يجدر بالمعلم ، أن يضع نصب عينيه حقائق منها :

١ – ليس الغرض من تدريس ألوان الإبداع الأدبى ، هو مجرد شرح نصوص أدبية .. بل المقصود هو تزويد الطفل بخبرات جمالية وأخلاقية ، وإنسانية ، ثرية بكل عناصر التذوق السليم والإستنارة الغنية بالمفاهيم الصحيحة ، عن التاريخ ، والوجود ، والكون والحياة .

٢ – أن يكون ما يختار لهم غنيا بالرؤى ، وجماليات الشكل والمضمون .

٣ – أن تكون الأعمال المقدمة للأطفال ، مليئة بالحيوية ، والتفتح للحياة ، وقادرة على التسلل إلى عقولهم ، وقلوبهم ، ووجدانهم لتصنع هناك حسا فنيا وأخلاقيا تجاه كل الأشياء .

٤ – أن تكون هذه الأعمال من الأدب ، الذى يستطيع الطفل ، أن يستعيد من خلاله الخبرات ، ويشعر تجاهها بالحاجة الملحة : وأن تكون من أدب الأطفال ، أو من الأدب الذى يبدعه الكبار ، ويتضمن خبرات مستفادة للأطفال .

رابعا : التذوق الرمزى ، وفن تدريس « أدب الطفل » :

يمكن لمعلم « أدب الطفل » أن يدرب أطفال مرحلة : (١٠ – ١٤) على تذوق أدب العواطف الإنسانية ، واستيعاب الأدب الرمزى بكثافته الخيالية ، والرمزية ، كما يمكن تدريب أطفال هذه المرحلة على ربط الأساطير الشعبية ، بمنهج تفسير نشأتها ، وارتباطها الوثيق بنشأة وتطور المعرفة الشعبية ، مع استمتاع بمضمونها ، وإشاراتها والفلسفة التى تسودها.. وينبغى علينا ، ونحن نعلم أطفالنا الكبار التذوق الجمالى، والرمزى، أن نعتقد فى أن الطفل ينبغى أن يتعلم السلوك اللغوى لغته «حيث للغة ، هى سلوك إنسانى ، وتعلمها – شأنها شأن العادات السلوكية الأخرى – هو اكتساب السلوك اللغوى Linguistic behavior عن طريق التقليد، والمحاكاة والاستجابة للمثيرات . »[1] .

فإذا أردنا التأكيد على عملية التذوق لدى الطفل ، كان من الطبيعى أن تنوى عنده هذا السلوك اللغوى ، عن طريق إكسابه دلالات لغوية مدركة إدراكًا عقليًا أو وجدانيًا ، أو حسيًا وأن نساعده على الحياة فى بيئة لغوية سليمة .. حيث الطفل يتكلم بتلقائية ،

---

(١) من مقال بعنوان : « عصر المعلومات ، ومناهج البحث فى العلوم الإنسانية . للدكتور على فرغلى – عالم الفكر مارس سنة ١٩٩٣ ص ٣٠٢ .

وعفوية .. لكن يكتب ويقرأ بمعلم ، وبمنهج تربوى سليم ؛ ولهذا كانت العملية التذوقية داخلة فى إطار المكتسبات على يد معلم ، ومنهج .. وتأسيسًا على ذلك ، يمكن لنا أن نستعرض مع طفل مرحلة ما فوق العاشرة نماذج شعرية ، وقصصية ، أو أعمال أدبية ، يتم إبداعها تحت تأثير عاطفى روحى مكثف ، ومنهج رمزى تأويلى معقد حتى يمكن استنبات ذائقة الطفل الأدبية ، ويتم هذا كله ، فى إطار بناء شخصية الطفل ، بناء روحيًا وعاطفيًا ، وعقليًا .. وتنمية كل ما تنطوى عليه شخصيته من إيجابيات ..

ويمكن لأطفال هذه المرحلة ، أن يتدربوا على تذوق الأدب ذى الكثافة العاطفية ، والخيالية والرمزية وذلك بمثل قصيدة « محمد يوسف » وعنوانها :

(أ) قطف الشمس

البنت الطافية
على شطح الذاكرة
تفك ضفيرتها
وتشاكس
فى
ترق طفولتها
لولد الأخضر
تسأله :
– هل تتسلق أشجار
التوت معى ؟
.. والولد الأخضر
يقطف
حبة توت
بيضاء
... ولذا
أغمض عينيه
ليستدرج أشجار التوت

إلى الجسد
الغارق
تحت
بياض
الحلم
البنت تواصل فك ضفيرتها
تسأله :
– أتشم أريج الورد ؟
أم
تنتظر الوردة
على صوت الوردة
– أتراقصنى ؟
فى غرفتها
تستدعى
الولد الأخضر
من شطح الذاكرة
... تراقصه

في غرفتـــه
يستدعي
ابنت الـوردة
من
شطح الذاكرة
... يراقصها
– اللوحة ناقصة ؟
– لابأس
–هل أحـــد يكملهـا ؟
الولد الأخضر
كيف
يغمس فرشــاه الأخضـر
في
خارطـة
بياض الغرفة ؟ !
– هل هذا في الإمكان ؟
– حين تعم معادلة الوردة
والجسـد الغـارق
في
الخضـرة
تحـت
بياض
الحلم
فـى
عين الشمس
البنت
تواصل
فك ضفيرتها
يفتح
صوت الوردة
قوسا
ليمـر الولـــد الأخضـر
من
نشوة
فتح القوس[1]

إننا أمام شعر سنقدمه ومعه نماذج أخرى ، شبيهة في الاتجاه الرمزي لى أطفالنا . وهذا الشعر يبرز من عالم الخيال عناصر رمزية ، تثير في المتلقى العديد من المشاعر ، والأحاسيس ، وتفتح له أبواب المجهول ، ليتحقق له قدر من المتعة الذهنية ،والوجدانية .. وهذا الشعر يتجاوز مع أطفالنا ، وبهم كل العقبات ، ويسبح معهم في بحار المستحيلات . التي تصبح بفضل الصبر والعمل من الممكنات .. وتحويل الأحلام إلى واقع ملموس ، وحقيقة باهرة ..

كما أن هذه« قصيدة » من « قصيدة النثر » ، تظهر فيها معالم الخيال المجنح ، على ما اعتاده أصحاب هذا الشعر الحديث – وهم يجعلون من مثل هذه « المعالم » « رموزاً » ،

(١) نقلا عن مجلة العربي العدد ٤١٥ يونية سنة ١٩٩٣ ص ٩٢ .

فــى فـــراغ ذليــــــل
وبكـــــــاء الأطفـــال

اللوحة الثانية :

ويطــــير الأطفـــــال
خلـف غـــزال أو خيـــال
وينـــــــامـــون
بين الأنجــــم ســـروال
وهنــــــاك عيـــــون
تيبس فــى حلـم مجنـــون
-مـن هـــــا هنـــا
الأضـــــواء .. لا ســتار
فى الغــرفــــــة المليئـــة
بالليـــــل والنهـــــار
بالليـــــل والنهـــــار
لم يبق إلا ســـــاعة بطيئـــة

اللوحة الثالثة :

غـــرق الفجـــر ومـــات
فى غبـــار الصلــــــوات
لكن
لكـــن فــــــى التخمين
لكـــن فـــــى التخمين
فى خطـــرات البــــــال
يصعـد من آبــــــار الطين
وجــــه الأطفــــال
تيبس فى حلـم مجنــون

والرؤية الفنية للشعر الجديد تبدأ دائما من معانقة الواقع ، ومعايشة الحاضر بكل مراراته فى الهزائم والانكسار ، والحرب التى تقع بين شرائح وأجزاء الأمة ، ومظاهر

التجزئة والتفتت الذى يلحق بأقطارها ، و لموت المجانى الذى يتصيد أفرادها ، ويحاصر أبناءها من طلائع الفداء العربى والمستقبل الواعد الذى مازال يطل كأمل يداعب مناضلينا وأطفالنا وجميع فصائل قوانا التى تلتحم فى معارك مستمرة فى مواجهة الفقر والتخلف ، والتراجع ، وأنظمة الحكم العميلة والمستبدة ، والصهيونية التى تحاول بسموميتها وبخطط الحليف الغربى الأمريكى ، أن تتسلل إلى كل الكيان العربى أملا فى تهديمه ، وإلحاق الهزيمة به ، وجعله يركع ويعترف ويعمل عبدا فى أرض تمتد من النيل إلى الفرات ، وتتكون لديه أحاسيس الغربة فى أرض الوطن من طنجة إلى مكة والمدينة تحت إشراف دولى صهيونى تمهيدا لتحقيق أرض الميعاد .... هذه القضايا ، هى هموم الشعر الجديد وشعر الحساسية الإنسانية المتولدة عن البحث عن شكل شعرى يناسبها ؛ إذ لم يعد الشاعر مجرد واصف أو ناقل أو شاهد على عصره ، أو محايد تجاه ما يقع فى محيطه العربى والإنسانى .. وهكذا فإن الطفل مع هذا الشعر قد تحول إلى قناع ومحور ، تناقش من خلاله أمثال هذه القضايا . وهذا راجع إلى أن الطفل يدرك الأشياء بفطرته ، وأنه بإدراكه الفطرى يرى ضرورة أن تكون الحرب لجميع البشر ، والوحدة هى الإطار الذى يضم الجميع ، والعدل والخير والمساواة والتسامح هى شعارات وحقائق . وإن الطفل الفلسطينى والعربى والإفريقى – وكشأن أى طفل آخر – ينبغى أن يعيش وأن تكون له أحلامه ومستقبله على أرضه ، وألا يسجن أبوه أو أخوه أو تستلب أرضه ، أو تنتهك أعراض أخواته وبنات ضيعته ، وألا تبقر بطن أمه .. الطفل يرفض كل هذا بفطرته ونقاء طفولته .. ومن ثم كان رمزا ومحورا وقناعا تدور حوله أفكار وصور ومعانى وتجربة الشعر الجديد .. وهناك كثيرون تناولوا عدة قضايا من أهمها :

(أ) قضية الطفل والوحدة العربية :

كأنى بقضية الوحدة العربية ، وقد هزمت كحقيقة من حقائق تاريخنا العربى ، على يد الكبار ، تنتظر مع الزمن حتى يكبر الأطفال ، ويتولوا مسئوليات الأمة ليحققوا أملها فى الوحدة . والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ، يعانى من تجربة ضياع الوحدة العربية ، وهزيمتنا أمام حاضرنا فيصور طفلا فى العاشرة يحلم ، ويأمل فى مجتمع قادم ، يؤمن بتحقق الوحدة اليوم قبل الغد ، ويقدم روحه الطاهرة قربانا على طريق هذا الأمل العظيم ، أمل الأمة العربية فى وحدتها ، وذلك فى قصيدته التى يقول فيها :

فى العاشرة
وقلبه تفاحة خضراء ،
تنفست عبى ربى بيروت
لكنها اشتاقت لريح القاهرة
وهى تموت
من تراه شدْ من مرقده ؟
أى خيال جامح ، قاد الصبى من يده ؟
أعطاه الطريق ثائرا وراء الثائرين
أعطاه عشرا ، فوق عشر ، صار فى العشرين ،
يملك قلب شاعر حزين !
يحمل حزن اللاجئين
يملك روح شاعر ثائر
يداه فى الحاضر
فى النار ، فى بحر الدم الهادر
عيناه فى الآتى
يستشرفان النصر موقوتا بميقات
يرى جموع اللاجئين تسرج الخيول ، كى تعود
يسمع أقدام الجنود ، من بعيد
وبينه وبين زحفهم سنين
يحلم بالثلج يذوب ، يجرف السدود
يحلم بالصيف العظيم ، حينما تأتى إلى لبنان
مواكب العربان من كل مكان
يقبلون بعضهم بعضا ، ويبكون
يحلم ، لم يحلم ، رماه باللظى غادر

يألم ، لم يألم رأى زعيمه ناصر
وجها على موج الرياح
ويغمس الصبى فى الدم الطرى إصبعا
وينقش اسم ناصر على الجدار راعشا مقطعا
وعندما تأخذه الصدور
وتمسح العيون وجْهه المغرور
يرونه لم يبلغ العشرين
يرونه فى العاشرة !

(ب) الأطفال مع السلام وضد الحرب :

والأطفال هم رموز السلام مثلما نتخذ من الحمام ، وأغصان الزيتون . لأن الطفولة ميلاد متجدد للحياة ، لذلك كان الشعراء دعاة سلام يذمون الحرب ، لأن ضحاياها هم فى الواقع الأطفال فالحرب تميت البسمة على شفاههم ، وتغتال أبوتهم وتهدد أعشاشهم ، وتحول مصانع « الشيكولاته » و« الحليب » إلى « مصانع حرب وتدمير » ، وتحول الضحكات البريئة لأمومتهم إلى نواح وتزرع عالمهم الوردى بالرعب والدخان . وفى قصيدة : « الأسلحة والأطفال » لبدر شاكر السياب ، إدانة للحرب ، ودعوة للسلام من أجل الأطفال .. باعتبارهم حدائق السلام ، وواحات الأيام .

والقصيدة عبارة عن ملحمة عصرية تحكى مأساة الحروب فى حياة الطفولة ، ثم تختم بطلائع الأمل فى سلام يعم البشر ، وينعم به الأطفال :

عصافير ؟ أم صبية تمرح ؟
أم الماء : من صخرة ينضح
فيخضل عشب وتندى زهور
زهور ونور
وقبرة تصدح
وتفاحة مزهرة
صدى قبلة الأم تلقى ابنها

الأدبى ، واللغوى وتدريب الأطفال ، عليهما ، وعلى تذوق « أدب الإبداع والخيال » بالتعليم ، والتدريب ، يمثل حجر الأساس فى توفير الكوادر البشرية ، القادرة على الفعل ... ويمكن تقديم هذا النص الشعرى لأطفال المرحلة (١٠ — ١٤) بمستويات متفاوتة ، وتفسير الرموز ، بما يوحى بالفضيلة وتكامل الحياة ، وولادتها الدائمة ، وأن الطفولة الماثلة فى الفتاة ، دليل على حب الحياة ، والاستمرار رغم قيود الزمان والمكان ، ومع هذا النص يستطيع المعلم ، أن يكشف عن قدرات الطفل ، الكامنة فى الأعماق ، والتى تتكشف وتنمو ، بأثر من المناقشات ، والتحليلات لمعانيها الرامزة ويستهدف « المعلم » ، من وراء تدريس هذه النماذج من « أدب الطفل » تحقيق المقومات والعناصر البانية لشخصية الطفل ، وهى على النحو التالى :

١ — تعميق وعيه الإنسانى ، بإبراز العلاقات الإنسانية فى صورة أجمل ، وأدوم ، ودالة على تسامح ، وتعاون وتساند .

٢ — تعميق ولائه لحقوقه الإنسانية ، والاتجاه بأحاسيسه نحو الأجمل .

٣ — إيجاد توازن داخل شخصية الطفل ، بين العقلانية والخيالية والعاطفية ، نفيا للتعصب ، والتقليد الأعمى ، والحماقة وتأكيدا على القيمة الجمالية ، وإبرازا للتوجه القيمى الإيجابى ، وتنمية للشخصية السوية .

٤ — تنمية الحس الجمالى ، وامتلاء نفس الطفل بحب الجمال .

٥ — تنمية الحس الأخلاقى ، وتنمية ذلك الحس فى داخل الضمير وظهوره واضحًا فى السلوك ، والاتجاه ، والانتماء .

٦ — نفى الخوف من حياة الطفل ، والانطواء من علاقاته ؛ لأن الطفل الخائف المنطوى ، هو فى الحقيقة بناء اجتماعى متصدع ، وليس مثل الأدب ، قوة تساعد على الحرية والألفة ، والأمان ، وتعزز فى الطفل التوجهات الإيجابية .

٧ — ونحن مع « أدب الطفل » بعامة ، نؤكد على هذا الذى يدعو الطفل إلى النزوع ،فالفعل الإيجابى ، وقوة الإرادة ، وحق الاختيار : والمصارحة كما نكشف معه على كل ، ما يدفع به نحو الاستمتاع البرىء ، والمتع واللعب .

ويستصيح « المعلم » وهو يتذوق مع الأطفال ، نماذج من الأدب الرومانسى الذى تمتزج فيه البيئة الناعمة ، والظروف السعيدة ، والمشاعر النبيلة الجميلة التى تشب وتترعرع فى أجواء مظللة بالتسامح ، والمحبة للمثل الأعلى المتمثل فى الوطن ، أو الأمة ، أو الأسرة ،

أو القيم والفضائل .. وهذه أغنية لمصر يشدو بها شاعر رومانسى هو الشاعر : « محمد أحمد الغرباوى » والشاعر فى هذه القصيدة ذات التفعيلة ، يطبق جفانه على الحب الكبير ، الذى يحتفظ به « لمصر » وفى سياق رمزى شفيف ، يتشرب الحب فيملأ كل كيانه ، ويذوب فى عروقه :

وأنا يا صاحبة القلب الكبير .. بل الأكبر
لن أسهر .. لن أسهر وحدى بعد اليوم
فنجوم الدنيا قد عادت
وتوارى نوم الأجفان
وعيون القمر الراقد قد نهضت
ونفضت كل الأحزان
وانطلقت تسكب فى عينى الدفء
واحتار الضوء
أيعود إلى كل عيون الناس
أم يبقى فى جوف المحبوب
أيعود إلى قيثارة فجر يعرفها عصفور أزرق
أم يبقى فى شفتيك كنجم عاد يتألق
وأنا مشتاق
تلهبنى الرحلة والأشواق
فالحب حياة ، والموت حياة
ورنين الصوت الراقد شفاه الناس حياء
سأقول لكل الناس
أنتِ نهر متدفق
فيه سأغرق
ومعى قلبك ينبض فى أحضانى
تنصت كل الدنيا

فتبوح باسمك أشجانى
وأذوب بكل حروفك
أعتصرك بين الأجفان

نحن أمام الشعر الذى يذوب حبا وعشقا للوطن ، والقيم ، والفضائل التى نحاول زرعها فى أعماق أطفالنا ، فيتملكنا شعور بالبهجة القلبية ، والنشوة الوجدانية ، أمام هذا الإخلاص والولاء ، من جانب الأطفال ، وحشودهم فى اتجاه الوطن والقيم والفضائل .. من هنا ينبغى علينا اقتناص هذا الميل الطفولى الجارف تجاه المثل الأعلى بالتنمية ولنجعلهم أكثر ولاء للحياة ، ونقوى فيهم من إرادة البقاء ، على محاولات الخراب ، والدمار والموت ، ونخرج من دفائن قلوبهم كل المشاعر التى تجعلهم يتعاطفون مع الحياة ، والبناء ، والتفوق ، والتضامن مع كل أطفال الدنيا سعيا وراء السلام ، والمحبة ، والأخوة ، والتسامح والاعتزاز فى الوقت نفسه بالثقافة الوطنية ، والقيم القومية ، والحفاظ على اللغة القومية .. وحيث لا يستطيع منكر ، أو جاحد أن يكابر فى أن الطفل المصرى و لعربى من أكثر أطفال الدنيا حبا وولاء لبلاده ، وقيم وطنه ، وتاريخه وعظمة التاريخ الذى يوفر قدرًا كبيرًا من المفاخر ، والزهو والإكبار وذلك بدراسة ، ومناقشة نماذج رومانسية من هذا الشعر الذى يفيض بالحب للوطن ، ويتدفق ولاء وإخلاصا للقيم والفضائل والأطفال بطبيعتهم ، وبتكوينهم ، قادرون على امتصاص هذه المعانى الرومانسية ، والتى يدل الشاعر عليها بكثافة رمزية .. فالقصيدة التى معنا ، والتى يصوغها الشاعر حبا فى مصر : وعشقا لها .. قد تضمنت إشارات ، يمكن الكشف عنها ببساطة للأطفال حيث الشاعر يريد أن يعيش مغمض العينين ، ويطبق الجفون ، ومعه الناس ، والأطفال ، وذلك على حب مصر فيمسى ، ويصبح ، وقد سرى حبها فى إلكيان وذابت محبتها فى العروق ، ولن يكون الحبيب الولهان فى « مصر » هو وحده .. بل ستشاركه الطبيعة ، وستسَّاقط الأنجم ، ويتسلل القمر من النافذة مشاركة للحبيب فى الافتتان بالمحبوب الذى هو « مصر » .. والأطفال سيعيشون هذه الصورة الفضية بكل مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، وعواطفهم ،إلى أن يمتلئوا حبًا ووفاء ، وولاء لمصر ،ولكل القيم الجميلة التى ندعوهم إليها ويمكن لنا أن نحقق بعض التوجهات فى تربية الطفل من مثل هذا الأدب ، وذلك فيمايلى :

١ – مثل هذا الأدب ، يقودنا إلى دراسة تنمية التذوق الحمالى والأدبى وتنمية مدارك الطفل العقلية والوجدانية ، ويكون مثل هذا الأدب هو أول مرحلة من مراحل تكيف الطفل مع عالم الجمال والقيم .

٢ – وهذه الألوان الأدبية ، تساعدنا على التعامل مع الطفل ومحاولتنا تطبيق علم الجمال المعيارى على تذوقه ، وتنمية فهم السياق ، وحسن التلقى لديه ، في الوقت نفسه تنمية الشعور بالاستمتاع ، واللذة لروحية عند الطفل ، وتكوين عناصر إيجابية فى إدراكه للأشياء ، والحكم عليها ، والوعى بما يقال .

٣ – إشباع حاجات الأطفال ، وإرواء ظمئهم فى هذه المرحلة باستدعاء التاريخ ، وبطولاته الإيجابية وتوظيف مواقفه الرائدة ، توظيفًا يكسب الطفل ، خبرة وتجربة مستنيرة ، وهو يتعامل مع الحاضر ، ثم إسقاط هذه الإيجابيات إسقاطًا حيثًا ، حتى يتدرب الطفل على التذوق النقدى ، والتحليل الاجتماعى والحضارى ، وفهم الحاضر من خلال الماضى .

٤ – ويمكن المزج بين أدب البطولة ، والأدب العاطفى والجمع بينهما ، بما يجعل الطفل قادرًا على التصور الإيجابى للفروسية ، والشجاعة ، والغرام العاطفى الرومانسى العفيف .. وهنا يأتى دور معلمى « أدب الأطفال » فى حسن الاختيار ، والتوجيه السديد ، والتعبير عن الذات بشموخ وطموح نحو تحقيق المثل الأعلى ، فى كل ما يتصوره ، أو يتعامل معه الطفل .. وفى هذا إثراء للشخصية ، وتنمية لقدراتها .

٥ – مع « أدب الطفل » ومثل هذه النماذج الرمزية ، يستطيع المعلم أن يجعل الأطفال ، أكثر ظمأ للحقيقة ، وبعدا عن التهويم وأن يفتح فى مجال نفوسهم ، نافذة مضيئة بالحرية ، والتنوير وأكثر قدرة على الإبداع الفنى ، وأشد نفورا من القيود والنقائص ، وأكثر تقبلا للفضائل ، وسعيا وراء الإصلاح إننا حينما نعلم الأدب للطفل ، إنما نأخذ بيده ، نحو الينابيع الصافية فى حياته ، ونظلل نفسه لحرى ،وقلبه الصدى وعقله الموحش ، بظلال التسامح ، ونداوة المودة ، ورطابة المحبة ونقلل فيه النزوع العدوانى .. ومن ثم نبنيه مواطنا صالحا ، متقبلا للقيم والفضائل ، كارها ، ونافرًا من الظلم والنفاق . وإليك نموذجا آخر من النماذج القصصية ، التى تتضمن رموزا موحية بالقيم ، والفضائل :

(ب) عروس البحر – للشاعر الهندى رابندرانات طاغور

كان شابًا فتيًا ، فى مرآه قرة العين ، وابتهاج القلب ، وغبطة النفوس ...

وكان غرة قومه ، ووجه عشيرته ، يثنون له أعطافهم ويمهسون له أكنافهم ، ويؤثرونه بالحب والإيناس .

وكان من حوله يستفزون نفسه الثائرة بأحاديث الزواج وما فيها للقلب من متعة ، وما فى الطبع إليها من طمأنينة وارتياح .

قال واحد من رسل الملوك إليه : « أما أميرة بهليك .. فما أجملها ! إنها لكالباقة من أزاهير الربى فى الربيع » !

ولكن الأمير الشاب أشاح بوجهه – وكأن لم يعلق الحديث منه بشىء – وما أجاب .

وقال آخر : « وتلك هى أميرة كندهار .. زهرة أنيقة ، وضاءة بهية ، كمثل وضاءة العنقود النضيد » !

ولكن الأمير الشاب ينساب فى الغابة لا يخرج منها إلا بعد حين ..

وقال وصيف من سراى الملك – أبيه – : « جميلة أميرة كامبهوج جمال قوس فزح عند انبثاق أضواء الفجر وأنواره .. وعيناها .. وعيناها ناعستان حالمتان ، تلتمعان التماع قطر الندى الوضاء » !

ولكن الأمير الشاب يستغرق فى كتابه تصفحا فلا يرفع عنه عينيه ولا يفيق !

* * *

واختلى الملك الوالد بنجى[1] ابنه وعشيره يسأله عما انحرف بابنه عن الزواج وبغضه إليه !

فقال سمير الأمير : « أيها الملك الجليل ، لقد زهد الأمير فى الزواج ما سمع عن عرائس الأمواه ، ولقد أقسم فى سره لتكونن زوجه من عرائس البحر ، بنات الماء »

وأراد الملك أن يعلم من أمر هذه العرائس شيئًا ، فاستدعى إليه أهل العلم وأرباب الحكمة .. ولكن أهل العلم لم يروا فى كتبهم عن العرائس المزعومات شيئًا ! إنما هاتيك العرائس : عرائس الخيال الموهومات .. وكذلك قال رواد البحر من الهنود التجار !

فدعا الملك الشيخ إليه سمير ابنه يسأله عمن قص على ابنه هذا الخيال الموهوم ، فأجاب : إنه رجل يضرب فى الآفاق مجنون .. وقد سمع منه الأمير ما سمع فى الغابة حين كان يصطاد !

فأرسل الملك أعوانه فى البحث عن هذا المتشرد المجنون ليحضروه إليه .. حتى وجدوه فجاءوا إلى قصر الملك الفخم العظيم ! فسأله الملك عن مملكة عروس الماء أين تكون ؟

قال المجنون : إنها فيما يلى حدود الشمال من مملكتك أيها الملك العظيم .. وعند سفح جبل « شيتراهى » حيث تنبع بحيرة « كامياكا » ..

---

(١) النجى الصاحب أو الصديق .

فقال الملك : وهل يبصر المرء عرائس الماء هناك ؟

فأجاب الجائل المخبول : نعم ! فى إمكان المرء رؤيتهن .. ولكنه لا يكاد يعرفهن لما يحطن به أنفسهن من إبهام وغموض .. غير أنى أعرف العرائس الفاتنات بأصوات مزاميرهن الرائعة .. أو بقبس من شعاع لهن وهاج !

فغضب الملك من هذا الهذيان وقال : « إنه لمجنون ! قد أصابه مس من حياة التشرد والتجوال فاطردوه » .

غير أن الأمير كان قد أصغى إلى ذلك الهذيان الجميل .. وقد علق بقلبه منه ما سمع ، فليس إلى طرده من سبيل ..

* * *

وجاء الربيع يكاد سنا حسنه يستلب العقول .. وانبثقت أزاهيره فى الغاية تملأها حسنًا وعطرًا ! فركب الأمير جواده ورج .. فيسأله الأهل : إلى أين أيها الفتى النبيل ؟ إلى أين أيها الأمير الجميل ؟ ولكن الأمير ساكت لا يجيب .

السيل يتدفق منحدرًا من أعلى الجبل ثم ينصب فى البحيرة فيفيض .. وهناك ، هناك قرب الجبل فى المعبد المهجور كان الأمير يقيم !

ومر شهر ، والأمير فى معبده برتقب ، وفى الشهر هذا اشتدت خضرة الزرع ، واكتست بوشاح من الزبرجد الزاهى الجميل !

وإن هذا الشهر الجديد يكاد ينصرم .. والأمير فى مكانه لا يريم !

وفى ليلة من ليالى هذا الشهر أصغى الأمير الشاب إلى صوت مزمار خافت يطرق أذنيه كالصدى النائى البعيد ..

وفى اتجاه السيل المنحدر إلى البحيرة الجميلة كان اتجاه الأمير .. حيث كان مصدر الصوت الشعرى الرخيم ؟

وهناك ، كانت تجلس بين أزهار « اللوتس »[1] . حورية من بنات البحر عرائس الماء المنشودات .

إن شعاعًا عبقًا كان ينبثق من زهرة من زهور « السيرش »[2] فى مفرقها الجميل .

* * *

---

(١) زهور هندية معروفة لم نجد لها فى اللغة ترجمة !

(٢) ليس فى العربية وصف كهذا ولكن أمانة الترجمة اقتضت نقله ، على أن فيه معنى يدركه بعض الذين تيمهم الجمال .

فترجل الأمير عن جواده ، ودنا إلى الحورية فى استحياء وطلب منها تلك الزهرة الجميلة العبقة .. فرفعت رأسها ترنو إليه ثم سحبت زهرتها من شعرها وقدمتها قائلة : « إنها لك » .

ثم سألها الأمير : وأى ملكة أنت ؟

فبدت على وجهها علامات الدهش والانكار ثم قهقهت فى ضحكات متزنات كالأنغام .. كان لها رنين فى قلب الأمير الشاب .. لقد ظن الناس تلك الضحكات مزامير . لشد ما يخطئون ..

ثم ركب الأمير جواده ، وأردفها خلفه ومضى يحث السيرا .

وهما على ظهر الحصان همس الأمير فى أذنها أن اخلعى عنك النقاب .. واذكرى اسمك الكامل .

فأجابت : إن اسمى كاكارى .. وأما القناع فما كان قد انكشف كما أراد !

وهنا قال الأمير : وجهك .. أرنيه .. إننى فى حاجة إلى استجلائه أيتها الملكة الحسناء .

ولكنها قهقهت فى ضحكات كالأولى كان لها فى قلبه الملتاع وقع ورنين .

ثم وصلا إلى المعبد القديم المهجور .. فأعلن الخبر وذاع ؛ وسمع الملك الشيخ بزواج ابنه الأمير فأرسل إليه الجند والخيل والفيلة والعربات ، فى معبده المهجور .

* * *

واليوم يا « كاكارى » ستذهبين إلى القصر

ولكنها لم تجبه ، ولكن فى عينيها كان الجواب . لقد كانتا دامعتين ، طافحتين بالدموع ، تستعيران ! لقد هاجتها الذكرى .. وأثارت ما فى نفسها من شجون .

ثم قالت : « أنا لا أستطيع الذهاب .. أيها الأمير المحبوب »

ولكن ضوضاء القادمين وجلبتهم غلبت صوتها الخافض الضئيل ، وسارت إلى قصر الملك الفخيم .

* * *

فرأتها الملكة فقالت : وأى أميرة هذه تكون ؟ ورأتها إبنتها فقالت : ياللعار !!

ورأتها من وصائف القصر واحدة ، فقالت :

انظرن إلى رداء الأميرة الخلق .. لا بأس عليها فإنها ممن لا يحتجن إلى الثياب إذ أنها من عرائس الماء !

ولكن الأمير أسكتهن فى حنق وغيظ شديد : « إن الأميرة قد جاءت متخفية فى هذه الأطمار »

ولكن أصوات الهزء إن خفتت فلم تنقطع ، أو انقطعت فإلى حين ، وكان الأمير إذا سمع ذلك يهيج ويغضب لأنهم لا يشاركونه شعوره نحو هذه الأميرية ابنة ماء ؟ !

ومضت أيام : والأمير على ما وصفنا ، وأهلوه على ماذكرنا وزوجه على حالها لم تتغير ، ولم تلق عنها نقابها البغيض المكروه ..

ولكن الأمير يؤمل وينتظر ، وهو الآن يكتفى بالأمل والإنتظار ..

* * *

وإنه لجالس مع « عروس البحر » يسامرها إذ سألها عن مدى لبس هذا القناع البغيض ؟ فقالت . « سيكون لذاك أيها الأمير مدى معلوم : ولكن تريث الآن » .

فأجابها : إذن سيكون ذلك فى قمر الشهر المقبل أيتها الأميرة الحسناء !!

إن قمراء[1] البدر قد اكتملت وضوحًا وقوة ، فهى الآن تملأ البيد ، وتغسل الحقول .. وتسيل على الأرض فتغطى كل ما فيها .. حتى تلك الغرفة ، وذلك السرير !!

ولكن أين كاكارى .. أين الأميرة إبنة « البحر الحسناء » ؟ !

لقد غابت ، إذ رفعت عنها القناع !!

** **التحليل الجمالى والتربوى :**

١ – هذه قصة شيقة ، لها مغزاها ، وقيمتها التربوية الواضحة ، تصور لنا البيئة الحالمة التى ينتمى إليها صاحبها ، وتبين لنا المقدرة الفنية للشاعر الهندى الكبير الذى صورها لنا قلمه ، وليس يغيب عن المتذوق العربى سلامة ألفاظ الترجمة ، والتأنق فى صياغة عبارتها ، باستخدام الصورة الرائعة المعبرة ، والمحسنات غير المستكرهة ، فكانت تلك لترجمة لفقًا طيبا للموضوع والمحتوى ، وثوبًا قشيبًا ظهرت فيه هذه القصة الهندية الأصل ، جعلنا كأنا نرى الأحداث فيها رأى العين ، ونتابعها فى حرص على الوصول إلى المنتهى ؛ فإذا

---

(١) قمراء البدر نوره .

بنا عندما نبلغه ، نبدو وكأنا نفيق من حلم جميل ، لا نملك إلا استعادته للاستمتاع به ، وعند ذلك تنتهى وظيفته ، وإن شئنا له دورًا فوق ذلك ، فلنقل إنه يحث على الفصل بين عالمى الخيال والحقيقة ، والعمل على إزاحة القناع الذى قد يغلف بعض المظاهر ؛ ليجعلها من الحقيقة ، وما هى منها فى شىء .

إن القصة تبين أن فى طبيعة بعض الشباب تطلعًا إلى التفوق ، وإحراز السبق ، ومحاولة الإتيان بما لم تستطعه الأوائل ، كشأن هذا الأمير الذى طمح إلى الزواج من « عروس البحر » التى سمع بمكانها من « المجنون » فى الغابة ، حيث كان ذلك الأمير يشغل بعض وقته فى الصيد . وظنه أن ما سمعه إنما هو من الحقائق ، ربما سمح لنا بتصوره طبيعة البلاد الساحرة ، وعلاقة أهليها الوثيقة بالطبيعة ، إضافة إلى سن الأمير الصغيرة ، التى قد تجعل الأمور يختلط عنده حقيقتها بخيالها ، ولا يغيب عن استنكار أبين لتفكيره فى أمر زواجه من هذه « العروس » الغريبة .

ويبدو لنا أيضًا ميل بعض الشباب إلى فلسفة الأشياء ، والتروى فى الاختيار بينها ، على ما رأينا عليه هذا الأمير فى إعراض عمن كانوا يعرضون عليه الزواج كل مرة ، مبينين له مرجّحاته ، وإن كنا لا ندرك أساس هذه الفلسفة ، أو دفاع صاحبها عنها ، لكنا نراه مرةً يعرض عن محدثين متشاغلاً بكتاب يقرأه ، مما يرجح أنه كان مشغولا بالفكر أيضًا . على أنا نصدم بهذه النهاية التى هى القبض على الريح ! ولا شك أن المرء فى الحياة كثيرًا ما يتعرض لمثل ذلك ، لكن ينبغى ألا يفتّ ذلك فى عضده ، وهو — فيما أرى — هدف سام من أهداف هذه الأقصوصة الطريفة — وربما كان هذا الفتى قد وفرّ على نفسه ، وعلى ذويه جهد مغامرته لجعل الحلم « حقيقة » ، لو أنه استمع إلى نصح الوالد ، أو أخذ بأقوال مُسامرى الملك ، لكنه توثب الشباب ، واعتزازه بآرائه، وهو أيضا إعطاء الوالد ابنه فرصة إثبات صحة مذهبه وسلامة رأيه ، علّ بحثه يجلى حقيقة كانت غائبة ، ويدفع ظنًّا ربما كان صحيحًا . وما أكثر الظنون التى تصح! وما أكثر المعارف التى لدى البسطاء ممن هم على أمثال «مجنون» الغابة هذا. وهكذا تستمر الحياة بين البحث والمحاولة، والإخفاق والنجاح. ولكل أسلحته وسبله!.

٢ — فهذه القصة ، قد شكلت وجود الذوق ، والفن ، والجمال ومعانى الحق ، والخير ؛ لانتقال الطفل ، من مرحلة عتبات الشباب ، إلى الشباب ، والرجولة ، فى إطار من الأمان والتفسير النقى الروحى الجميل ، فى إطار العلاقة بين الإنسان والكون ؛ ولذلك نستطيع القول ، بأن مثل هذا الأدب ، يعرف بالمعبر الكبير الذى

يعبر عليه الطفل ، إلى مرحلة المراهقة ، ولديه حصيلة وافرة عن التصور التسليم لتلك الأشياء ، فيجتازها فى أمان ، ويسر ، وسهولة ، ويمكن التعامل مع القصة بمستويات مختلفة :

(أ) **مستوى لغوى** . حيث القصة تعبير لغوى صحيح عن المعرفة الأدبية والجمالية ، التى تسود العالم اللغوى للقصة والتى تتضمنها أيضا القصة من حيث الأفكار ، والمعانى التى تكشف عنها اللغة بجلاء ، ووضوح ، وأن اللغة المستعملة ، قد أدت دورا جماليا بكفاءة ، ووضوح رمزى ويتمثل هذا فيما يلى من نقاط :

١ – **الاستعراض الوصفى** ، وذلك بإسباغ الأوصاف على الأشياء رغبة فى وضوحها (.. وكان غرة قومه ، ووجه عشيرته يثنون له أعطافهم ، ويمهدون له أكنافهم ، ويؤثرونه بالحب وإلا يناس) ومثل : (... وتلك أميرة كندهار .. زهرة أنيقة ، وضاءة بهية ، كمثل وضاءة العنقود النضيد !) .

٢ – **التحليل** ، وذلك بتعمق المعانى والأفكار لبسطها ، وشرحها مثل : (.. قال المجنون : إنها فيما يلى حدود الشمال من مملكتك ، أيها الملك العظيم ... وعند سفح جبل « شيتراهى » حيث تنبع بحيرة « كامياكا » . فقال الملك : (وهل يبصر المرء عرائس الماء هناك : فأجاب الجائل المجنون : نعم ! فى إمكان المرء رؤيتهن .. ولكنه لا يكاد يعرفهن ، لما يحطن به أنفسهن من إبهام وغموض) فالمستوى اللغوى ، يجعلنا مع الطفل ، فى حالة تعلم ، وتذوق ومقدرة على الإبداع اللغوى ، وذلك عن طريق توظيف إمكانات الوصف ، أو التحليل ، والتعرف على لغة الإبداع وذلك فيما يتصل بالترقيم ، ومعرفة أساليب المدح والتعجب والانبهار ، والاستغاثة .. إلى آخر هذه الخصوصيات الإبداعية للفصل والوصل .

(ب) **مستوى قيمى** ، وفى هذا المستوى ، تنمو القيم فى اتجاه نمو الحياة نفسها ؛ لترتبط تلك القيم ، بالشخصيات ، وبسلوكها . فالجمال الأنثوى قيمة مادية .. لكن القصة ، ربطته بالعفاف وبالمثل ، فحولته إلى قيمة مثالية سلوكية ، كما أن الرغبة فى بناء الحياة قيمة .. لكن الكشف ، والبحث ، واستكناه المجهول ، هو الذى يجعل لبناء الحياة ، قيمة أجمل ، وأعلى وتتداعى المعانى الجميلة ؛ لتحول القيم التى تدعو إليها القصة إلى عالم مسحور ، مفعم بالجمال الروحى ، ويظل الإحساس بروحانية هذه القيم ، قابضا على المتلقى (الطفل ، المعلم ، القارئ ، المتعلم) ، ويُحيل كل الأشياء إلى محبة ، وتسامح ، وإخاء ، ونظرة وردية نحو الحياة وهذه هى الكثافة ، التى تظل . تتراكم ، وتتفاعل فى نفس الطفل لتقلل عنده المساحة العدوانية والأنانية ، وتكتمل المساحة الطيبة الوادعة ، داخل

نفسه ، وبذلك نحقق له ، عن طريق هذه التربية الجمالية والذوقية ، مع عالم الأدب الرمزى الإبداعى ، الخروج من الطوق المادى العدوانى الحياتى القابض على أطفالنا وهم فى سن الحلم ، والبراعم ، والتفتح .. وهذا راجع إلى إحكام سيطرة القيم السخيفة على المجتمعات الراحلة عن القرن العشرين إلى القرن القادم .. إن أطفالنا يعيشون واقعا يشهدون خلاله أمتهم يضيق جلدها بروحها المهزومة ، والمكسورة فى أكثر من مكان فى العالم . وهذه الأمة تعجز عن مواجهة زمن تراثى ، رحل بكل الوعود ، ولا تملك معه سوى التعلق بذكرياته المجيدة .. حيث التقدم العلمى ، والانتصارات ، والوحدة ، وهى أكثر عجزا ، على المستوى الحضارى ، والعلمى ، والفكرى ، والسياسى عن مواجهة زمن قادم ، وبين هذا وذاك ، يظل الرجل الغربى قابضا على كل مفاتيح الحياة .

ولا نملك مع هذا كله .. إلا أن نقبض ، ومعنا أطفالنا على كل القيم ، والفضائل ، والعقلانية ، والعلم ، وذلك عن طريق تنمية الحس الروحى الجمالى لدى هؤلاء الأطفال ، والذين بهم سنكون أقدر على السكن فى العصر القادم ، الزاحف إلينا من غابة المعلومات ، ودورنا أن نكون قادرين على تمثله ، ثم إثرائه بخبراتنا الروحية ، وإيجابيات تراثنا ، وفى هذا انتصار للعصر القادم ، وربط أطفالنا برسالة التنوير تجاه هذا الواعد وذلك بربط أطفالنا – إبداعيا – بالأدب ، وحسن تذوقه ، وبالفن والقدرة على التعامل معه ، ثم بالعلم ، وبالمنهج العقلانى الذى يسود مدارسنا ، وبالرسالة ، والقيمة ، والقضية ، التى ينبغى أن يرتبط بها كل طفل فى حياته ، بأن يكون صاحب رسالة ، وهدف ، وقضية .

(جـ) **مستوى إبداعى** ، وهو تعبير عن المناطق ، التى هى مصدر البوح ، وملتقى اللاشعور ، كما أنه تجسيد للوعى المكبوت ، والمعتم أيضا فى الوقت نفسه ، فإن هذه الأعمال الإبداعية ، كاشفة عن نفس المبدع ، وقادرة على مخاطبة المتلقى ، وتنوب عنه فى التعبير عن مكنون عقله وما كبت فى نفسه ، ولما كان أطفالنا ، بحاجة إلى أن نقف بجانبهم ، فى مرحلتهم الحساسة (١٠ – ١٤) فإن القصة ، وما تحتوى عليه من مضامين وإشارات إبداعية ، قادرة على أن تمنح المتلقى (الطفل) إحساسا مفعما بالخير ، والوداعة ، والألفة ، والمودة . ومن ثم التعرف على عالمه الداخلى ، والقدرة على تحليل وعيه ، والوقوف بجانبه ، حتى ننجح فى صياغته صياغة تبرز شخصيته وتقوى فى نفسه قيمه ، وقيم مجتمعه ، وأمته وفى هذا مكسب لتطورنا نحو المستقبل .

وبعد فإن أى عمل إبداعى – شعرا كان أم قصة – لن يؤتى ثماره ، مع أطفالنا ، إلا إذا توفر له مستوى رفيع من الأداء الصوتى العاطفى الإيقاعى ، المتميز ؛ لأن الأداء

الإبداعى هو جزء من عملية الإبداع نفسها ، والإلقاء الجيد ، والأداء احسن للعمل الإبداعى ، يمنح الأطفال متعة ، وسعادة ويكشف لهم عن جمال اللغة ، و لأساليب ، ويستطيعون مع هذا الأداء ، أن يحسوا تجاه القيم الجمالية ، والقيم الفاضلة ، بإحساس مفعم بالرضى ، والانبهار والإيمان .. وتجميعا لكل ما قيل ، فإن تدريس الأدب الإبداعى بعامة والرمزى بخاصة يحقق لنا ولأطفالنا غايات نبيلة ، من أهمها :

١ – إن تدريس فن الإبداع الأدبى ، يحفزنا لكى نعمل باستمرار على تجديد البناء الفنى لأدب الطفل ، حتى ننطلق به ، من إسار النمطية ، التى عرفت له ، إلى رحاب الإبداع القائم على التجديد المستمر .

٢ – وفى سبيل هذا يمكن استخدام : أدوات الفن الإبداعى ، مثل استخدام أسلوب المونتاج السينمائى ، للتأكيد على أن « أدب الطفل » مؤسس على العلاقة بين الفنون ، وكيفية الاستفادة من فن لآخر ، والاهتمام فى قصص الأطفال ، بإمكانات الحدوتة .. ومن ثم الاعتناء بالتفاصيل ، والخلفيات .

٣ – الاهتمام بالماضى ، على أساس صوره الحية الحقيقية الباهتة التى لم تترك سوى جوانبها الأسطورية ، بكل دلالاتها .

٤ – ينبغى أن نعود أطفالنا معايشة الواقع حقيقة ، حتى يمكن أن يكون إبداعهم فيما بعد ، وأن تكون ثقافتهم ، صنيعة هذا الواقع .. فالمبدع الذى تصنع إبداعه الكتب ، يختلف عن المبدع الذى يصنع إبداعه الواقع ، بكل خبراته ، وثرائه ، كما لا يمكن أن تكون القراءة فقط ، هى التى تحول الواقع إلى عمل إبداعى .

٥ – تنقصنا جميعا على مستوى العلوم بعامة والأدب بخاصة فن تدريس الإبداع ولا يتكون الإبداع حقيقة ، إلا على أرض قادرة على الإثمار ، والإنبات ، هى الإبداع الأدبى .. ولهذا كان على معلمينا ، وفى إصار مناهجنا مسئولية تكوين قدرات الإبداع لدى أطفالنا ، وذلك عن طريق تحويله إلى مادة تدريسية .. لكن السؤال الذى يطرح نفسه ، هو : من القادر من معلمينا الآن على حمل هذه الرسالة ، وهو أصلا فاقد لها ، ومحروم من التمتع بها ؟؟ وبرغم هذا تبقى تلك المسئولية فى أعناقنا وينبغى أن تتكامل بها مناهجنا ... هذا إذا كنا حريصين على إيصال أطفالنا إلى المستوى الذى يكونون به وفيه معه ، المفرزة التى تطرح تلقائيا العالِمَ ، والمفكّر ، والصانع ، والمهنى ، والحرفى ، والمواطن الصالح ، والحاكم المستنير العادل الموضوعى ، والمحكومين المتعلقين ، النازعين إلى التقدم .

الخـــــاتمـة

بعد هذا التتبع الوثائقى ، الذى أستهدف النص الأدبى ، أدب الطفل بين الحقيقة والنتيجة ، والتوجيه ، وفى ظل ما تمت دراسته عن « أدب الطفل » فنادرًا ما تحمل الكتابات الإبداعية الموجَّهة للطفل ، أو التى أبدعها الكبار .. فى إطار ما يهم عالم الطفولة ، خصوصية المبدع ؛ لأنها فى كل الأحوال ، بمثابة حجر الأساس فى تكوين شخصية الطفل وتحمل بصمته وتبوح بشروطه ، وفى كل الأحوال فإن ماتمت دراسته يمنحنا رؤية صادقة تجاه شروط الطفولة ، وعلاقتها بأدب الطفل وإبراز هذا كله كأحد أهم معطيات : « عالم الطفل » ويمكن بلورة حقائق ، ونتائج ، وتوصيات تلك الدراسة فى النقاط التالية :

أولاً : ينبغى العمل من الآن على إخراج « معجم الطفل » وتدريب الأطفال عليه وذلك من أجل حسن توظيفه واستخدامه وتكوين المهارات الأسلوبية لديهم ، وتمكينهم من تكوين المخزون اللغوى ، الذى يساعدهم على التفسير والتَّميل ، والإبداع ، والتوجيه اللغوى السليم وتذليل الصعوبات اللغوية والأسلوبية التى توجههم خلال عمليات التلقى .

ثانيًا : ينبغى أن توفر الأشكال الإبداعية القصصية أو المسرحية . أو الغنائية قدرا أكبر من الثقافة الوطنية .. حيث الثقافة القومية ، والوطنية واستعادة التراث ، بشكل يؤثر فى الحاضر إيجابيا ينبغى أن تشكل المساحة الأكبر من المعروض من تلك الأشكال الإبداعية الموجهة للأطفال بعامة .

ثالثًا : ينبغى ملء الفضاء الإبداعى بأحجام ، وأشكال الألوان ، والخطوط ، والرسوم ، بما يجعل إنتاج « أدب الطفل » متفقا وميول الأطفال ، ومستويات نموهم ويحببهم فى أدبهم وفى الكتاب الذى يحمل لغة خطاب « لأدب الطفل » وينقل رسالة الآدب إلى أجيالهم .

رابعًا : وفى كل الأحوال ، فنحن مطالبون خلال « أدب الطفل » أن يكون هذا الأدب ذا رسالة تعليمية ، وتربوية ، وثقافية فيعرِّف الطفل بما حوله ، وبتاريخه ،

وإنسانيته وتراث أمته ، وتعريفه بآمال ، وأمانى جماعته ، ووطنه وقوميته مع تنمية مشاعر إيمانه بالله واحدا وثقته فى مستقبل جماعته ، وأصالته ، وتراثه .

خامسًا : إعداد دائرة معارف عن « أدب الطفل » تتناول أهم القضايا ، والمؤلفات ، والمبدعين ، والتاريخ الأدبى لعالم الطفل والمعارف العامة ، والخاصة المتصلة « بأدب الطفل » ..

سادسًا : ينبغى على مبدع « أدب الطفل » وكل المشاركين فى بناء شخصية الطفل ، وتكوين توجهاته ، وإثراء عالمه ، العمل على توجيه وتكوين عقليته علميا ، وابتكاريا ، وتنميته فنيا وأدبيا وإثراء عالمه الشخصى روحيا . ومن ثم بذر بذور التجريب والملاحظة والتأمل ، والتلقى الجيد ، والعقلانية الرشيدة حتى نستطيع تكوين مجتمع صالح ، مؤسس على مواطن قد نجحنا فى توجيه طفولته توجيها صالحا ، ووُفِّقْنا فى إرساء الأسس السليمة لتنمية كل طاقاته وقدراته الجمالية ، والتذوقية ، وتوسيع مداركه بإيصال ما يناسب من خبرات ، وتجارب ، ومعارف .

سابعًا : التوخى الجيد ، وإرساء الأسس الصحيحة نحو بناء أدب جيد يقوم على نص فنى راق فى صوره الأدبية ، وكلماته العربية الفصاح المعروفة بالسهولة ، ووضوح التوظيف والدلالة .

ثامنًا : كتاب الطفل – المدرسى ، والأدبى – ينبغى أن يكون مفيدا فى مجالات المعرفة ، واللغة والثقافة ، والفضائل . ومن ثم يكون مناسبا لمستوى مراحل نمو الأطفال وطبيعتهم ، وميولهم الفنية ، وقدراتهم ، وأذواقهم .. حيث ألوانه ، وحجمه ، وصوره ، ولغوياته والمعانى والأفكار والتأويلات التى يتضمنها ويستهدفها ؛ ولذلك كانت الدعوة جهيرة نحو توحيد كتاب الطفل المدرسى ، والأدبى فى كتاب واحد .. حيث الأدب يشكل وجدانه ؛ فيوسع من مداركه ، وقدراته العقلية والعلمية ، والعلوم المدرسية تغذى مواهبه ، وتفتح أمامه آفاق الكون والخيال العلمى ، فتثرى وجدانه وتكشف عن قدراته الابتكارية والإدراكية ؛ ولهذا تصبح الدعوة نحو توحيد مصادر المعرفة . والفن ، والأدب لعالم الطفل فى كتاب واحد أمرا تحتمه طبيعة الطفولة نفسها ...

تاسعًا : تبنى منهج الاستقراء ، وعمل الاستبيانات ذات المصداقية – لا تلك التى يجريها طلاب البحث التربوى ، وأمثالهم – وإجرائها بين الأطفال من حين لآخر ؛ للوقوف على أهم الاتجاهات التى تسود الأطفال من حين إلى حين ، ولتعرف على

ما ينبغى تقديمه من أشكال أدبية مناسبة ، وتحديد الموضوعات ، والأفكار التى يفضلونها .. كما ينبغى الاهتمام بالشعر العربى ومنهج اختيار نصوصه ، وكتابة ما يقدم للطفل بحرف كبير مشكول ، وبخاصة الشعر ، وتجميل الخط بشكل يبرز قواعده العربية والالتزام بهذا فى العناوين الرئيسة ، مع العمل على نشر الخط العربى فى كل النصوص المقدمة للأطفال ، وإعادة طباعة الحروف العربية اليدوية ، أو ما يماثلها .. حيث التصوير الآلى ، أو « الكومبيوتر » يعملان على ضياع ، وغموض بعض الحروف ، لذلك ينبغى العمل على استكمال شرائط الكتابة العربية السليمة .

عاشرًا : لا ينبغى النظر إلى « أدب الطفل » على أنه ترف ثقافى يقدم لأطفالنا .. بل هو إحدى الخلايا التى تدخل فى تكوين عقليتنا عن طريق ربطه بأهم بنية أساسية فى تشكيلنا الاجتماعى ، ورصيدنا الحضارى ، والإنسانى ، لهذا كله كان الاهتمام « بأدب الأطفال » هو اهتمام موجه أصلا للإنسان المصرى وعلى هذا كان المنهج التربوى باشتماله على « أدب الطفل » هو خطوة إلى الأمام فى طريق التحديث المنهجى والتطور التربوى .. وكانت الحاجة إلى إنشاء « بيت أدبيات وثقافة الطفل » ضرورية وماسة لتتكامل « لأدب الطفل » ميدانه التطبيقى ، وأوعيته التى من خلالها يتعرف الطفل على هواياته ، ويستمتع بأدبه ممسرحا ، ومحكيا ، وممثلا فى سينما الطفل ، ومبرمجا فى شكل قاعات المناظرة والخطابة ، وحواديت الجدة . الخ

المراجع مرتبة حسب ورودها

أولاً :

١ – القرآن الكريم
٢ – البخارى
٣ – صحيح مسلم
٤ – تفسير الطبرى
٥ – تفسير ابن كثير

ثانيًا : مصادر تراثية :

البيان والتبيين للجاحظ
الحيوان .. للجاحظ
المفضليات .. للضبى
الأغانى .. للأصفهانى
لسان العرب

ثالثًا : دواوين الشعراء

أحمد شوقى
البارودى
سليمان العيسى
الهراوى
محمود أبو الوفاء

رابعًا : مراجع عربية :

المؤلف	اسم الكتاب والنشر
١ – أحمد الحوفى « دكتور »	: المرأة فى الشعر الجاهلى
٢ – أحمد نجيب	: فن كتابة الأطفال القاهرة١٩٨٠
٣ – ابن برى	: التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح
٤ – ابن رشيق القيروانى	: العمدة
٥ – ابن هشام	: السيرة النبوية
٦ – أحمد سويلم	: أطفالنا فى عيون الشعراء : دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦
٧ – يوسف خليف « دكتور »	: الروائع من الأدب العربى: الشعر الجاهلى

٨ – على الحديدى « دكتور » : فى أدب الأطفال : مكتبة الانجلو المصرية
٩ – غنيمى هلال « دكتور » : النقد العربى الحديث : دار النهضة العربية سنة ١٩٧٢
١٠ – عز الدين اسماعيل « دكتور » : الشعر العربى المعاصر : دار العودة – بيروت سنة ١٩٧٤
١١ – عبد العزيز المقالح « دكتور » : بحث فى أدب الطفل – مجلة الموقف – السورية سنة ١٩٨٤
١٢ – الطاهر أحمد مكى « دكتور » : الشعر العربى المعاصر : روائعه ، ومدخل لدراسته : دار المعارف سنة ١٩٩٢

خامسا : الدوريات :

١ – مجلات ثقافة الطفل التى تصدر عن المركز القومى لثقافة الطفل . مجلات : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ عامى ١٩٩٢ و١٩٩٣ .

٢ – مجلة الكتاب وكتابات الأستاذ عبد التواب يوسف

٣ – مجلة العربى
مجلة القصة
مجلة المسرح
مجلة الموقف
مجلة الآداب البيروتية ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٦ .